صَدِيقي زياد

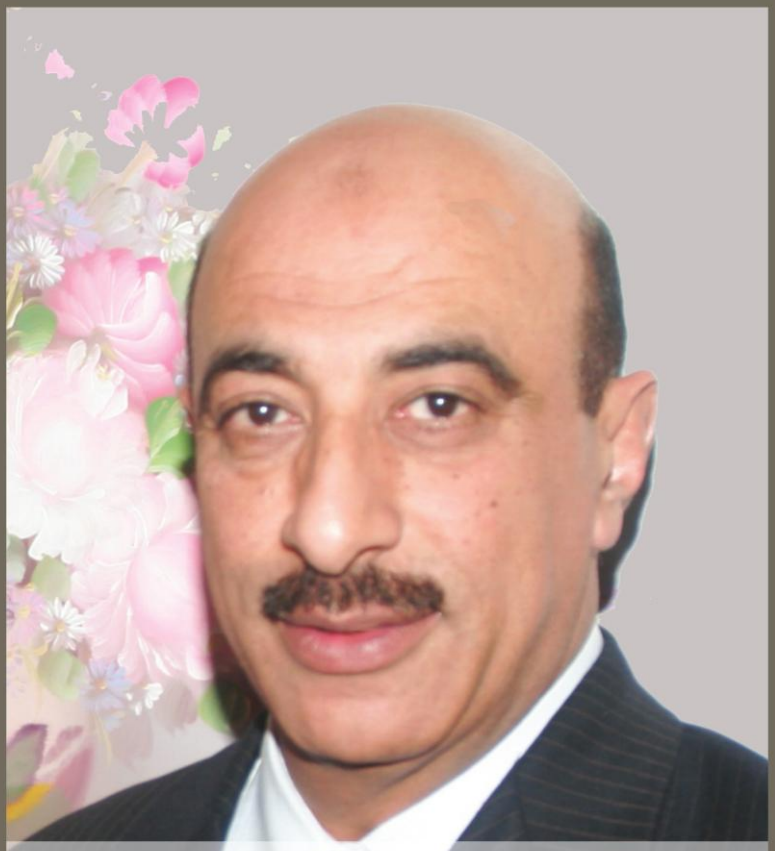

فِلسطيني من قطر

فَلْسَفَة حَيَاة وَمُوَاجَهَة مَرَض .

سِيرة

عبد الجبار عدوان

عبد الجبار عدوان

صَدِيقي زياد

فِلسطيني من قَطر

رُؤى في الموتِ والحياةِ

سِيرة

المُحتويات

الإهداء
في رثاءِ زياد أبو عجينة
تمهيد
مِنَح ومِحَن
"وبالوالدينِ إحساناً"

بَينَ المَنحِ والمِحنِ

عن العائلةِ والإيمان

المِليونير

في الصداقة

مع الناس

سيدنا يُوسُف

فعل اللسان

في الزعامة

في السياسة

في فعلِ الخير

عن المؤامرات

الزوجةُ الثانية الفرنسية

عما يُضحك

عن القيادة

فنُ "التطنيش"

عن الحلم والمال

اصطفاف البلاوي

حافة الموتِ والحياة

الدنيا والآخرة

بين العلمِ والاتكالية

قانون المصُونية الذاتِية

الطبيبُ المختص

من السحرِ إلى الفضاءِ

على حافةِ الموتِ

شبابُ الشيخوخة

التَرَوِي والحكمة

إنَها الحياة

الإهداء

إلى كُل محبي المرحوم زياد والمخلصين لِذكراه الآن.

هذا العمل تلبية لحاجة، واستجابة لطلب، ووفاء بوعدٍ.

إنّ حياة الإنسان لا تبتدئُ في الرحم، كما أنّها لا تنتهي أمام القبر، وهذا الفضاءُ الواسعُ المملوءُ بأشعّة القمرِ والكواكبِ لا يخلو من الأرواح المتعانقةِ بالمحبة والنفوس المتضامنة بالتفاهم.

جبران خليل جبران

في رثاءِ زياد أبو عجينة

تراتيل آخر الليل

بعيداً عنكَ في المدى،
قريباً إليك في الروحِ..
عند ضفافٍ منسيّةٍ..
على نهرِ الهافل الألماني الصغير..

كنتُ بين أسرابِ السنوّنو،
أبحثُ عن وجهِكْ،
وكانت بعضُ غربانِ المساء،
تنتهكُ عروشَ الوهمِ،
تفقأُ عيونَ صلاتي من أجلك،
تُواري الأملَ اللعين..

وعناقيدُ الكرمِ وأشجارُ التفّاح،
تُذكّرني بـ يافا والخليل ورام الله..
وبساتين فلسطين..
وفي قلبي ثمّةَ صديق،
أحبَّ الحياةَ،
في قارةٍ أخرى، يرقدُ مهموماً،
في غيبوبةِ يأسٍ وضجيجِ زائرين.

قالوا: إنك وحيداً كنتَ،
قالوا: إنك في لاجونا الدوحة،
تبكي الليلةَ رغم حشدِ الأقربين،
غيابَ حبيبْ..
تبكي الليلةَ أوجاعَ حياةٍ مرّت كالبرق..
في بلادٍ أنتَ منها، كالغريبْ..
تبكي الليلةَ مرارةَ حبٍ في حفلِ تنّين..
وإنك..
لا كما عهدتُك، طوداً شامخاً،
تذرفُ هذي الليلةَ دمعاً،

أسمعُهُ كحفيفِ العشبِ يهمسُ،
عبر مسافاتِ الريح..
والربعِ الخالي، وجبالِ الألب،
ينسابُ ثقيلاً على خدّيْك،
يموجُ في سريرِ الوحشةِ،
مثل بحار حنين..
يجيشُ في سكونِ الذكرى،
وصمتِ العُزلةِ،
ذُعراً، هلعاً، أشباحاً للموت،
في هرجِ الهاربين من ديارِ الغُربة،
ومرج القادمين الجُدُدِ إلى غُربةٍ أخرى..
إلى باريس ولندن وبرلين..

أو تذكر حديثنا عن الشعر..؟ والسياسة..؟
وقصص اللاجئين..؟
بعيداً.. بعيداً عن سرِّ الحبِّ الدفين.
بالأمس كُنتم أنتم، تحملون خيامكم..
واليوم نحن نسير على خُطاكم،
مستعَبدين..
وغداً إن شاء الله، نقرأها في كتب الأوّلين.
يطالُ مصيرنا القاسي، المهين،
أهل العروبة أجمعين.

أوَ تذكر حديثنا..
عن مواسم هجرة صبايا المسلمين..
لا إلى مكّة..
لا إلى القدس..
بل إلى بلادِ الراين والتايمس والسين..
ودارِ الحرب المسيحيين..
أو تذكرُ حديثنا..؟
وقد كنّا نظنُّ
أنّنا لابدَ –بحمدهِ- ذاتَ يومٍ عائدون.
وأنّ الموتَ ليس لنا..
وأنّه إن جاء
فلن يأتي أحداً منّا إلا بعد حين.

قالوا: إنّك وحيداً كنتَ،

تخونُك المعرفةُ وأنت خيرُ العارفين..
وأنك تبكي الليلةَ، هرولةَ الدنيا،
وسباقَ السنين..
وأنك -هذي الليلةَ- تذرفُ دمعاً،
يبكي له الدمعُ، رأفةً،
وتئنّ من هولهِ،
كلُّ أساطيرِ الحزنِ وكتبُ الأنين.
وأنك -لو تدري- يا صديقَ العمرِ،
لاجئُ الغربةِ مثلي.
لم تُذكرْ في كتابِ ميلادِ الآخرين،
و لم تأتِ ذاتَ يومٍ،
لكي ترحلَ من ذِكراي،
ذاتَ يومٍ آخرَ في سُفُنِ الراحلين.

أبو القاسم الصغير
الدوحة في
2018/10/18

تمهيد

بعد شهرٍ على الوداعِ الأخيرِ لزياد.. جلستُ لأخطّ هذا الكتاب، لكنّ غُصّةً شديدةً أوقفتني، فاكتفيتُ بتدوين ما يخطرُ لي من الافكار، ثمّ عدتُ بعد شهورٍ ستّةٍ فعادت الغُصّةُ وكأنني عائدٌ للتوِّ من مقبرة أبو هامور في الدوحة.. لكنّني هذه المرّة قرّرتُ الاستمرار في الكتابة عن هذا الإنسان الذي يُقرُّ كلُّ من عرفه عن قربٍ أنه يتّشحُ بالكثير من سمات التفرّد التي تجعلُ الكتابةَ عنه وإشهار صفاته عملاً اجتماعياً معرفيّاً مُفيداً لمن يجهله ولمن يعرفه، ناهيك عن الإثارة التي مثّلتها حياتُهُ، ليس فقط كونه وصل من الفقر إلى المليونيرية، أو تفرّده بين حَمَلَةِ جيناته، أو تميّزه بين نظرائه الأثرياء، بل للكثير من الأسباب الأُخرى التي ستكون في صلب هذا الكتاب.

أجدادُنا وآبَاؤنا كانوا يعرفونَ بَعْضَهم البَعْض، ومررت أنا مثل زياد في ظروفِ حياةِ طفولة متقاربة، ثُم تَقاربت عائلتَيْنا حِين تَزوجَ ابنة أخي في الدوحةِ عام 1983، ولكنني تعرفتُ عليه عن قربٍ بداية العام 2009 في عَمان، ومنذ ذلك الحين تَعَمقت صَداقتنا وثِقتنا واحترامنا لِبَعضنا البَعْض. كَثُرَت اللقاءات والزيارات والاتصالات، وأَثمرت عِلاقتنا أَكثر مِمَا هُوَ بين دفتيّ هذا الكتاب من رُؤىً ونِقاشاتٍ ومَعارف، يَعودُ الفضل الأول فيها لِصديقي.

قُبيل الانتهاء من الكتابةِ مررتُ بتجربةٍ صحيةٍ ظننت أنها أَودت بي إلى الاقترابِ من حافةِ الموتِ، ومن ثَم استمرت الحياة لاحقاً مع بقاءِ احتمالِ الموت المفاجئ في أي لحظة، وهذا ما دَفعني إلى تركيز التَفكر والتَأمل في الحياةِ الدنيا والآخرة، وأَضفتُ لهذا العمل، في نهايته، ما مررتُ وشعرتُ به، ومَا رأيته من تَميزٍ واختلاف بين قناعاتِ صديقي وقناعاتي في هذا الشأن، وبينَ نعمة الموت مع سابقِ الإنذار، والموت السريع سواء مَرضياً أو عَرضياً.

واحدةٌ من أجملِ الحِكَمِ المُسْتَخلَصة والرابطة بين الموتِ والصداقةِ والمفيد تَذكُرهِا: يَجبُ ألا نبكي على أصدقائنا، إنّها رحمة أن نَفقدَهُم بالموتِ فَنتذكرهم، ولا نَفقدهم وهُم أَحياء فَنَتناساهم. أَما الخُلاصة فَيُفْتَرض أن تَدُور حولَ معرفة أَنك لا تَتَحكم سوى بأفعالك وأفكارك، وهكذا فكل شيء آخر هو خارج عن مجالِ سيطرتِك، ومَا يُفكر فيه البشر أَو يَفعلونه لك أو ضدك، يجب أَلا يُتعسك، وبالتالي تكون سَعادتك بَين يديك، وجَنتُك أو جَحِيمك هنا في متناولِ يَديك.

مِنَح ومِحَن

"وبالوالدينِ إحساناً"

قالت لي والدتُهُ ذاتَ زيارةٍ ونحن نراقب حركة الناس: "شايف هالجموع والترحاب الذي يُقابلُهم به زياد.. الناس يأتيهم ضيفان فيحتاروا في استقبالهم ويركضوا ملخومين ماذا يُغدّونهم، وزياد ضيوفه بالمئات، ويتصرف بكل أريحية". لم يكن هناك أيّة مبالغة في حديث أم زياد.. فكل ليلةٍ يحضر العشرات من الأصدقاء والأقارب والأنسباء والزوّار إلى ديوانه المفتوح طوال الأسبوع، يتسامرون ويتبادلون الأخبار ويتناولون العشاء في جوٍّ ودود غير متكلّف. وفي يومي الخميس والإثنين هناك لقاءاتٌ في مزرعته على أطراف الدوحة. الخميس يلتقي عشرات العائلات مع أطفالهم وشيبهم وشبابهم إناثاً وذكوراً، والإثنين لقاء الذكور فقط، ليتاح لمن يريد من موظفي شركاته الالتقاء والتعارف خارج إطار العمل، وفي الليلتين يُقدم أنواع العشاء المطبوخ في المزرعة ومن خيراتها، ويتنقّل زياد بين الحضور مُرحّباً ومادحاً وشاكراً لكلٍّ منهم على حضوره.

كانت الوالدة هي حُبّه الكبير، فلا يمرّ يوم من دون أن يزورها ويحضنها ويُقبّل رأسها ويجاريها بما تريد، ويُسمعها ما تحب، كان يريد أن يُشبعها حناناً حتى يعوّض ذاته عن حرمانه من أمنيةٍ عزيزة على قلبه أخبرني بها مراراً.. كان يتمنّى لو أن عمر والده قد امتد ليشاركه في يُسر الحال، وليرتاح بالُهُ أنّ توصياته وأمنياته لولده قد أثمرت وتحقّقت. قبل وفاته بثلاثة أيامٍ، أفاق زياد من غفوته على سرير المستشفى، وقال للحضور: أنا ذاهبٌ مع أبي.. كانت ملامحه توحي بخليطٍ من الانشراح والدهشة، وهو يشير إلى الزاوية الغربية في الغرفة، وكأن والده في انتظاره.. كان ذلك في يوم ذكرى وفاة والدة (11) أغسطس 1985. حتى في الفترة التي سبقت نقله النهائي إلى مستشفى حمد كان يعرف أنّ الأجل قد اقترب، ولم تظهر عليه علامات الجزع، كان شديد الاطمئنان على مصيره في الحياة الآخرة، معتمداً على إيمانه بالله والقرآن وحُسن أعماله. في سنوات الصحّة والعافيّة، وحين كنّا نتطرّق للحديث عن الموت.. كان من ضمن فلسفته في هذا الصدد القول: لقد أنجزتُ الكثير وأرضيتُ ربي وأمّنّتُ عائلتي، ولو فقعتُها موتة الآن فلن أحزن كثيراً، فهذا ما يريده الله لي، ولن يريد لي إلا الأفضل.

يتوجب علي هنا الاشارة الى استنتاجات سابقة استخلصتها من معرفتي لزياد وقدراته وخصائصه، فلديه قدرةُ مدُربةُ على التحكم في عواطفه، يُخفي ما يريد منها متى شاء والمبالغة في تفجيرها المنظم حين تساعده في تحقيق غاياته. كان أثناء

سنوات النشاط العملي قبل تعرفي عليه، وكما قال لي وعرفت من أخرين، يرهب الموظفين في مكتبه الى درجة احتساب بعضهم لعدم رؤيته في اي يوم بمثابة وقت سعيد. هذا الحال كان يؤهله لتجنب مشاكل عبر إخفاء المشاعر، بل تحقيق فوائد مالية في ظروف معينة مثل اتقان عدم الاهتمام بصفقة محددة فيتحكم في سعر الحصول عليها. كما ان التحكم في تفجير المشاعر يؤهله ضمن أمور عديدة أخرى، لاختصار الوقت مع الموظفين ودفعهم للتركيز على عملهم واتقانه وجهلهم لما يعرف فيصبحوا وكأنهم في قاعة أمتحانات دائمة. سيكون الوضع خطيراً لو لم يكن متحكماً في المشاعر وخاضعاً للانفعالات.

في بداية حياته العملية كان ذهنه يخوض صراعات مخفية وخيالية مع الذات ويقاتل الناس وهمياً ويهدر الوقت في مثل هذه الافكار، لكنه، وكما حدثني مراراً، قاوم هذا التوجه وتخلص من قبضته ومارس تمارين طويلة للتحكم في القلق وتجاهل الافكار المزعجة واستبدالها بأشياء ذات نفع ومواقف عقلانية. هكذا أيضاً لم يمر قبل مرضه بأوقات أكتئاب شديد تنبع في العادة من الافكار الشخصية خصوصاً لمرضى السرطان، اذ كان يراقب شعوره ويتعامل مع الافكار التي تتحكم في المزاج وقرارات الحياة ويصبغ عليها اللمسة السارة السعيدة عبر تساؤل دائم اذا كانت تلك الافكار ايجابية او سلبية. ربما هذا من اسرار توفق زياد في السنوات العشر التي عرفته فيها، كنت اراه يظهر الاهتمام بالامور السارة والاستهانة بالمشاكل المزعجة وعدم منحها الوقت الاضافي وانما حسمها والقفز عنها. حين تكون القضايا معقدة وكبيرة كان يقسمها الى جزئيات يسهل حلها ويبحث عن اسباب التعقيد ويتعامل معها.. هذا كله ساعده على تحمل زمن المرض وتحسس السير الى النهاية.

لم يكن زياد يتمنّى الموت ولكنه لم يخفهُ أبداً، حتى اللحظة الأخيرة. قبل شهرٍ من انتهاء حياته إثر سرطانٍ في الرئة قال لي إن الله يريد إنذاره عبر هذا المرض القاتل بالتدرّج، إنذاره باقتراب الموت، وبالتالي انتهاز الفرصة لضبط أوضاعه قدر الإمكان: تصوّر لو كنتُ في كامل صحّتي وغير محتاطٍ من الموت أو متوقّعٍ له، ثم مُتّ فجأةً تحت عجلات شاحنة.. هذه ستكون فاجعةٌ، لكنّ هكذا.. فالحمد لله. وبعد وهلةٍ قصيرةٍ قبل أن أتجاوب مع رأيه هذا.. اتبعني بالقول: ألم تلاحظ أنني لا أتألم كثيراً من الإصابة، وألمي مصدره الجرعات الكيماوية، وهذه أيضاً ضمن المعقول.. فالحمد لله على ذلك. إن تخصّصاتي العلمية هي السياسة وعلم النفس والعلوم الإسلامية، وأعتبر نفسي مُجيداً لقراءة لغة الجسد، ولم أسمع في نبرة زياد أو أرى في ملامحه أو تصرّفاته أثناء هذا الحديث أيّ قلقٍ أو شكوك، كان بالفعل مقتنعاً بما يقول ومرتاحاً له، ومستسلماً لإرادة ربه. كانت فلسفته أنّ الموت يجب أن يُذكّرك بالقيم التي يُفترضُ أن يعيش الإنسان من أجلها على الأرض، والتجاوب مع قناعة

وجود حياةٍ أخرى بعد الموت، وعقاب وثواب لاحق يتطلب منك الآن التفكير في طرق حياتك.

ذلك لا يعني أبداً أنه تمنّى الموت، ولا حتى في لحظات الألم بعد جرعات الكيماوي، وأوجاع تقرّحات الفم من جرّاء ذلك. بعد إعلانه الاستسلام لإرادة ربه وشكره على هذا التحذير.. مارسنا سوياً بعض الرياضة في الماء، وعاد يُعلّمني نظرياً وعملياً كيفية التنفس للغوص تحت الماء والصمود لأكثر من ثلاث دقائق: أنا واثقٌ أن الله سيشفيني ويعيد لي كلّ صحّتي كما كانت. غطستُ تحت الماء متأثراً بما يقول، فأنا أعرف تماماً أنه ذاهبٌ إلى النهاية، إذ عرضتُ تقاريرَه وشرحتُ حالته للعديد من الأطباء المختصّين في عدّة بلدانٍ من دون إخباره بذلك، وكلّهم أعطوا نفس التوقّع، ولهذا لم أعترض على لجوئه إلى الأعشاب والأدوية البديلة لاحقاً.

أوعدك حين تشفى أن أحجّ معك إلى بيت الله الحرام.. قلتُ له بعد أن رفعتُ رأسي من تحت الماء لأشرح قلبه.. طلب منّي تأكيد هذا الوعد، وقد تهلّل وجهُهُ، فأكدتُ وعدي، وعدتُ تحت الماء لأخفي مشاعري. كان زياد المؤمن تماماً يعرف آرائي من تطبيق الأديان والفروض، وبالتأكيد، لم يظنّ أنّ الهداية نزلت عليّ فجأةً، ولكنّي سأحجّ معه لأسبابٍ معيّنةٍ، لكنه لم يفقد الأمل أن تنزل الهدايةُ أو تبدأ بالنزول على صديقه الحميم أثناء الحجّ: هكذا سوف تكسب أنت حسناتٍ شتّى لأخذي معك إلى الكعبة.

في شهر مايو 2018 ذهبتُ لزيارة زياد في الدوحة بشكلٍ مفاجئٍ، كنت أعرفُ أنّ المرض بدأ ينعكس على وضعة الجسميّ هُزالاً، وتأثّرتْ عيونُه فاضطر إلى وضع غطاءٍ على إحدى عينيه لتركز الأخرى، وأصبح يُصابُ بنوبات صداعٍ شديد. لقد انتقلت الخلايا الخبيثة إلى العمود الفقريّ، وفي طريقها إلى المخّ. كان قد مرّ عامٌ على اكتشاف السرطان، والبدء برحلة علاجٍ أخذته إلى أمريكا مراراً. ذهبتُ إلى الديوان وجلستُ مع والدته في الساحة حتى خرج من الديوان.. سألني ونحن نتعانق إذا كنتُ قد أبلغت الوالدة، فنفيت. كل الدوحة كانت تعرف بمرض زياد وكل أولاده وبناته وأنسبائه وأحفاده وشركائه وعُمّاله ومديري شركاته، ومئاتٍ ممن يتردّدون صباح مساء على الديوان ويصبحون ويُمسون على الحجّة، ويضبطون حديثهم حتى لا تعرف بمرض ابنها.. كان يخاف عليها من الصدمة والمعاناة معه.

هي لا تعرف حتى الآن؟ سألته وأنا أنظر إلى وجهه الذي يحمل علامات مرض، وعينه المغطّاة بعصبة: ماذا تُخبرها عن تحوّلك إلى موسى ديّان؟

أخبرتها أني ذهبتُ في رحلة بحرية ولفحني الهواء.. قال وضحك بعمقٍ وكحّ مرتين وعاد لضبط تنفّسِه، وأضاف: المهم أنّ كلّ هذه الأمم صغيراً وكبيراً مشاركون في مؤامرة الصمت.. سجّل عندك هذا الإنجاز. أم زياد امرأةٌ كبيرةٌ في السنّ، صاحيّة العقل، طيّبة القلب، وأستغرب أنها لا تشكّ في هذا الوضع. صحيحٌ أن زياد بعد كلّ غيبة سفرٍ طويلةٍ كان يُحدّثها عن الانشغالات في العمل، ولكنه كان يجاهد ويُكابرُ أمامها ويتركها عندما تأتيه موجات الصداع والألم، ولا يكفّ عن الحديث والمُزاح أمامها ليطمئنها ويصرف أيّة شكوك قد تنتابها، وكانت تُصدّقه على الدوام، أو ربما أرادت أن تُصدّقه، ولم تسأل الآخرين حتى لا تحصل على إجابةٍ لا تودّ سماعها. لم يكن يريد لها المعاناة معه، رفقاً بها وإحساناً لها.

في صباح اليوم التالي كان زياد في المطبخ، بينما جلستُ مع صديقٍ مشتركٍ لنا في بلكونة البيت، وكان زياد يُتابع حديثاً عامّاً بيننا عن تكتيكات المخابرات في بعض الدول العربية. موجز الحديث هو تجنيد أشخاصٍ يُسمّونهم المصدر ووظيفتهم الوشاية عن المعارضين للنظام، ولأن هؤلاء ضِعاف النفوس، وكونهم تحت ضغط الإنتاج، فهم يُفبركون التهم ولا يتورّعون عن الانتقام الشخصيّ أو بيع قُدراتهم لآخرين يريدون الانتقام من أبرياء لا علاقة لهم بالسياسة أو المعارضة. كان الصديق يُقدّم الأدلة التي يعرفها، إذ ظهر عليّ عدم التصديق. وقال أيضاً أنّ هؤلاء المصادر يشعرون بعظمةٍ ولكنهم مضطرون للبقاء ضمن واقعهم الماديّ حتى لا تظهر عليهم النعمة، وتكثر حولهم الشكوك.. غضبتُ وشتمتُ بشكلٍ إجماليٍّ مثل هذه الشعوب التي تُفرّخ مثل هؤلاء. ترك زياد المطبخ ودخل إلينا قائلاً: لا.. لا.. لا تشتم الشعب، أين علومك وكتبك وحنكتك.. أُشتم الأنظمة التي تضع الواشين وتضعهم فوق القانون ولا تفشي أمرهم، بل تحميهم وتكافئهم، لو ساد القانون لما حصل أيّ شيء من هذا القبيل، ولكانت الأمور أفضل في كلّ مكان في الوطن العربي.. الفوضى هي التي تُنتجُ الزعران والمرتشين، وتغطي على الأغلبية الطيّبة والفئات المتنوّرة في المجتمعات.

كان صافي الذهن كالعادة، وأيّدتُ كلامه، واستخطأتُ موقفي، وتوقعتُ أن يكون قد فاز ببضع ساعاتٍ من النوم بدون صداع. شجّعته على الحديث بعزيمة.

لم يكن زياد سريع الحكم على الامور سواء ما يخص الافراد او القضايا الجديدة التي تُطرح عليه، كان ينصت ويفكر ويستمع من الاخرين ربما لضبط رأيه من مجموع ما يسمع او لاتخاذ موقفٍ مخالف تماماً لكل ما سمع. وحين يتوجب الانتقاد فلم يكن هجومياً جارحاً بل يوحي للمعني بانه لم يكن يقصد ما قاله وان موقفه هو ما يقوله زياد ولكنه ربما اساء التعبير أو تسرع فيه، وحين يتطلب الامر انتقاداً صريحاً فكان يوصله لصاحبه على انفراد، اذ كان يتخيل ذاتياً وقع النقد الفظ على المستمع.

مارس اسلوب تقويم أخطائه وعيوبه الذاتيه وغض البصر عن عيوب الاخرين حين لا يرتبط الامر بالعمل. ذات يوم جاء ابنُه الصغير واعترف انه اخذ مفاتيح السيارة من البيت وخرج بها واحط بها على الرصيف واعتذر ثم أقترح خصم التصليح من مصروفه. قال لي زياد انه تبسم لابنه وشكره على الصراحة واخبره انه صغير على تعلم السواقة الان، وقال لي انه عرف على الفور عدم مصداقية القصة لان هذا الابن مستحيل ان يفعل ما وقع. تحرى الامر واكتشف ان الابن تحمل المسؤولية لحماية صديق وقريب له، فاثنى على الابن لرغبته في حماية الصديق وافهم المتسبب بالحادث سوء فعلِهِ، وتقبله بالتضحية بصديقه ليحمل عنه المسؤولية والعقاب.

بَينَ المَنحِ والمِحنِ

كان زياد منذ عرفته قليلَ النوم، ربما ساعتين أو ثلاثةً قبيل موعد صلاة الفجر، لكنه كان يُجيد استنشاق الأوكسجين، ويؤكد أنّ هذا ينشّط العقل والجسد، ويُغني عن النوم. كلما زرتُه في سنوات العافية كان يصطحبني من الصباح الباكر إلى أيّ مشوارٍ بينما معظم الناس نيام. أحياناً كان يخبرني أنّ إفطاراً شهيّاً ينتظرنا، فأرافقه حتى يقف بسيارته أمام كشكٍ لآسيويين يتجمع عنده العمّال لتناول إفطارهم. يُخيرني -بين أشياء- بأسماءٍ غريبةٍ ثم يطلب سندوتشي بيضٍ حار: معدتي يا زياد لا تتحمّل الحرّاق، وإذا دخلها شيء في الصباح فلا بد أن يخرج بديله شبه فوريٍ.

كان يقاطعني، ويتمنّى أنّ أُجرّب بضع قضماتٍ ثم ينتقل إلى الثناء على هؤلاء العمال، وإلى الحديث عن الأقارب الذين يُفضّلون أعمالاً معيّنةً. بينما نقضمُ الفطور أخذ زياد يُحصي أعداد الزبائن، وأكدّ لي أن هذا الكشك ينشغلُ عدّة مراتٍ في اليوم بهذه الكثافة، وحَسَبَ تكلفة السندويتش وفارق الربح، وضَرَبَ وطَرَحَ وتساءل: لماذا لا يفعل هكذا فلانٌ وعلانٌ، ويُعدّد أسماءً ممن نعرفهم، ثم يجيب: لأنهم يحبون النوم والجخّة.

في فجر يومٍ آخر أخذني إلى ميناء صيد السمك، فكلانا يعشق السمك، وقد تعلّم منّي أن يُفطر سمكاً، وأصبحتْ عادةً عند الكثيرين من أهله ومعارفه خصوصاً حين نبيت في المزرعة، ونصحوا على إفطارٍ متنوّعٍ، لكننا نخصّ نفسينا بالسمك. في الميناء ننتظر ما يُحضره الصيادون، فيفرغونه على منصّةٍ إسمنتيةٍ، ويبدأ التجّار فوراً بالمزاد.. كنّا نختار النوع الذي نريد، ونتابع التاجر المشتري، ونذهب لمحلّهِ في ذات الموقع لنشتري السمك.. وبينما كان التاجر يُنظّفُ الطلبية نذهب إلى موقعٍ آخر في الميناء، حيث تبني إحدى شركاتِه يخوتاً خليجيةً تقليديةً تُسمى "سمبوك" نتفقد الموقع، ونتجوّل حول السفن. يشرحُ لي عن المشاكل، وكيف يستورد الخشب من الهند.. كان وجهه يُشعّ فرحاً حين يشاهد رئيس العمال الهنديّ في الموقع وحيداً قبل موعد العمل، فيُثني عليه، ويناولهُ كوب قهوته ثم نعود للسمك. كان زياد يُسخرُ الابتسامة والبشاشة بشكل مكثف طوال معرفتي به، ينشر الانفعالات الايجابية من حوله ويكسب الود من الاخرين بعد ان يقدمه لهم. كان يقول اذا ظننت ان الطرف الاخر يكرهك فسوف تتحقق هذه الظنون لانك سوف تتصرف من ذلك المنطلق فيبدأ الاخر بصدك فيزداد ظنك .. لكن لو تصرفت بحسن نية ذاتية فسوف تسير على الطريق الصحيح وتجلب الاخرين معك.

في مايو 2018 كان الوضع مختلفاً، كان ينام بعد صلاة الفجر، وكثيراً ما كرّر أنّ الطعام يشحُّ عند الذين يقدرون على الأكل، ويزداد حين تعافُهُ نفسُك وصحتُك. أصبح مضطراً لنظام تغذيةٍ لضمان وصول أيّ طعامٍ إلى معدته، فقد أثّر فيه الكيماوي وقطع الشهيّة، وأثّر على الفم، والطعامُ يؤدّي للاستفراغ أصلاً. كان زياد آنذاك قد استنفد كمية الكيماوي المقرّرة، لكنّ انتشار الخلايا السرطانية لم يتوقف، فطلب من طبيبه أن يواصل الجرعات، وبرّأه من المسئولية. قال لي الطبيب: لا يمكن أخذ المزيد فلن تتحمّل. فقلت له: ولكني سأتحمّل.. قال لي زياد في تلك الزيارة.

لم يفقد الثقة في الله، ولم يتمنّع عن تجربة أيّ علاج. بعد وصولي بيومين حضر معالجٌ باكستانيٌ بريطانيٌ مختصّ في التدليك، ولديه تركيبات زيوتٍ طبيعيةٍ. أصبح زياد يرتاح لتدليك الرقبة إذ يخفُّ عنه ألم الصداع، وأخذ المعالج يصنع مشروباتٍ تساعد الجسم على التحوّل من حمضيٍّ إلى قلويٍّ، كون الأخير يُساعد في مقاومة الأمراض ومنها السرطان. المشروب هو بيكربونات مع ماء، والطعام يشمل السلطة والخضار واللوز النيّ الغنيّ بالمعادن القلوية مثل الكالسيوم والمغنيزيوم، وتجنّب السكّر، والقيام بالتمارين، والهدف هو إيصال نسبة القلوية إلى 7.4.. هذا العلاج طويل المدى، وهو بالأحرى وقايةٌ مسبقةٌ ونظام حياة، وليس ما يعالج انتشار خلايا سرطانٍ وصلت إلى الدماغ. صار المدلّك يزوره مرتين في اليوم، فيتحسّن مزاج زياد بزوال الصداع، فنذهب في نزهاتٍ قصيرة، ونزور الديوان لساعةٍ أو أقلّ، حسب قدرته على التحمّل لمجالسة الأصدقاء والأهل والزوّار والشركاء.. كان الديوان في المساء ملتقى الجميع، وتمّ الاستغناء مؤقتاً عن زيارة المزرعة.

راقبتُ طبيعية تصرّف هذا الجمهور المختلط، كلهم -ما عدا الوالدة- يعرفون ماذا أصاب زياد ولو فكّروا بجديةٍ في المستقبل لعرفوا أنّ صديقهم وحبيبهم وأخيهم وممولهم -كلٌ حسب موقعه- يقترب من النهاية بسرعة. لكنهم لا يفكرون في ذلك، وهذه طبيعةٌ بشريةٌ، خصوصاً لمعتنقي الديانات، بل هي خِصلةٌ إيجابيةٌ، إذ ليس بمقدور أحدٍ المساعدة. تذكّرتُ حادثةً عايشتُها في الستينات في مخيم بربرة بمدينة رفح. وقتذاك، وبدل سهر الرجال في المقعد عند المختار، انتقلوا للجلوس إلى جانب المريض شحدة. سألتُ والدي في اليوم التالي: لماذا لا نعود إلى المقعد بدل أن نجلس هنا مع شحدة؟ أجابني المختار أنّنا نودّع شحدة فهو ينازع، وينتظر الموت، أو الموت ينتظره.

كان العجوز منتفخ البطن ويئنّ في الفراش بين الحين والآخر، والرجال بالقرب منه يتحدّثون في شؤونهم العادية، وبعضهم ينكّت مع المريض حين يئنّ، والبعض يطالبه بتبليغ السلام لفلانٍ وعلّان عندما يذهب لربه.. بعد سنواتٍ طويلةٍ تساءلت:

لماذا لم ينقلوه إلى مستشفى؟ إنه القضاء والقدر الذي لا رادّ له، كما يظن الناس في قرارة عقلهم الباطن، ولذلك يتصرّفون بطبيعيةٍ، ويتقبّلون الموت حين يأتي، ولا يحزنون كثيراً قبل وصوله، إذ يبقى هناك بصيص أمل، وانتظارٌ لمعجزةٍ.. ثمّ عندما يتمّ المحتوم، وحسب درجة حبّك، يتحدّد مستوى تصديقك للحدث، والفترة التي تستقرّ فيها نفسُك.

في البداية، وعندما تشكّك زياد في شيءٍ ما، حضر إلى الأردن، وذهبنا سوياً إلى مستشفى الخالدي لعمل فحوصات دمٍ شاملة، سألته إذا كان هناك سبباً معيناً لنركز عليه في الفحص؟ فأخبرني أنّ صيدلانيةً لا تعرفه شخصياً ولا تعرف أنها تعمل في إحدى صيدلياته، قد رفضت صرف دواءٍ للكحّة، وقالت له: أنت أخذت الكثير من هذا الدواء ولم تشفَ، ولا يبدو ما تعانيه نزلة برد، إذهب إلى طبيب. وبالفعل، ذهب ولم تظهر أيّة نتيجةٍ من فحصٍ عام. لم يكن يشكُّ في السرطان، وهكذا حضر إلى عمّان، وأجرى الفحوصات، ولم يظهر أيُّ شيءٍ. أخذتُهُ والنتائج إلى مختصٍّ في طبّ الدم، وجلسنا نستمع، وأكد المختصّ سلامة النتائج، وحين سألته إذا يمكن أن نجري أيّة فحوصاتٍ إضافيةٍ بدأ يضحك وقال إنهم فحصوا كلّ شيء، حتى أنهم فحصوا ما يخصّ الإناث من إصاباتٍ مثل سرطان الصدر وغيره، فانتقلنا إلى أحاديث مزاح الذكور. عاد زياد إلى الدوحة لكنّ شيئاً ما دفعه إلى فحص دمٍ جديدٍ، ثم أرسل الطبيب عيّنةً إلى أمريكا، وجاءت النتيجة بوجود إصابة سرطان في الرئة.

لقد أقلعتُ عن التدخين في سنّ الخامسة والثلاثين، وأنا في منتصف رحلة عملي في الإعلام، اتخذت القرارَ فجأةً وأقلعتُ فوراً، واحتفظتُ في دُرج مكتبي ببضع علبٍ من السجائر والتبغ لأتحدّى إرادتي.. المشكلة أنني أصبحتُ لا أطيق رائحة الدخان أو الجلوس مع مدخّنين. وعندما التقيتُ زياد بعد أكثر من عقدٍ من الزمن وجدته يُدخّن سيجاراً رفيعاً لا يستبدله بشيء.. أخبرته بكراهيتي للدخان، وسألته إذا كان باستطاعته الإقلاع عنه. هكذا امتنع عن الدخان في الأماكن المغلقة أثناء وجودي، وإذا ذهبنا في السيارة يمتنع، وإذا عجز عن التحمّل أوقف السيارة ونزل ليدخّن. لقد تعرفتُ على الصالح والطالح من الناس، ولم أصادف إنساناً بأخلاق زياد.. ليس في قصّة التدخين فقط، ولكن في درجة الاحترام والتقدير، وتقديمه للآخرين، واحترامه لهم. أعدتُ عليه رجاء الكفّ عن التدخين فأخبرني أنه حاول بالفعل الانتصار على إدمانه كما فعلتُ أنا، لكنّ شفتيه وفمه كانا كلّ مرةٍ -وبعد يومين من الإقلاع- يلتهبان. هكذا، حين اضطر للإقلاع بعد اكتشاف سرطان الرئة، توصّلنا إلى حلٍّ، أن ينقع جزءً من سيجاره الصغير في الماء ويصفيه ويتمضمض به، وبالفعل أحرز نتيجةً إيجابية.

في يونيو.. تدهورت حالة زياد ونقلوه إلى المستشفى، لكنه كان يقاوم ويرفض البقاء هناك، فيسرّح نفسه، ويعجزون عن إقناعه بالبقاء، لكنه -بعد أيام- يتعب مجدداً، ويعود إلى مستشفى حمد. استنجدتُ في عمان بطبيبٍ صديقٍ مختصٍّ عمل لسنواتٍ مديراً في قسم السرطان في مستشفى زيورخ كنت قد شاورته في الماضي بشأن زياد وهو مطّلعٌ على تقاريره الطبية. في اليوم التالي، توجّه الطبيب إلى الدوحة وقد حمل معه بعض الدهونات المريحة للجسم، إذ استنفد زياد كلّ العلاجات الطبيّة الأخرى من أشعةٍ وكيماوي. توجّه الطبيب من مطار الدوحة إلى المستشفى، حيث اجتمع مع أطبائه، ومكث ثلاثة أيامٍ، وعاد بالخبر المتوقّع: إننا نحاول الاستفادة في الوقت الضائع قال لي، واستفسرتُ فأضاف: إنه يتدهور بسرعة الآن لأنه نشيط، ويرفض الراحة، وخرج من المستشفى وأخذني معه إلى الديوان، وهناك باشروا أفعالهم العادية وسايروه، وبالعافية انتزعته ليذهب للراحة، لو كان بوسعك إقناعه ببعض الراحة... قاطعت الطبيب وأخبرته أن زياد يعرف تماماً ماذا يفعل، وشرحتُ له أنه يعيش مرتاحاً مع المحن التي تقابله مهما عظمت، وهو دوماً راضٍ بقضاء الله وقدره، ويشكر ربه على مِحَنِهِ ومِنَحِهِ، وكان يقول: من المحن تأتي المنح في الدنيا والآخرة.. المحن تعلمك أهمية المنح فتشكر ربك، وتعمل على الحفاظ عليها واتقان العمل أكثر..

كان زياد يعرف أنّ الحياة متقلبةٌ وعلى الإنسان الانشغال بالربّ إلى جانب السعي إلى الرزق الذي هو محدّدٌ ومقدّرٌ وقادم.. كان على الدوام كمن يُكفّر عن أيّة ذنوبٍ غير مقصودةٍ بالشكر للرب على المصائب الصغيرة والكبيرة بروحٍ راضية.

بعد أسبوعين، شاءت الظروف أن يلتقي الصديق الطبيب مع زياد مُجدداً، لكن في عمان هذه المرة. لقد أخبروني أنهم عجزوا عن إقناعه بالبقاء في الدوحة وأنه توجّه للمطار، ولحسن الحظ لم يعثر على مقعدٍ في الطائرة، فحجز لليوم التالي، وحضر مع ابنه وشقيقه، فانتهزنا الفرصة ليراه الطبيب مُجدداً، كان بحاجةٍ أكبر للراحة، وبالكاد أقنعناه أن نتناول الطعام في مكان إقامته، كان يريد دعوتنا للغداء في المطعم الصينيّ، وكلما حضر من يزوره يُجهد نفسَه بالترحاب. في الزيارة التالية للطبيب التقينا بزائرٍ يدّعي أنه مختصّ أعشابٍ، وقد حضر بدعوةٍ من أصدقاء لـ زياد ويؤكد فعالية أدويته العشبيّة على الشفاء.. كان بودّي أن ألقيه من الطابق السابع، وكنت متأكداً أن الطبيب سيحمله ويدفعه معي من النافذة، لكننا سكتنا حتى لا يُفهم الأمر تنافساً بين الطبّ الحديث والشعوذة، وحتى لا نحرم زياد من أيّة فرصةٍ، وعملنا بقاعدة إن لم ينفع فلن يضر، وإن ضرّه أو نفعه فالفرق أيام..

قضى زياد بعض الشؤون، وذهب إلى مركز الحسين للسرطان فأرادوا إدخاله في دوّامة البيروقراطية والانتظار والمراجعة، لكنّه عاد إلى الدوحة بعد ثلاثة أيام.

بدوري قرّرت التحرّي عن العُشبيّ، وبدأتُ من حيث قال إنه يعمل، في جامعةٍ خارج العاصمة. اكتشفتُ أنه مختصٌّ في الهندسة الميكانيكية، وأنه جرّب حظّه في الأعشاب فأنتج دواءً لمرضٍ آخر، وهذا ما تسبّب بشكاوى ضدّه، وحين اختبرت الجامعة محتوى الدواء، وجدوا أنه يُفرغُ حبوب الكولاج في كبسولاتٍ جديدةٍ ويبيعها كدواءٍ لشيء لا علاقة له بالكولاج، الذي يُستعملُ في العادة للمفاصل. اكتشفتُ أيضاً أنه يدّعي الآن اختراع مادةٍ تضاف لوقود السيارات ويؤهّلها لقطع مسافةٍ مضاعفةٍ بعشرات المرّات.. وحينها سألت مدير تلك الجامعة: لماذا لا زال هذا الشخص في موقعة؟ فقال إنهم أحالوه على التقاعد من فترةٍ ولا يتحمّلون أيّة مسؤوليةٍ عنه.

حين تأكد زياد من الإصابة في الرئة، توجّه مع زوجته وشقيقه إلى نيويورك حيث أُجريت له الفحوصات، ووُضعت خطة العلاج. لم يتأكدوا بشكلٍ قاطعٍ في مارس 2017 إذا كانت بعض خلايا السرطان قد أفلتت من الرئة، فالطبّ الحديث حتى الآن لا يمكنه تتبّع خليةٍ أو مجموعة صغيرةٍ من تلك الخلايا، لكنّهم يكتشفون التجمّعات، فإذا أفلتت خليةٌ من التجمّع الذي سيتلقى العلاج الإشعاعيّ فستكون قادرةً على التكاثر والانتشار مع الدم من موقعٍ إلى آخر. هنا تعريف مركز الحسين للسرطان: سرطان الرئة هو السرطان الذي ينشأ في الرئة، وهو عادةً ما يصيبُ الأشخاص فوق سنّ 45 عاماً، ومن النادر أن يُصيب الأصغر سناً.

يُقسّم سرطان الرئة إلى نوعين رئيسيين:

- *سرطان الرئة صغير الخلايا*، وهو سريع النمو والانتشار، وعادةً ما يبدأ في الشعب الهوائية (الأنسجة في الرئة التي يدخل الهواء من خلالها) ويمكن أن ينتشر بسرعةٍ لأعضاء أخرى في الجسم. ويُعتبرُ التدخين المسبّب الرئيسيّ لهذا النوع من المرض، حيث أنه نادراً ما يُصيب غير المدخّنين.
- *سرطان الرئة غير صغير الخلايا*، وهو أكثر شيوعاً. وهناك عدّة أنواعٍ من سرطان الرئة غير صغير الخلايا، وكلّ نوعٍ يتميّز بنوعٍ مختلفٍ من الخلايا السرطانية التي تنمو وتنتشر بطرق مختلفة.

كانت النتائج الأوليّة للعلاج مطمئنةً قليلاً، لكن تبيّن لاحقاً بعض الشكوك، فعاد زياد إلى أمريكا مجدداً، وأنتج المختصّون هناك دواءً خاصاً يتلاءم مع خلاياه السرطانية، لكن الأمر كان تجريبياً، ولم يفلح في النهاية، بالرغم من المتابعة طوال عامٍ ونصف، لم يشعر فيها بالتعب إلا في الأسابيع الأخيرة. كنت على الدوام متواصلاً مع زياد وأتابع النتائج وأشجعه وأتمنى له الخير، وكان طوال فترة العلاج -كما في السابق- مقتنعاً أن الأمور تتحسّن إذا قلّ خوفك منها، وتراجع اهتمامك الزائد بها، افعل ما هو

ممكنٌ واترك الباقي لربك، واهتمّ بعائلتك وأصدقائك، وطوّر ما هو ناقصٌ ذاتياً بخطواتٍ إيجابيةٍ تناسب الواقع، واهتم بالأشياء التي تريحك أنت، وبما هو أكثر أهميةً على حساب الأمور المزعجة. كنتُ أعرفُ أن الإحساس بالمعاناة هو شكلٌ للمعاناة ذاتها. كان زياد يعتمد مبدأ التحكم في القدرات والمشاعر الذاتية وان محيطك والاخرين لا يملكون القدرة على التاثير فيك مثل إغضابك، ومع ذلك يُقر باستحالة الاقتراب من الكمال في التحكم وكلما فكرت في الاقتراب اكثر ستجد ذاتك في توتر، وما عليك سوى البحث عن مسببات السعادة. لم يكن يقر أبداً ان المال مصدرُ للسعادة، وكان يكرر ان هدؤ البال هو أفضل منح الرب لعبده.

في الأيام الأخيرة كان لا بد من اتخاذ قراراتٍ مسبقةٍ تبعاً لاحتمالات ما قد يحدث، هكذا جمع طبيب زياد في مستشفى حمد أفراد العائلة وطلب منهم إجاباتٍ وقدّموها له، المهم هنا أنه لم يعدْ من الممكن إخفاء الأمر عن أم زياد وذهبت مع أفراد العائلة، زوجة وأبناء وبنات وإخوة وأخوات.. بعد يومين، وأثناء مشاورةٍ أخرى مع الطبيب خارج غرفة المريض، انخفض الضغط بسرعةٍ، ورفع أحد الأقارب -الذي تواجد مع زياد في تلك اللحظة- رفع له إصبع السبابة، وأخذ يذكّره بالتشهّد، وانتقل إلى رحمة ربه ظهر الرابع عشر من أغسطس 2018.

انتهت أيام العزاء، وفي صباح اليوم الرابع، ذهبت لزيارة الحاجة أم زياد.. كانت مستقرةً وصامتةً عندما دخلتُ الديوان.. نظرتْ إليّ وهطلت دموعها بدون صوت، وجلستُ إلى جانبها: متى حضرتِ إلى الدوحة؟

أنا هنا من اليوم الأول، وحضرتُ التغسيل والدفن.

ولماذا لم أرك قبل الآن؟

سألتُ عنكِ، وطلبت الحضور لكنهم قالوا: لا يمكن دخول عزاء النساء، وأنكِ محاطةٌ بهنّ طوال الليل والنهار.

صمتنا ثوانٍ ثم نظرتْ عبر الباب وقالت إنها تتوقع كلّ ثانيةٍ رؤيته يدخل عليها. نظرتْ إليّ وناولتني سبحةً كانت بين أصابعها، وسألتني أن آخذها لي، كونها سبحة زياد: خليها في يدك حتى تدعي له باستمرار. استدارتْ أكثر باتجاهي، وأخذتْ تروي لي ما لم تخبرنِ به من قبل.

كنت أعرف أن زياد هو ولدُها الأولُ بعد عدّة بنات، وكانت هي الزوجة الثانية لـ أحمد أبو عجينة الذي خلّف من الزوجة الأولى عدّة أولادٍ كان أكبرهم بعمر أم زياد. هكذا، وكما في مثل هذه الظروف والحياة الفلاحيّة، تعرّضت الزوجةُ الثانية للانتقاد

حتى أنجبت زياد.. كلّ هذا أعرفه من نقاشاتٍ وقصصٍ كثيرةٍ على مدار سنواتٍ مضت. الجديد، أنها قالت لي الآن تعثّر إرضاعُها لابنها بعد ولادته، ولم تكن هناك ألبانٌ مجفّفةٌ للرضّع آنذاك في متناول اليد. قالت: أصبحتُ في الليل أضع زياد تحت صدور نساء العائلة، ليشرب حليباً يُنقذُ حياته. ما هذا يا ربّي؟! قلت لذاتي وأنا عاجز عن كبح مشاعري، وواصلتُ الإصغاء. صار الكلّ يضحك عليّ ويقولون: الولد مش نافع، وربنا ما كاتب له الحياة.. شو يعني؟ بدهم أترك ابني يموت؟

الآن عرفتُ أكثر لماذا يُحبك زياد أكثر من الجميع، ولماذا يحب كل الناس، ويخصّ بالعطف أقاربه. لم أكن أتحدث عنه في صيغة الماضي. هزّت برأسها، وذكّرتني بالقسوة التي سادت تلك الأيام، وتذكّرتُ بعض رواياتها، وآراءها عن ذلك الزمن. أم زياد وأمي أنا.. مرّتا بتجارب متشابهةٍ جداً، وذات الشيء يُقالُ عن تجارب زياد وتجاربي في الطفولة والصبا، ولهذا، تقاربتُ مع كليهما من أوّل نظرة. أمي وأمه تزوّجتا صغيرتين من أقارب لهما على ضرّةٍ مُنجبةٍ لأولاد، تزوّجتا في سنّ الثانية عشرة، في ذات مناخ القرى الجنوبية الفلسطينية الساحلية، بربرة وبيت لاهيا. تشابهتا في الشكل، والإنجاب وظروف صحّة الابن الأول، وعانتا من ذات المشاكل والظروف، إلى درجة أنني كنتُ أحياناً أقاطع قصصها وأكملها وهي مندهشةٌ كيف عرفتُ، وتنظر إلى زياد متسائلةً إذا كان قد أخبرني بذلك، فأوكد لها أنّ والدتي روت لي مثلما روت هي لـ زياد.

استأنفتْ هي الحديث، وفي صيغة الماضي: كان كلّ الناس يحبّونه.. ولماذا لا يحبّونه؟! فلم يقصّر مع الذين يعرفهم والذين يجهلهم.. الله يرحمه..

ترحّمنا عليه، وأضافت: كان دوماً يُكرّر أنّ الذي في جيبه ليس له، وإنما له ما يُقدّم للآخرين. وتذكرتُ بعض أحداث العزاء الذكوريّ، وكيف لم يقطع بعض من أعتبرهم أصدقاء.. لم يقطعوا إجازاتهم الصيفية، ليعودوا إلى الدوحة لوداعة، خصوصاً وأنه شُيّع في اليوم التالي لوفاته، وكنتُ أتوهّم قبل ذلك أنهم قد يفعلون أيّ شيء وفاءً له. كرّرت الترحّم عليه، وتمنّيت له تحقيق ما تمنّى لنفسه. "ستبقى عندنا كمان شوية، أم أنك مُلزمٌ بالعودة بسرعة." كنتُ بالفعل كذلك، كما أنّ أهل الفقيد الأقربين وغيرهم كانوا بحاجةٍ إلى الراحة، بعد قلق أيام مرضة الأخيرة، وتعب وحزن أيام العزاء، ناهيك عن كون وجودي وذهابي وإيابي من دون أن يكون لجانبي –كالعادة- سيذكرهم أكثرهم بخسارتهم، ورؤيتي لهم ستثير أشجاني بشكلٍ متواصل.

"سأبقى بعض الوقت، وسأودعك قبل السفر.. لقد حضرتُ على عجلٍ، ويتوجّب عليّ العودة في أقرب فرصة، وعموماً، لن ننقطع عن بعض." أكدتُ وتمنيتُ لها طول العمر. أمسكتُ بنفسي قبل القول أنّ زياد كان يدعو ربه في الفترة الأخيرة أن

يمدّ في عمره حتى يدفن والدته، ويتمنّى ألا تشهد هي دفنه. "يا ريت ربنا سمع دعوات زياد يا حجّة، كان يتمنى الشفاء، وأن يمد الله في عمره لفترةٍ إضافية."

ربنا له حِكَم يا حج.. قالت إحدى صديقات بنت الحجّة، والتي حضرت لسببٍ ما لتُعزّي صباح اليوم الرابع. على الفور خرج منّي جوابٌ بدون تفكير، بأنني لست حاجاً ولن أحجّ أبداً. تذكرتُ -على ما يبدو- حديثي مع زياد حول الحجّ، فخرج ذاك الجواب، فدُهشتْ المُعزّية.. تذكرتُ مناقرةً مع مأذونٍ حضر لعقد قِرانٍ آخر بنات زياد قبل أشهر، وكانت كلّ الدوحة وقطر تعرف آنذاك أنّ زياد أصيب بسرطان الرئة، وأنه يحاول ما يستطيع من تداوي. عقد الشيخ وكَتَبَ، ثم باشر في تقديم موعظته، بينما زياد يجلس على يمينه والعريس على يساره. قال بضع جُملٍ ثم توجّه للعبر بقِصر الأعمار، وأن القدر لا رادّ له، مهما كان المصاب عظيم الشأن.. كان من الواضح أن الشيخ غير نقيّ البال، ولا صافي الذهن، ولا حسن الأخلاق، فقاطعتُهُ فوراً وبجهوريّة أن الأعمار بيد الله، وأنّ النبي مات وأننا هنا في مناسبةٍ سعيدةٍ. فواصل لو سمحت الخطاب في ذلك الاتجاه.. وهذا بالفعل ما حصل، ثم اعتذر لي واعتذرت له بعد انتهاء المراسم ومغادرته على عجل. أنا لا أتحمّل من يعظُ أناساً لا يعرف قدْرهم وعِلمهم.

ما إنت عارف كلّ القصص.. قالت لي أم زياد حين طلبتُ منها أن تروي لي كيف تقارب جدّ زياد من أجدادي. أردتُ أن أخرجها من الأجواء قليلاً لتتحدث بما تعرف. أعادت عليّ رواية أنّ عائلة أبو عجينة لاهوية (من قرية بيت لاهيا) وأنّ جد زياد عبد الله اختار الابتعاد عن الرَبِع، فمشى رُبعَ ساعةٍ إلى الشمال، حتى وصل قرية بربرة التي يليها عسقلان ثم يافا على الساحل. في بربرة استقرّ، ومنها تزوّج، وفيها أنجب ابنه أحمد والد زياد. هناك أيضاً كان أجدادي، وولد والدي الذي تزوّج مرتين من بربرة بينما تزوّج والد زياد مرّتين، لكن من قريباته اللاهويات، الحجّة أم أسعد ولاحقاً أم زياد، أنجب من الاولى اربعة ذكور وبنتين، ومن الثانية اربعة ذكور وثلاث بنات. بعد نكبة فلسطين عام 1948 انتقل أهلي إلى مدينة رفح في جنوب قطاع غزة بينما سكن أهل زياد في مخيم الشاطئ على ساحل مدينة غزة.. زياد وأنا لم نكن قد وُلدنا بعد. في المخيّمات سكنّا، وفي مدارس وكالة الغوث تعلّم كلٌّ منّا سنوات الابتدائية، لكن زياد انتقل لاحقاً بعد نكسة 1967 إلى الدوحة وأكمل فيها تعلّمة المدرسيّ، وأنهى الثانوية العامة 1976، وكانت درجته الحادي والثلاثين من بين ثلاثمائة وسبعة وستين طالباً.

سنوات الصبا هي الراسخة في الذهن الباطن، مهما تغيّرت الظروف لاحقاً، هي لبّ الذكريات ومهد الحياة وأمنيّة العودة الفعلية. لم يكن زياد يتنكّر لأيّ شيء من ذلك

الماضي الجميل، بل يتفاخر به، ويذكره في معظم الجلسات مع أناسٍ جدد. عشرات المرات تكرّر ما يلي تقريباً: اجتماع عمل أو تعارف على مائدة طعام، يدعو المضيف شخصياتٍ استثماريةً وأمنيّةً وأهل سياسةٍ وتجّاراً، كلّ منهم يُدير عشرات الملايين على الأقل، ما عدا جماعة الأمن طبعاً، الذين يحضرون على أمل المساعدة في تمرير أيّ اتفاقٍ أو شراكة. كلّ هؤلاء يتحدّثون عن استثماراتهم وأموالهم... وغير ذلك من مظاهر التفاخر.. حينذاك، كان زياد يجهر بصوته ويقول: والله يا جماعة الخير نحن لم نكن نعرف في صبانا الحلويات وينظر إليّ طالباً التأكيد، فأقول: كنّا نعرف القطايف في رمضان والنمورة بقية العام. فيقول: أنت برجوازي ابن مختار، أنا لم أكن أعرف الحلويات.. حينها يبدأ الآخرون بتذكّر أيام بساطة زمان، ولكن من دون الاعتراف الكامل. هنا كان زياد يضيف: أنا كان عندي بنطلون واحد فيه عدّة رقع، ولما يوسخ أنتظر غسله وتنشيفه لأرتديه مرةً أخرى.. يضحك الحضور كلّ مرةٍ فيحلف لهم الأيمان أنه جادٌ في كلامه. هذه الصراحة كان يطلقها أمام الجميع، ربما لأنه أصبح متعدّد الملايين ويريد أن يُبقي أقدامه على الأرض، ويُبلغ المستمعين أنه عمليٌّ ولا يحب الفشر. ما أصبحت أعرفة من صداقتي مع زياد ان المال يساعد من يريد على التواضع، ولكن المتواضعين الأغنياء ليسوا الاكثرية، كما ان امنية تملك المال والمزيد منه تدفع الاخرين الى التصنع والتباهي والتمظهر. الغني يمكنه الذهاب الى اي مناسبة بملابس عادية او حتى رخيصة راكباً اي سيارة قديمة لان ثقته في ذاته عالية، بينما طالب المال يرتدي أغلى ما يملك ويركب أفضل ما يجد، ويتحدث بارقام فلكية.

عن العائلةِ والإيمان

تربّى زياد في بيتٍ كبيرٍ مع الكثير من أشقائه وشقيقاته وإخوته وأخواته، يعيشون ويأكلون ويشربون سوياً، وقد سكنت زوجتُهُ وأنجبت في ذلك المحيط الذي يديره أبو أسعد والد زياد بحزم. شاهدت أحمد أبو عجينة مراراً في قطاع غزة، حين كان يلتقي مع أبي في أعمالٍ أو زياراتٍ أو مناسباتٍ، واجتمعتُ به بعد حواليّ عقدين من الزمن أثناء زيارةٍ لكلينا إلى القاهرة.. كان دمث الأخلاق أقرب إلى الصرامة، طويل القامة، معتدل البناء، طبيعيّ التديّن مثل كلّ جيله. ومثل كلّ متعددّي الزوجات، الذين يفطنون لجريان العمر بعد الإنجاب، لجأ إلى التشديد على زياد ليصقله ويعلمه ليكون مُعيناً لشقيقاته وأشقائه، الذين عليه تحمل مسؤوليتهم. كان يحثّه على النظام والاجتهاد، ويؤنّبه حين يتقاعس، ويحفزّه بمناسبةٍ أو بدونها كلما اختليا سوياً ويصحبه معه في رحلاته خارج قطر أثناء الاجازات. كان أبو أسعد بالطبع حريصاً على مصير كلّ أولاده، فقد حكى لي زياد أنّ خبراً وصل لوالده ذات يومٍ عن توجّه أحد إخوته إلى التديّن المنظّم، وأنه يجتمع دورياً مع أمثاله في أحد الجوامع.. تأكد من الموعد وذهب للجامع، وسحب ابنه من بين المجتمعين، وأوصله جرّاً إلى البيت وهو يزجره ويسأله إذا كان يريد أن يصبح موزن..! أنهى الأخ تعلّمه الثانوي وتعلم الطبّ، وكان من أول من جمعوا المال بين المغتربين في قطر، وامتثل لأمر والده بأن يُنفق على تعليم زياد الجامعي في القاهرة.

ذلك الأخ احتفظ للآن بحبّ الدعوة وهداية -حتى المهتدين- من الناس، أما زياد فهو متديّن ملتزم أيضاً ولكن على طريقة والده بالتديّن الطبيعي ومعاشرة الناس حسب طرق معاملتهم. عندما امتلك المال بنى جوامع لم يضع اسمه عليها، ولم ينشر خبر أفعاله الخيرية أبداً إلا إذا تطلّب الأمر إشراك بعض أصدقائه الأغنياء في عملٍ مشابه. كان يناقش من يناقشه في الدين ولا يبدأ هو في هداية الناس، ولقد استمع إليّ كثيراً في مجادلاتٍ متنوّعةٍ، ولكنّه كان على الدوام يرتكز على القرآن، وأن ما فيه غير قابلٍ للجدال، وما لم نفهمْه من القرآن للآن فإنما سببه جهلنا.. كنت أقول له: إذا كنّا نجهل بعض ما في القرآن ولم يفسّر لنا الأولون ذلك، أو فسّروه من واقعهم، وثبت الآن أنه تفسيرٌ غير مطابقٍ.. فعليك أن تقرّ أنهم لم يفهموا كلّ ما جاء في القرآن، وأن إيمانهم كان بالثقة وليس بالوعيّ، لم يكن يغضب أبداً من أيّ استفزازٍ بل يحسم بالقول أن كلام القرآن حقٌ لا يأتيه الباطل. مثل تلك النقاشات كنت أفتعلها في الماضي حين يخبرني باكتشافٍ علميٍ جديدٍ كان القرآن يعرفه وجاء به، فأقول له: إنّ الأولين إذاً لم يكونوا يعرفون ماذا يطالعون، إذا كان علماء زماننا هم من يكتشفون تلك الأسرار.

قلت له ذات مرة بعد أن صلّى العشاء: أتعرف أن القرآن لم يطالب أبداً بخمس صلواتٍ في اليوم.. صمت قليلاً كونه يعرف أني لا أقول ما أجهله، وسأل عمّا جاء عن عدد الصلوات، فأكملت أنه قد ورد ذكر ثلاثِ صلواتٍ وبدون تحديدٍ لعدد الركعات وآلية تأدية الصلاة. أيُّ شخصٍ آخر ملتزمٌ بدينه ويعتقد أن عاداته مقدّسةٌ كان سيثور عند سماعه هذا الرأي، لكنّ زياد تبسّم وقال: لذلك أنت تصلّي ثلاث مرّاتٍ فقط، لا بأس إذا كان هذا ما يُرضيك. كنت أعرف أن إجابته هذه مؤقّتة، وأنه سيلجأ للعمّ جوجل، ويستطلع ما جاء في القرآن في هذا الصدد.

لم يكن زياد شيخاً في صباه، مثل القلّة من الشباب الذين تحكمهم ظروفهم وطباعُهم إلى العزلة والتدبّر وصحبة كبار السن، إنما عاش طفولته وصباه وسنوات تعليمه مثل غالبية نظرائه في السنّ والزمان والمكان الاجتماعي والسياسيّ، ولكنه كان بالفعل شاباً في الكبر، في الخمسينيات، وذهب إلى ربه في نهاية خمسينيات عمره. كثيراً ما قلتُ له ما معناه: لقد جمعتَ الكثير من المال، وحقّقتَ أمانيك في العمل والعائلة، ولن تفرق الأمور كثيراً لو أضفت مائة مليونٍ أخرى لرصيدك، ولهذا افعل ما كنت تتمنّاه غير النجاح في العمل.. فاجأني ذات مرةٍ بالقول إنه سيتقاعد في سنّ الخامسة والخمسين، فأثنيتُ على ذلك. لكنه لم يصمد في هذا التقاعد سوى بضعة أشهرٍ، لقد تراجعت المداخيل وتزعزّع الحال، وتهدّد مصير العمال، وانتابه القلق، فعاد إلى مواقعه. آنذاك ذكّرته بحكمةٍ للفيلسوف الأمريكي هنري ثورو، الذي كتب رواية ولدن بناء على تجربة سكناه في كوخٍ خشبيٍّ لسنتين ليكتشف روحه واستقلاله بالقرب من بحيرة ولدن في الغابة، ومما قاله: إن الثروة الزائدة عن الحاجة لا تستطيع إلا شراء ما هو زائدٌ عن الحاجة، إننا لا نحتاج إلى نقودٍ لشراء ضرورةٍ واحدةٍ من ضرورات الروح. كان يعزّ على زياد أن يتقاعد وتتراجع شركاته، فالعمل عند أمثاله إدمانٌ حقيقي، وعنده بالذات إدمانٌ وعقيدة، ويكفي أن أشير هنا إلى تمييزه الإيجابي في التشغيل للخريجين الجُدد ليضعوا أقدامهم على بداية الطريق، وكان يخصّ العمال والمهنيين والخريجين الفلسطينيين، ويمنع أيّ فصلٍ تعسفيٍّ لهم، ويحثّهم على البحث الدائم عن فرص عملٍ أفضل عند غيره.. كان يقول: يكفي الشعب الفلسطيني ما يُعانيه من تضييقٍ معاشيّ، وكلّ من يتوظّف عنده يُعيل بقية أفراد أسرته في فلسطين أو حولها.. ذلك لا يعني بالتأكيد تفضيله العشوائيّ للأقارب، بل كان يفصل كل من يتخاذل أو يتبجّح بقرابته في العمل، ويُثني على النشطاء والمبادرين، ويُجدّد الفرص للمخطئين الكثر نسبياً، على أمل أن تتكرّر قصّة نجاحه مع بعضهم.

النجاح في العمل ليس مصادفةً، كنّا دوماً نقول لبعضنا، بل يحتاج لعقليةٍ مناسبةٍ وعلمٍ أو معرفةٍ في مجال ذلك العمل، ومثابرةٍ قائمةٍ على حبّ العمل إلى درجة

الإدمان من دون تفكير كيف سأنفق ما جمعتُ اليوم في راحة الغد. وبالطبع ليس كلّ مجتهدٍ مليونير، ولكن كلّ مليونير مجتهد. أعرف أصدقاء تنطبق عليهم معظم المواصفات ولكنهم لم يتوصّلوا إلى المليونيرية، بالطبع هم ليسوا فقراء.. هناك صديقٌ مهندسٌ ألمانيّ كان من المفترض أن يصبح مليونيراً، ولكنه كان عملياً أكثر من اللازم، ولا يهتمّ بالناحية الجمالية فيما ينتجه، يكتفي بالمتانة والجودة ووفرة التكلفة، ولهذا لم يتمكّن من المال.. وفي ألمانيا كنت -مثل غيري من الطلاب- نعمل في الإجازات الجامعيّة الصيفيّة في مصانع يكون عمالُها قد حصلوا على إجازاتهم، لكنّ الكثير من هؤلاء العمال كانوا يحضرون يومياً إلى مكان العمل في وقت استراحة الغداء لأنهم غير قادرين على الابتعاد والراحة. ولي صديقٌ بريطانيٌ مرّ بضائقةٍ ماليةٍ إذ طُرد من وظيفة مندوب مبيعات لصمامات ماكينات.. فكّر ودبّر، وتناقشنا فيما سيفعل، وبعد فترةٍ أسّس معملاً صغيراً يصنع ذات الصمام الذي تُنتجه الشركة الأميركية، نافسهم بالتدريج، وتوسّع بسرعةٍ، وأقام شركةً كبيرةً ومصانع في السعودية والصين وأستراليا وبريطانيا طبعاً، ولديه دخلٌ شهريٌّ حوالي مليون استرليني. هو الآخر فكر مثل زياد أن يتقاعد في خمسينيات عمره، وباع نصف أسهم شركته.. جلس في البيت، وتجوّل في العالم، ثم عاد واشترى نصفه المُباع، وعاد على رأس عمله اليوميّ لأنه مُدمنٌ عليه. هذا الحال سنجده عند أصحاب المليارديرات أيضاً، فغالبيتهم تعدّوا العقد الخامس، ولكنّهم لا زالوا على رأس أعمالهم، ويبقون كذلك حتى في العقد التاسع من العمر طالما أن عقولهم تسمح بذلك.

على الأرجح أنّ مدمني العمل لديهم خواصٌ أسريةٌ طيبةٌ. هم يكوّنون ثرواتهم حسب مبادئ جمّة لا يحيدون عنها. مثلاً: تحديد الأمور حسب أولوياتها، وكون زياد ملتزماً دينياً ومُتبّعاً للشرع فقد أعطى وقتاً بنسبةٍ جيدةٍ للأسرة، أسرته من إخوةٍ وأخواتٍ ثم أسرته الخاصة التي بناها منذ تزوّج في العام 1983، وواصل سكناه في بيت الأسرة حتى بعد إنجاب ابنتيه الأوليتين. كان زياد -حسب معرفتي به وما رواه لي- بيتوتيّاً لا يُحبّ البذخ ولا يُجاري الأغنياء في سهراتٍ تتعارض مع رؤيته الدينية، ولا يدفع رشاوى لضمان أيّ عملٍ، أو يجاري أيّ طرفٍ بالسوء. كان يتحمّل مسؤولية أفعاله، ويعترف بجهله ما يجهله من شؤون الدنيا، ويُقرّ بكلّ فشله وأخطائه، ولا يتوانى عن رفض ما يزعجه أو يتردّد في قول: لا.

روى لي أنه في ذات رحلةٍ جوّيةٍ مع زوجته وطفليه لقضاء إجازةٍ في آسيا، حضر إليهم شابٌ من ركّاب الدرجة الأولى، وتبادل التحيّة والملاطفة معه، ثم عاد وتركهم في الدرجة السياحية. سألتْ الزوجةُ عمن يكون هذا الرجل، وأضافت: يبدو أنه ميسور الحال.. ضحك زياد وأبلغها أنه أحد مدراء شركاته، واعترف لها أنه أصبح منذ زمنٍ ميسور الحال، ولم يبلّغ أحداً من الأهل بذلك حتى لا يتغيّر المناخ العائليّ.

كانت تلك الرحلة قبل الأخيرة له في الدرجة السياحية، وعندما عاد إلى الدوحة وعرف الأهل بالأمر لم يعد أحدٌ منهم يناديه باسم ابنته.. أما هو فقد بنى أول بيتٍ خاصٍ له، وانتقل اليه.. أما رحلته الأخيرة في الدرجة السياحية فقد كانت بالفعل آخر رحلاته الجوية، حين حضر إلى عمان ولم يجد مقاعد في الدرجة الأولى، فجاء إلينا بما تيسّر كسباً للوقت الذي كان يتسرّب من حياته. كان زياد من أفضل من يستغل الوقت لصالحه. في اي تحركات تبعده عن مقر عمله كان يواصل الارتباط واتخاذ القرارات، وفي الطريق الى اي مكان كان يتوقف لانجاز مهام اضافية، وعبر الهاتف والانترنت والواتساب كان يَحسم شؤونه العملية والاسرية والاجتماعية، واينما ذهب يتدارس أي فرُصٍ تتاح للنجاح، لا يرقد للراحة ولا ينام الا سويعات.

يمكنني القول بشبه اليقين أنه لم يتخلّ عن أيٍّ من أقاربه، بل لا يخلو طرف منهم من مساعدةٍ ما.. هذا تلقّى تكلفة تعليمه أو تعليم أولاده، وذاك تملّك منزلاً أو سكناً مجانياً، وغيره كوّن شركةً ما تتعامل مع إحدى شركات زياد، وهناك من أقام لهم شركاتٍ ليبدأوا المشوار.. كلّ ذلك تبعاً لتوصيات القرآن. كان يفرح ويُظهرُ انشراحه لإخبار نجاح بعضهم، وعلى الطرف الآخر يُخفي زَعَلَه من غباوة آخرين وفشلهم، ويكتم غيظه عمن يعرف أنهم يخدعونه.. أخبرني مراراً أنه يعرف مَنْ متلقي المساعدة الذين يسرقونه ويسكت عنهم، وعندما أظهرت عدم رضائي عن هذه الفلسفة قرأ لي من القرآن: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار}(سورة الرعد). تبسّم وهو يضيف أنني بالتأكيد لاحظتُ أنهم مهما فعلوا من خيرٍ أو شرٍ فهم يهدونه ووالديه وذريته الجنة. قال إنه يُعطي الأقارب وغيرهم على سبيل الاستحقاق وليس على سبيل التفضيل والامتنان، ويؤكد لي أن المسيئين سيقعون وسيعرفون أنه كان يعرف، وحينها بالطبع لن يُكرّر الخطأ معهم.

قال: لقد عملتُ بمبدأ أن الفشل هو طريق النجاح، وبالتالي، الألم هو شيء ملازم على الطريق، وعليك تعلّم التعايش معه، وتكوين قيمٍ في الحياة مبنيّةٍ على الاستمتاع بالألم. ثم أضاف من القرآن: {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}(سورة النساء). وقوله تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً}(سورة الإسراء) لقد طبّق زياد هذه الآيات بكلّ وضوحٍ والتزامٍ

وإيجابية، سواءً مع والديه أو ذوي القُربي أو اليتامى والمساكين الذين تعلّم العشرات منهم على نفقته، ولم يخذلْ أيّاً من جيرانه، وكان يسعدُ بالتعرّف عليهم، وأحسن على الدوام لعماله في البيت والمزرعة وعمال شركاته ومدرائها، وهو ابعد مليونير عن الاختيال والتفاخر. كان زياد في المقابل يحترم نفسه ويقدرها كما يحترم الاخرين، وهذا يؤدي لراحة نفسية وتوازن ذاتي. كان صديقي من أصحاب فلسفاتٍ خاصةٍ يُسيّر بها حياته، وكثيراً ما فشل الآخرون في استيعاب رؤاه. لقد أكثر الحديث عن فلسفة العطاء، وعن متعة من يُعطي حين يرى سعادة المتلقّي. على الفور يردّ عليه مستمعوه بأنّ الإنسان يجب أن يمتلك الشيء أولاً ثم يُعطي بعضه، فيضحك كلّ مرةٍ لضيق الاستيعاب. هؤلاء يرون العطاء على شكلٍ ماديٍّ فقط، ومن لا يملك المال الكافي فلن يعطيه لأحد، لكنّ العطاء عند زياد كان المال والإحسان والسعادة والضحكة والكلمة وأيّة مساعدةٍ على الإطلاق، أو حتى تحية عابر سبيلٍ لم يكن يتوقعها. ذات زيارةٍ لمزرعته في الأردن، وقبل أن ننزل من السيارة، تقدّم العامل المقيم وهو يبتسم، فقال زياد وكلّ شيءٍ في وجهه يضحك سعادةً: "شوف شوف هالضحكة ما أحلاها، يكفي تاخذ الابتسامة من هذا الرجل".. ثم نزل من سيارته وعانق العامل، وسار معه يمدح عمله في المزرعة.. لقد تحوّل المليونير إلى متلقّي سعادةً من عاملٍ لديه، فردّ عليه بمثلها.

الركض وراء الأشياء يُعزّز الشعور بنقصانها وافتقادها لدى الراكض، السعي خلف النقود يولّد الشعور بنقصها، حتى لو كان الساعي غنياً. كان زياد يرى أن الإنفاق في الخير وتقديم مما لديك هو الذي يُشعرُك بالثروة وبالرضا. البحث عن السعادة لا يتحقّق بكثرة المال والأصدقاء والخلّان والترفيه، لكن إسعاد الغير يُعطي نتيجةً مزدوجةً بإسعاد الذات والآخرين، مما ينمّي حبّهم ويدفعهم للسير في هذا الطريق أيضاً.

في اليوم الأول لإحدى زياراته إلى عمان، والتي كانت كثيرةً ولكنها قصيرة، مرّ أمامنا أحد جيرانه الذين لم يلتقهِم من قبل، توجّه إليه وعرّفه على نفسه وجامله قليلاً، ثم افترقا. قال لي زياد: الله يخليك أعطيني نص كمية السمك التي أحضرتها لك من الدوحة لنهديها لهذا الجار.. وقبّلني لأوافق، ولم أكن أعرف أنه أحضر لي سمكاً، فوافقتُ على أخذ النصف، وعاد هو يتشكّر ويوعدني بأنه سيرسلُ سمكاً بديلاً مع قادمين من الدوحة.. لم أخبره أنّ مثل هذا السمك متوفّر في عمان لأنه أحبّ أن يُهدي المفتقدات، وما يحب أصحابه وأهلُهُ، وعرف عني حبّي للسمك وتقبّلي الإفطار والغداء والعشاء سمكاً. كان يُحضر السمك أو يرسله، وأحمله وأرسل إليه التين والزيت والزيتون وما توفّر من الفواكه.. لكنّه كان يعشق التين ويهديه إلى أهله وأصدقائه مع شروحاتٍ عن أنواعه ومزاياه، وكان يتصرّف كالأطفال حين يأتي إلينا

في موسم التوت، فيترك أيّ طعامٍ وفاكهةٍ ويقضي على التوت، ويحثّ الحضور على تقليده.

فلسفة العطاء عنده لها علاقةٌ أيضاً بحديثٍ مباشرٍ عن الرسول جاء فيه: (يد المعطي هي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك).. وذكر لي زياد حديثاً آخر ذا علاقة: أن الرسول أخذ بيد سيدنا عقبة بن عامر-رضي الله عنه- وقال له: (يا عقبة.. ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. ألا ومن أراد أن يُمدّ له في عمره، ويوسّع له في رزقه فليصل ذا رحم منه) ويقول -صلي الله عليه وسلم-: (الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم ثنتان: صدقةٌ وصلة).

لم يكن زياد مختالاً ولا فخوراً ولا مُبذّراً أو بخيلاً. كان التواضع من أهم صفاته، كما تشهد له أحداث حياته. في أكثر من مرةٍ كنّا سوياً لقضاء بعض أعماله، فيصادف أن نتأخّر عن موعد غداءٍ فيقف عند أول دكانةٍ أو كشك بيع قهوةٍ وينظر ماذا في المحلّ.. يرى بكيت سمسميّة أو فستقيّة بعشرة قروشٍ فيشتري بعضها، ونتناولها مع فنجان القهوة كوجبة غداءٍ ونحن نتذكر أيام زمان، وكيف كنّا نطير فرحاً بهذه الأشياء محليّة ويدوية الصنع في المناسبات والأعياد. في مرةٍ أخرى قال: سنأكل اليوم مشاوي. فقلت: إن شاء الله. في الطريق إلى المطعم مررنا بمزرعة صديقٍ لأخذ بعض المشمش، فإذا بمجموعة عمّال بناء سناسل محليين يتناولون غداءهم.. أشاروا لنا وعزموا لنأكل معهم. سألني زياد: ما رأيك؟ نفسي آكل معهم. قلت له: جيّد فأنا أعرفهم من الماضي.. نزلنا وجلسنا على الأرض بينهم، وقشّروا لنا البيض المسلوق، وتناول كلٌّ منّا حبّة بندورة وخبزة شراك، وأكلنا حتى شبعنا.. وتمنّى زياد عليهم أن يكرمونا بكوب شايٍ على النار. ضاع الكباب طبعاً، وبقيت هذه الذكرى معنا، وكثيراً ما حمّلني السلام إليهم، وكلّما صادفتهم تذكّروه، وأكّدوا عليّ أن أوصل له تحياتهم.

المِليونير

كانت الكثير من حواراتنا الخاصّة تدور في السيارة أثناء مشاوير لقضاء هذا الشأن أو ذاك الغرض.. عندما ننطلق نكون قد تركنا أناساً وعندما نصل يكون هناك غيرهم، وفي البيت هناك الأهل، وفي الديوان يتواجد الأقارب والأصدقاء والزوّار، وكلّ فئةٍ تتحادث فيما يخصّها ويعنيها، ولا مجال لأحاديث ثنائية، وبالطبع؛ عندما نكون لوحدنا نتداول فيما بيننا، يُعطيني من تجاربه، وأُقدّم له من رؤيتي، وكلٌّ منّا يُصارح الآخر في أدقّ التفاصيل، كون الثقة بيننا غير متناهية.. أعتقد لو أنّ أحدنا خذل الآخر، بمعنى الكذب والغش وليس إخفاء بعض الخصوصيات، لكانت طامّةً كبرى علينا سوياً. ذات مرةٍ تطوّر حديثنا إلى موضوع المال، أخبرني من هم أغنى منه ممن أعرفهم من أصدقائه، وذكر لي رأسماله الثابت في الشركات والأراضي والبيوت، ومقدار التسهيلات البنكيّة المُتاحة له، وكانت مهولةً بالنسبة لي.

"كان بوسعك أن تُصبح مليونيراً، وليس بوسعي أن أصبح كاتباً." قال لي بعد أن سألته أن يوجز لي كيف أصبحُ مليونيراً، وكنت أنوي لاحقاً تحسّس مشاعر الغنيّ لأقارنها بمشاعر الفقير.. وأكمل: "ولكنك أنت مبسوطٌ وسعيدٌ في عملك، وأشعر بذلك كثيراً عندما نتجادل في مواضيع كتبك وما ستكتب، وأنا سعيدٌ بعملي ومخلصٌ لربي.."

"خُشّ في الموضوع، كيف أصبحتَ مليونيراً؟"

"طيب.. في البداية، إنه توفيقٌ من الله، ودعاء ورضى الوالدين، وهو بالتأكيد رزقٌ مُقسمٌ من الله لأرزقَ به آخرين.." قال زياد في طريقنا من منزله إلى المزرعة في أطراف الدوحة: "في البداية سأخبرك بقصة أبي عبد الله، أم أنك تعرفها؟" نفيت معرفتي بأبي عبد الله، وأخذ هو يقود السيارة ويروي ويمثّل الأحداث. كان أبو عبد الله راجل غير مرزوق، وله قريبٌ غنيٌّ جداً وذو جاهٍ في البلد ويجتمع عنده الناس كلّ ليلةٍ في المجلس. ذات مساء، تمنّى بعض الحضور في المجلس أن يساعد الغنيُّ قريبه الفقير، فقال لهم: لقد جرّبت مراراً ولم ينفع، فهو غير مرزوق، ولكنّي أعرف أنكم لن تصدقونّي، سأخبركم الآن بما سأفعل، وسترون بأنفسكم. قال ذلك وطلب محفظةً فارغةً من أحد الحضور، ووضع فيها مبلغاً من المال ووضعها قرب العتبة ليعثر عليها أبو عبد الله، ولا يتعرّف عليها أحد، فتصبح من نصيبه.. هكذا اتفق الجميع على الكتمان، وترقّبوا حضوره. وصل أبو عبد الله، ووقف قبل العتبة، وخاطب الحضور: وايش رأيكم أنطّ من هون لعندكم في نطّةٍ واحدةٍ؟ طالبوه بعدم

فعل ذلك، وتمنّوا عليه الدخول بقدمه اليمين وقلع حذائه عند العتبة، لكنه رفض وقفز عن المحفظة وجلس بينهم ينتظر الإطراء على فعلته، وهم بين مبتسمٍ ومقهقهٍ ومن يضرب يداً بيد.

"أمهُ غضبانةٌ عليه أبا عبد الله، أو أنها لا تجيد الدعاء." قلت ولاحظتُ تمهّل زياد في السير، فأخبرني بوجود رادارٍ خلفنا، وآخر بعد عدّة كيلومترات، ولو أسرعنا الآن سيعرف الرادار القادم ذلك ويخالفنا.

"أول الأسرار للثراء هو العمل والعقل وسرعة التعلّم. مثلاً لو وزّعنا أموالاً متساويةً على أُناسٍ مختلفين، ورجعنا إليهم بعد عامٍ سنجد معظمهم قد أنفقوه كلّه أو بعضه، وقلةٌ قليلةٌ نجحوا في زيادة ما أخذوه. سبب ذلك هو سلوك كلّ منهم وعاداته، يمكن لفقيرٍ مؤهلٍ أن يُصبح غنياً، ولغنيٍ بالوراثة أن يصبح فقيراً، ويمكن للمليونير أن يُفلس مراراً ويحمل الديون ويعود مليونيراً.. يعني المليونير المفلس غنيٌ بأفكاره وسلوكه والشخص العاديّ الذي يملك بعض المال فقيرٌ بأفكاره ولا يتحلّى بشخصيةٍ ماليّة. أنت تعرف أنني وصلتُ أكثر من مرةٍ إلى حافّة الإفلاس وعدتُ أفضل مما كنت." تذكّرت بالفعل ما كان قد أخبرني به قبل سنوات، إذ كاد أن ينكشف للبنوك، ويعجز عن السداد، لكنّ الله وفّقه في بيعةٍ جيدةٍ لقطعة أرضٍ ذات موقع استراتيجيٍّ، وغطّى بثمنها المستحقّات المستعجلة، فكسب الوقت والتقط الأنفاس، وواصل الطريق بحذرٍ ونجاحٍ أكبر.

"ماذا لديك من الأسباب والمسبّبات والقصص غير أفكار وسلوك الناس؟" سألته.

"الفكر والأفكار هي الأساس، عليك الاستثمار في عقلك على الدوام، لا تهتمّ إلا بالمهمّ لك ولهدفك، لا تضيّع الوقت وتحشو مخّك بأفكارٍ لا تُقرّبك من هدفك.. الغنيّ يركّز ويتابع هدفه بينما الفقير عبارة عن شخصٍ متنزّهٍ في الحياة، كلّ دقيقةٍ في شأنٍ ورأيٍ ومشوارٍ مختلفٍ، بل يعتبر ذاته على حقٍّ وأنه الأمين الوحيد والمؤمن الحقّ والآخرين لصوصاً مرتشين.. الغنيّ يعترف دوماً بوجود من هم أذكى منه لأنه يسعى للتعلّم.."

"..نعم هذا يوصلنا إلى أهمية الأصدقاء أيضاً." قاطعتُ زياد، فعاد إلى الحديث مؤكداً أنّ الغنيّ يصاحب أمثاله ويتواضع، بينما الفقير يصادق من هم أقل منه مالاً وعقلاً، ويشاركهم في التظلّم. لو سألت الفقير والغنيّ سؤلاً لا علاقة له بالمال، الأول سيقول لك عما حصل له في ذلك الصدد، بينما الغنيّ سيحدثك عما فعل في ذلك الشأن، والفارق واضحٌ بين الرؤيتين، واحدٌ يتهرّب ويشتكي الحياة والظروف ويرتاح، والآخر يعمل ويفشل ويحاول ويخطّط ويواصل، وهو على استعدادٍ لتغيير

رؤيته ومحل إقامته وتنويع مجال عمله، ولا يتصرّف مثل بنايةٍ قديمةٍ غاب عنها سكانها.

"أنظر إلى نفسك كمثالٍ للشباب الذين هاجروا مبكراً وتعلّموا وأتقنوا مهنهم، بينما بقية نظرائك في ذات المدرسة والمناخ.. قارن نفسك بهم، وسترى. قارنّي أنا بأقراني وبمن يحملون جيناتي ومرّوا في ظروفي العامة، وستجد الفارق في العقلية." خرجنا عن الطريق العام إلى طريقٍ ترابيٍّ عريض جيد الحال وغير مزفّت.. واصل زياد الحديث كمن تذكّر شيئاً: "هذا الطريق يمرّ بعدّة مزارع لأناس أغنى منّي عشرات أو مئات المرات، كان مليئاً بالحفر وتمنّعت شركة الكهرباء عن إيصال النور إلينا.. طلبت مساعدة الجيران المستفيدين فاستعدوا بالكلام وطال الزمن، فقرّرت تصليح الشارع كما ترى، ودفعتُ كلفة إيصال الكهرباء، وأنا أبعدهم عن الطريق العام، واستفادوا كلّهم ولم يشاركوا بدفع ريالٍ واحد، ولكنّي كسبت الاحترام والراحة، وخفّضت معاناة زوّاري.. أيّ واحدٍ غيري كان سيعاند ويرفض عمل شيء من دون مساعدة المستفيدين الآخرين، أي ضرر الذات وضرر الآخرين، وهذه جشاعةٌ، فالجشع لا يعرف إلا الجوع، يريد الرزق من الآخرين واستغلالهم من دون عمل، لأن صديقه الوحيد هو مالُهُ وذهبه." كان مثالاً مؤثّراً بالفعل لأن المستفيدين ليسوا فقراء كما قال، وتذكّرت قصة حقيقيةً أيضاً لشخص بريطاني ورث من عمته مالاً وبيوتاً، ولكنه طالب البلدية أن تدفع رسوم دفنها، فأخبروه أن القانون يخوّلهم بحجز أملاكها إذا أصر على طلبه، فتراجع مذعوراً ودفع التكلفة، وهي بضعة مئات من الجنيهات. ضحكنا عندما أخبرته بالقصة، وقال إنها عقلية الفقير والجشِع مجتمعة.

عندما دخلنا من باب المزرعة تباطأ في السير، وأوجز لي عوامل أخرى ساعدته على الطريق. الاستثمار أفضل من الادخار، وإشراك الآخرين من أهل الاختصاص في مشاريعك. قال: "حين تقيم مصنعاً للحديد أنت بحاجة إلى شخص له دراية بالأمر، فتحفزه عبر إشراكه، وتُسلّمه الأمور مع رقابةٍ تتراجع تدريجياً بدرجات نجاحه." كنت أعرف ماذا ومن يقصد، فقد أوصل ثلاثة أشخاص بهذه الطريقة إلى الملونيرية، ونمّا بالطبع ملايينه من عقلهم وعملهم. مررنا بمجلسٍ على تلةٍ قال زياد إن الأصدقاء يستعيرونه لمناسباتهم الخاصة.. مجاناً بالطبع، بل أكلهم وشربهم مجاناً أيضاً، ثم حدّثني عن قطيع من الغزلان العربية وضعها في حديقة مناسبة في المزرعة، وهي من النوع المعرّض للانقراض، وتحاول دولة قطر الإكثار منها، وكان هناك أكثر من طاووسٍ يتمختر على الطرقات، وبيت لعصافير جميلة وأبراج لحمام بريّ. كل هذه الأشياء جمالياتٌ مكلفة ومساعدة للبيئة، وهناك بالطبع حظائر الماعز والغنم المخصّصة للذبح.

قلت لنفسي مجدداً وقد وصلنا للآخرين: لقد خرج زياد من القطيع حين خرج من لعبة الحكم على الأشياء بمنظور صحّ وخطأ أو جهل وحقيقة، فهناك أبعاد أخرى للأشياء يجب التنبه لها. كان فقيراً عادياً لم يرث أموالاً، وتسلح في البداية بالشهادة العلمية، ولكنه لم يتوظف في مجال دراسته، دخل إلى مجال المقاولات بخلّاطة إسمنت وأخشاب ونصف شاحنة، بيك أب، جدّ واجتهد ولم يتفاخر بالتقدم. لقد أتقن لعبة المال بسرعة. لم يلجأ مثل الأغلبية إلى الأمان الوظيفي بالدخل الكافي لتغطية المصاريف الضرورية، لكنه دخل مباشرة إلى الاستقلال المالي والذاتي خارج الوظيفة، وقفز بسرعة إلى الحرية المالية القائمة على تنويع مصادر الدخل. بعض الناس من فئات العمال والموظفين بكل درجاتهم يعتقدون أن كمية المال العائد من الوظيفة لها علاقة بعدد ساعات العمل أو المجهود المبذول فيه.. هكذا يظنّ العامل أنه يتعب أكثر من المدير، ويقبض أقل منه، ويعتقد المدير أنه يعمل لساعات أطول من مسؤوله ولكنه يقبض أقل منه.. صحيح أن المهارة والتخصّص هي التي تحدّد القيمة المالية، لكن الراتب مهما كان لا يصنع مليونيراً.

في الصداقة

"لا توجد صداقةٌ هكذا لمجرد الصداقة، وإنما هي صداقة قائمة على منفعة." نظرتُ إليه، وكان يعرف أنني لا أوافقه هذه الرؤيا والرأي، فأضاف: "فلتكن منفعةً مشتركة إذاً." عاجلته بالرفض بتحريك رأسي، وكان بعض أصدقائه يستمعون إلى حديثه ولم يعلّقوا، في انتظار التفسير.

"يمكنني أن أؤكد لك وجود أصدقاءٍ لي يمكننا سوياً قتل بقرة أو سرقتها ولن نفشي بسرّ بعضنا البعض.." قاطعني بالقول لأن مصلحتنا هي اقتسام ثمن البقرة وعدم البوح بالسرّ لمصلحة كلٍ منّا.. "أنت مخطئ.. حتى صداقة الجنين لأمه مصلحة مشتركة، هو يريد الحليب والرعاية وهي تريد الشعور بالأمومة." كان من الواضح أنه مصممٌ على تبرير نظريته بأي شكل، وكنت أريد تخفيف الضغط عن أصدقائه اليوميين المقرّبين الذين يستمعون إلى تصريحاته بعدم وجود صداقة من دون منفعة.

"وماذا عن صديق المختار.. تلك القصة التي رويتَها لي ذات مرة وتؤكد وجود صداقة بحتة.." سألتُ زياد لنخرج من جوّ تصميمه، وقبل أن يجيب بأن ذلك الصديق يريد التقرّب من المختار لمصلحة، طلبت منه أن يقصّها على أصدقائه الحضور.. تجاوب وتبسّم وباشر يمارس ما يحبه من السرد:

كان لمختار ابناً وحيداً يريد تربيته بشكل سليم على الطريقة القديمة، وكان المختار على الدوام ينتقد أصحاب الابن ويصفهم بما لا يليق، لكن الابن كان يؤكد العكس ويدافع عن أصدقائه. هكذا قرّر المختار تلقين الابن درساً لا ينساه. ذهب إلى الجزار وطلب ذبح خروف ووضعه في كيس بدون تنظيف ليتبلل بالدم.. حمل المختار الكيس وذهب إلى البيت ووضع الذبيحة خلف الباب وجلس وسط الحوش وتصنّع الهمّ والارتياب، حتى وصل ولدُه إلى البيت، فوجده مهموماً وملطخاً بالدم. استفسر الابن وأجاب الاب:

اعترضني واحدٌ ملعونٌ وفقدت أعصابي وقتلته بالخنجر، ولم أدرِ ماذا سأفعل، فوضعته في كيس وحملته إلى هنا، وهو الآن خلف الباب، وبعد قليل سيصل الرجال إلى السهرة الليلية فيرون الجثّة وتعرف الشرطة، ونقع في المحظور.

لا تقلق يا أبي، سأذهب إلى أقرب أصدقائي وأحضره بسرعة وندفن الجثة بعيداً ويا دار ما دخلك شرّ. قال الابن وانطلق إلى أقرب بيت يقطنه أحد الأصدقاء، طرق الباب وطلب من الصديق الحضور بسرعة للتخلص من الجثّة. تروّى الصديق ثم قال

للابن: إذهب من هنا، واحمد ربك أنني لن أبلغ الشرطة عنك وعن أبيك. ركض الابن إلى الصديق الثاني وسمع منه سباباً وشجباً: تقتلون القتيل وتريدونني أن أدفنه، وأخذ يصيح خلف صديقه المهرول بعيداً باتجاه صديق ثالث أسمَعَه كجواب على طلبهِ اللعنة عليه وعلى أبيه. استنتج الابن أن لا فائدة، والوقت يضيع بسرعة، فعاد إلى والده وأخبره بما جرى.

لا بأس يا بني، اذهب إلى بيت أبي عبد الله وأخبره بالأمر، ولكن أسرع، فالوقت يمرّ ونكاد ننكشف. في دقائق وصل الابن لبيت صديق والده وأخبره بالأمر.

إن شاء الله خير، إنتظرنِ لحظات ريثما أرتدي القنباز.. قال الصديق ثم هرول الإثنان إلى بيت المختار.. ولا يهمك يا مختار سأتولّى الأمر.. قال أبو عبد الله وهو يحمل الكيس على ظهره وخرج به إلى الواد حيث دفنه تحت الحصى بجانب سيل الماء، وعاد إلى السهرة وأشار للمختار أن كلّ شيء تمام.

إبتعد الولد عن أصحابه الشباب الذين خذلوه وأصبح يجالس أصدقاء والده. ذات ليلةٍ تصنّع المختار مشكلةً لا تستحق حتى التعليق، وغلط على أبي عبد الله أمام الجمع.. عندما تحمّل الصديق غضب المختار وافترض وجود ظروف دفعته إلى ذلك الحمق، صعّد المختار الأمر وصرخ على صديقه ثم تناوله بصفعة على وجهه، وقبل أن يفيق من الصدمة تناوله بصفعة أخرى.. احتدّ أبو عبد الله وتراجع قليلاً وقال غاضباً على سمع الحضور ومن بينهم ابن المختار الذي احتار في تصرّف والده: إسمع يا مختار، أهنت كرامتي أمام الناس بدون سبب، ولكني والله العظيم ومهما أغضبتني فلن أقول عن الشيء الذي تجري من فوقه المياه. هنا نظر المختار إلى ولده ليريه فعل وتحمل وقول الصديق الحقيقي، ثم أخبر صديقه بالقصد من ذلك الفعل وتأسف له أمام الجميع وطيّب خاطره.

إنتهى زياد من سرد قصته وتمثيلها بحركات وتعابير جسدية، فقلت: "الصداقة إذاً ليست بطول الوقت أو قصره، ولكنها تُقيّم بالبقاء على العهد حتى في أحلك الظروف وفورة مشاعر الغضب. ذهبت لغسل يديّ ولم يكن أصدقاؤه قد تفرقوا بعد، فلحق بي، وقبل أن ألومه على تجنّيه في شأن الصداقة تبسّم وقال إنني أدّيت دوري بإتقان. هكذا فهمت أن كلامه الأسبق وربطه الصداقة بالمنفعة كان رسالةً يريد إيصالها لأحد المستمعين، وحين عُدنا إلى المجموعة سألني إذا كان في جعبتي أقوالٌ عن الصداقة.

يقول العرب: الرفيق قبل الطريق، وقال حكيمٌ يوناني قديم: إذا كنت تملك أصدقاء فأنت غنيّ، وقال كاتبٌ أسبانيّ من القرن السابع عشر، سرفانتس: قل لي من تصادق أقل لك من أنت. ثم تذكّرت بيتي شعرٍ للمعرّي ظننت أنهما قد يخدمان زياد:

وافعلْ بغيرِك ما تهواهُ يفعلُهُ.. وأسمعِ الناسَ ما تختارُ مسمعَه

وأكثرُ الإنسِ مثل الذئبِ تصحُبه.. إذا تبَّينَ منك الضعفُ أطمعَهُ

لم أسأل زياد من كان يقصد من الأصدقاء ولماذا، ولم نعدْ للأمر لاحقاً، لكنني أعتقد أنني عرفت من هو المقصود، واستنتجت أشياء أخرى أثناء أيام العزاء في الدوحة وما حدث بعد ذلك، ولا يسعني سوى القول أن قلّةً من أصدقاء زياد الأغنياء أظهروا أنهم علامةٌ فارقة، واتضح أن معظمهم علامةٌ فارغةٌ لا يقيمون للصداقة وللذكرى أيّ اعتبار.. لو لم أكن أعرف أن زياد كان يعتبرهم أصدقاء ويتباهى بهم لما ظننت أنهم كانوا في الأصل في تلك الخانة.. لكنْ من منّا يمكنه قراءة الأفكار واختبار الضمير ليحكم على حقيقة كلّ الصداقات، كما أن المال له تأثيرٌ متعدّد النواحي على أخلاق وتصرّفات الناس، وأقصد من يملك المال ومن لا يملكه وإنما يتأثّر به، ومن يستغل الفرص السانحة للحصول عليه، وهذه الفئة تضم أشر الاشرار وأحط النفوس.

ربما كان زياد يتصرف في حقل الصداقة برؤيةٍ غير جليّة بالنسبة لي، وربما كانت طباعه أكثر ليونة منّي بأكثر مما ظننت. أقول ذلك وقد تذكرت قصةً حدثت معنا واتضح له أن أحد من يعتبرهم أصدقاء قد كذب عليه عيني عينك، ولكنه واصل التعامل معه بشكلٍ طبيعيٍّ، ربما كان السبب تورّطه السابق معه في شراكاتٍ عدّة، وربما كرم أخلاق منه أن يتغاضى عن الأخطاء والكذب، وربما احترس من دون أن يُظهر أيّ قلق، فقد كان زياد حزمةً من المشاعر والحكم والفلسفة يصعب سبر أغوارها. أما قصة ذلك الصديق غير الصادق فهي أن تصادف مروري وزياد أمام مقاولة بناء في الأردن، فقلت له إن فلان ينفّذ هذه المقاولة، فهل باركت له؟ قال إن فلان في الأردن الآن وسيلتقيه غدا لشأنٍ آخر وسيبارك له. كنت مع زياد حين التقاه وبارك له، لكنّ صديقه أنكر تكلّفه بالمقاولة، فسكتُّ أنا ظناً أنني مخطئ، ولم يزد زياد، وانتقل الحديث لموضوعهم المشترك.. بعد أشهرٍ جدّدت الصدفةُ لقاءنا في الدوحة، وتحدّث ذلك الصديق عن ورطةٍ وقع فيها وتكليفه لمحامين للتخلّص منها، وموجزها أن مقاول الباطن الذي كلّفه بتلك الأعمال -التي أنكرها- قد خدعه وسوّد وجهه... وغير ذلك من التظلّمات ولوم الغير فقط، وأن الأمر الآن في يد المحاكم. يبدو أن زياد قد تذكّر، أو لم يكن قد نسي أصلاً.. قلت: إحمم لأسلك حنجرتي، فرد زياد: آه آه، وكأنه تذكّر شيئاً، ولم يلاحظ السامعون أو يفهموا ما تخاطبنا به للتوّ.

الموت راحةٌ للذاهب وشقاء للباقين. لقد نظّم زياد ما استطاع قبل الرحيل، أعطى توكيلاتٍ لمن يثق بهم من شركائه ليديروا الشؤون أثناء مرضه، لكنّ الموت يُلغي المؤقت ويفرض تنظيم الميراث وبداياتٍ جديدة. توقّعت أن تسير الأمور بسلاسةٍ أكثر، ومن قِبل الجميع، وخصوصاً من كان يعتبرهم أصدقاءً قبل كونهم شركاء، لكنّ

بعضهم لم يحقق توقّعاتي. ظننت أن من شارك زياد في ملكيةٍ ما، سوف يعرض على الورثة شراء الحصّة تسهيلاً لشؤونهم، لكن ثبت أن بعض الظنّ سوء، إذ أصرّ البعض على المصلحة الذاتية، ولم يقدّموا أيّة حلول سهلة لورثة صديقهم. للفقر توابع وللثراء متاعب، وكان صديق أسباني يقول كلما تطرّقنا في الأحاديث أنه يفضّل متاعب المال على توابع انعدامه.. كانت أحاديث نظريّة، فلم يكن أيٌّ منّا ثرياً أو مُعدماً.

هناك أُناسٌ يغيظهم أن تتحلّى بمزايا لا يملكونها، ولا يهتمّون في المقابل لو كان فيك عيوباً جمّة، لأنهم يكرهون ما يرفع مقدارك، ويعتبرون هذا تصغيراً لهم، ويرون في نقائصك وعيوبك ترفيعاً لشأنهم. أمثال هؤلاء يفضلون الذمّ للآخرين على الثناء، ولا يُرضيهم عنك شيءٌ ولا جدوى من تجنبك ذمّهم أو من استرضائهم، فأنت لا تستطيع تغيير طباعهم، وهم في العموم من الطراز الذي لا يعترف بخطأ، ويعطي ذاته الصواب، ويبرر لصالحه أيّ إثباتٍ ثابت ضدّه. لم يكن زياد على هذه الشاكلة أبداً، بل كان على النقيض، يفرح لإنجازات الآخرين التي ترفع شأنهم، ولا يتوانى عن التعبير وإظهار سعادة لهم بذلك.. في أكثر من مرّة تصادف حين سؤالي إياه عن أخبار صديق له أو معرفةٍ مشتركة بيننا أن يخبرني أنه حظي بشيءٍ جميل ويحثّني على الاتصال والمباركة لزيادة الغبطة عند ذلك الآخر ورفع شأنه.

طوال علاقتي مع زياد لم ألحظ وجود عدوٍ شخصيٍّ مباشر له، ولم يخبرنِ هو بوجود مثل هذا العدو، وكثيراً ما عرف من آخرين أو مما أخبره عن نفسي بوجود بعض الخصوم الذين أود الضرر بهم. كان يضحك ويذكّرني بعدم أهمية إشغال البال بذلك أكثر من اللازم، ويحاول إقناعي بالهجوم السلميّ الذي يشلّ قدرات الخصم ويربك حساباته ولا يضرني بل يرفع من مقداري أمام ذاتي وأمام الآخرين. هذا لا يعني عدم وجود من كان يحقد عليه في الخفاء، أو يتمنّى له الدمار وسوء السمعة، وربما كان بعض أصدقائه والمعارف ومن يسبحون في عطاياه.. ربما كانوا في مقدمة المنافقين، ومثلهم يُحسبون في قائمة الحسّاد طالبي النعم للذات ومتمني البلاوي للغير، وهم من قال فيهم أبو تمام:

قد يُنعمُ الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم.

بالطبع لم يكن أصدقاء زياد فقط من الأغنياء، فأنا أعرف العديد من أصدقائه البسطاء مالياً ولكنهم مميّزون بالفعل. في خيمة العزاء أسرع إليّ صديقٌ قطريّ، كان صديقاً ورفيقاً لزياد.. كانت عيونه محمرّةً منتفخةً، ومكث بعض الوقت واضعاً رأسه على كتفي، وعندما استعاد رباطة جأشه قال: إن خسارتنا عظيمة، لقد فقدنا إنساناً لا يُعوّض. كان هذا الصديق بدوياً ذا بصيرةٍ ثاقبة، ملماً بالكثير من الأمور، وصاحب

آراءٍ جريئة.. كان يلتقي زياد في جولات الفجر، وكلما زرت الدوحة رأيته في الأمسيات يتصرف كواحد من أفراد العائلة وبأدبٍ جمّ.. المهم هنا أنه ليس من أصحاب المال، ولم يستفد من زياد مادياً. كانت صداقاته عابرةً للمكان والزمان والمعتقد.. كانت إنسانيةً متفاعلة. لقد طالعت رثاءً من شاعر صديق لزياد يقيم في ألمانيا، كان معبراً عن المشاعر، عاكساً للحقائق بشكلٍ بديع. في زيارته الأخيرة إلى عمان اتصل معي صديق لزياد يعمل في الجزائر، وكان يزور عمان، أراد معرفة أين يقيم زياد.. أخبرته أنّ زياد مرهقٌ وإقامته قصيرة، فأصرّ على معرفة المكان، وكنت أعرف أن زياد يودّه كثيراً، وقد عرّفني عليه في السابق وجمعني به مرتين لأستمع إلى أفكاره في الأديان وفي الأحاديث المنسوبة للنبي .. ذكّرني الرجل بنفسه، ولم أكن قد نسيته، فأرشدته متأكداً أنهما سينعمان بهذا اللقاء بالرغم من كل الظروف.

هناك الكثير من أصدقاء زياد غير الأغنياء بالمال، ولست في وارد التعداد بقدر ما أود من تنوّع وانفتاح زياد على الناس بإيجابية غير متصنّعة. في ذات زيارة مفاجئة لعمان اتصل لنلتقي فأخبرته أنني وزوجتي معزومون على الغداء عند صديق أستاذ جامعة.. قلت له: هذا صديق منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ويمكنني تأجيل الزيارة إذا كان الأمر مستعجلاً، فقال أن لا عجلة أبداً، وسأل عن الطعام الذي ينتظرنا. رقاب محشيّة، وهذه أكلةٌ يختصّ بها أهل الخليل.. فردّ زياد بأنه لم يأكلها من قبل، وعزمته على الذهاب معنا، وأخبرته أن صديقي هذا قد تعوّد الزيادة الاحتياطية في الطعام وليس بخيلاً، وسيكون هناك ما يكفينا. ذهبنا وأكلنا وحمدنا الله، وشكر زياد ربّة البيت واصفاً الطعام بأنه أفضل ما تناوله على الإطلاق.. لقد كان كريماً في أخلاقه، وعفوياً صادقاً في مجاملاته، ومرتبطاً بالواقع محافظاً على بقاء أقدامه فوق الأرض. كلما تزاورنا كان كلٌّ منا يصحب الآخر إلى معارفه. طلب منّي أكثر من مرة أن نزور معارف لي ولكن من دون إبلاغهم بالزيارة إلا قبيل قليلٍ حتى لا يجهدوا أنفسهم في طعامٍ على طريقة العرب.. كان يودّ التعرّف على طرق حياة الناس العاديين في بيوتهم.

في أحد أيام الصيف مررنا بقرية أردنية وتوقفنا أمام دكان لشراء ماء بارد. أراد البيّاع خدمتنا قاطعاً محادثةً له مع امرأةٍ في المحلّ، فأشرنا إليه بإكمال عمله ريثما نتفحص الثلاجة. عاد البيّاع والمرأة للحديث، وفهمنا أنها مديونةٌ له حتى الآن بعشرين ديناراً وأنها سوف تُسدّد كلّ أسبوعٍ مبلغاً والباقي آخر الشهر. هذا الأمر ليس بالجديد، فمعظم الدكاكين تستردّ الديْن آخر الشهر، وهناك العديد منها تُفلس بعد عدّة شهور لتعثّر استرداد الديون. وضع زياد يده في جيبه فأشرت له بعيني ألا يفعل، وقال لي لاحقاً إنني على حقّ، فلو سدّدنا ديونها لكان هذا عملاً سلبياً على سمعتها أو على نفسيّتها.. ثم تطرّق حديثنا إلى الزكاة، وقال لي إنه يدفع طوال العام مساعدات

ويحسبها من قيمة الزكاة السنوية، ويسدّد بقيّتها في رمضان.. ضحكت ولم أبلغه السبب، فقد كنت متأكداً أنه لا يسجّل كل المساعدات التي يقدمها للآخرين.

أصدقاء زياد المفضّلين هم الأطفال بشكلٍ عامٍ وأحفاده العشرة بالطبع في المقدمة. كان يعرف أسماءهم على كثرتهم، ويقدمون عليه أينما شاهدوه، إذ يشعرون بالسليقة أنه يحبهم، يتبسّم لهم ويلاطفهم إذا كان مشغولاً مع آخرين، ويلاعبهم طويلاً وينغمس معهم في أوقات الفراغ، ويتفقدهم في كل رحلة عائلية. لقد صبغ زياد بناته وأبناءه بجيناته، فكلهم يحملون قسماته، ورغم أن إخوة وأخوات زياد أيضاً يتشابهون ويحملون جينات والدهم إلا أن أحفاده اختلطت جيناتهم بين الأم والأب، وهذا طبيعيّ. كان يعطف على الأطفال جميعاً، يُرشد من يخصّونه، ويراقب أطفال الآخرين ويعرف طباع الكثيرين منهم. جلسنا ذات مساءٍ في مزرعته وكان أكثر من عشرة أطفالٍ يحيطون بنارٍ متّقدةٍ على مرأى منّا. نبهني وقال: راقب فلانة، وهي طفلةٌ لأحد أقاربه في حدود السبع سنوات، وشرح لي أنها عفريتة وسيكون لها شأناً في المستقبل. راقبناها، فمدّت يدها إلى النار وحملت خشبةً متقدةً وصارت تحادث الصغار وتقرّب النار منهم، وفجأة، فرّوا من قربها، ولا ندري ما قالت لهم لتخيفهم، وبعضهم أكبر منها في السنّ والحجم.

لم أقل لزياد أنني أعز هذا أو تلك من الصغار والكبار سكان الدوحة الذين يتوافد بعضهم على المزرعة، ولكنه كان يستشعر ما يدور في خلدي فيرضيني بمنحهم عنايةً أفضل، ولو مؤقتاً، ويلتقط لهم صوراً في المزرعة ويرسلها لي فوراً عبر الواتس آب.. لم يكن هناك الكثير من الأسرار عندي التي لا يخمّنها على الأقل، بينما لم أعرف من أسرار قلبه سوى ما يبوح به، بل إنني أحياناً عجزت عن استيعاب إشاراتٍ أطلقها في حينه واتضحت لي معانيها لاحقاً، لا الومه الان على ذلك، كونه تعبير عن فائق الاحترام منه الا يخبرني بما يعرف انه سوف يزعجني من تصرفاته، فقد كانت رؤانا متقاربة وليست متطابقة.

مع الناس

طوال عِشرتنا، لاحظت على زياد أسلوباً مميزاً في التعامل مع الآخرين من كلّ الأعمار والمقامات، وسألته ذات مرةٍ كيف يتحامل على ذاته بتطبيق تلك الفلسفة بشكلٍ دائم. قال إن عاداته هذه اكتسبها على كِبر، ولم تكن من خواصه أثناء فترة الفورة في العمل، وأكد لي أن قلّةً من الموظفين الذين كانوا يمرّون في السابق من أمام المكتب ولا يطولهم النقد الفوريّ لبعض من أعمالهم.. كان في الماضي يُشعر الجميع أنهم تحت الرقابة الدائمة، لكنه تغيّر في العقدين الأخيرين من حياته، أصبح يسعى لراحة البال قدر الإمكان له ولمن حوله، وتغيّر أسلوبه تماماً مع الجميع. عرفته مستمعاً جيداً ويتحدث عن اهتمامات الآخرين ويبتسم لهم ويخاطبهم بأسمائهم. إذا أراد الشكوى المباشرة أو توجيه النقد لشخصٍ ما أثناء وجودي كان يقول: قريبك، أو صديقك هذا فعل كذا، فتبدو المفاجأة على ملامح الشخص المعني كونه لم يسمع معاتبةً أو نقداً مباشراً من زياد قبل ذلك. لم يكن يلجأ لهذا الأسلوب إلا عندما يتغاضى الشخص الآخر عن القيام بواجبه، سواء أكان تسديد قرض، أو تقصيراً في عمل، أو تطنيش التزام. كان قليل الشكوى والنقد لمن يغلط، ويسعى لفهم الأسباب قبل توجيه اللوم، أيّ يطلق الحبل على الآخر ليسمع من الطرف الآخر مبرراته، ومن ثمّ يُظهر قناعة باحتمال تفهّم تلك المبررات، ولكنه يطرح وجهة نظره ويضع النقاط على الحروف فيبدو المعني وكأنه تعلّم شيئاً جديداً ولم يكن يعرف بخطئه، أو لم يكن الخطأ نتيجةً للجهل والتقصير. هذا لا يعني أبداً أنه كان يُكرّر التساهل، بل يعطي فرصةً أخرى فقط ويحدّد خياراته لحسم الأمر إذا تكرّر الفعل الشائن، أو ظهرت الغباوة. رفض زياد تقبّل المحسوبية العائلية السلبية، وكان يعاقب فوراً من ينافق أو يحتمي بقرابته في العمل، وقد أنهى عمل أكثر من شخصٍ كرّروا ذكر قرابتهم به لتغطية تقصير أو للتمظهر والفوز بمزايا.

ذكرتُ له ذات زيارةٍ أنني قد تعرّفت على شيخٍ قطريٍّ قبل ربع قرن ولم أره منذ ذلك الحين، فتهلّل وجهه وأكدّ لي أن الشيخ على قيد الحياة، وهو على معرفة بأبنائه، وقرّرنا زيارتهم من دون سابق إنذار، لكنّي أعتقد أنه قد اتصل مع أحد الأبناء. وصلنا إلى مجلس القبيلة وكان الابن في انتظارنا بين روّاد المجلس الآخرين، فرحب الابن بنا كلاً باسمه ولقبه وأشار أن والده في المنزل ومتعبٌ قليلاً، وعرفنا على الحضور كلاً باسمه، ثم تواصل حديثهم الذي انقطع بحضورنا. تصادف ورود استشهاد بحديث نبوي ضعيف أثناء الحديث فنظر زياد إليّ. التقطت فرصة وقلت للمتحدث ما معناه إن علينا الاحتراس من كثرة الاستشهاد بالأحاديث النبوية. ظهر

الارتياح على وجه زياد لأسلوبي المناسب في الحديث مع القوم، وأيّدني بإشارة من يده.. وبعد محاولة تأكيد المتحدّث أن الحديث صحيح؛ عدت للقول إن أبا هريرة المنسوب إليه هذا الحديث قد سُجلت باسمه ثلاثون ألف من الأحاديث وأن صحبته للرسول لم تزد عن عامين، ولو حسبنا الساعات التي رافقه فيها كلّ يوم لما خرجنا بجزء صغير من هذا العدد.. هنا تدخّل الابن مؤيداً، فتوقف المتحدث عن متابعة المجادلة. بعدما انتهت زيارتنا وأوصلنا ابن الشيخ إلى باب السيارة حادثت زياد مطولاً عن أدب القوم وحسن وبساطة ضيافتهم، وكان وجهه يشعّ إشراقاً وانشراحاً مما يسمع، فقد كان يحب قطر والقطريين حباً جمّاً، ويفرح إذا كسب التأييد لموقفه من طرفٍ آخر محايدٍ مثلي. كانوا جيّدي الاستماع، مما يشعر الطرف الآخر بالأهمية والاحترام المتبادل. علّق قائلاً: "من الأفضل عدم التجادل مع الآخرين، بل تجنّبه، لأن الجدال عقيم مع الأغراب، وخصوصاً في جلساتٍ عامة، فالناس لا تغيّر آراءها بسرعة، والجدال سيشعرهم بأنهم مخطئون ويحرجهم ويشعرهم بالعداوة تجاه المجادل، وإذا حدث الجدال فابحث عن احتمال خطئك واعترف به ذاتياً، ومن ثمّ فكر في الأمر."

في طريق العودة تبادلنا الآراء، حسب التجارب الذاتية، فيما إذا كان الرخاء الاقتصادي للفرد والمجتمع يؤثّر في آداب الحديث، أم أنّ هذا الشأن نابع من التربية ويشمل الأثرياء والفقراء. كانت الخلاصة أنّ الرخاء يؤثّر فعلاً إيجابياً في آداب وأخلاق الأفراد والمجتمعات، إذ يقلّ توتّرهم ويُكثر مديحهم واحترامهم لبعضهم البعض وللآخرين، ويؤهّل لاحترام الذات والرضا عن الكثير من الشؤون. احترام الذات يُدعّم ويتأصل بحكم انعدام الحاجة والعوز، ولتعزيز الاحترام قد نلجأ للمال من باب تحسين المظهر الخارجي وتطوير الثقافة والعلوم، وأيضاً يحرر المال من عبودية العمل غير المرغوب، وباختصار يوفر المال لصاحبه فرص تدليل الذات أيضاً. بالطبع الفقر لا يمانع العلوم تماماً ولكن الثابت وعبر العالم أن أبناء الأغنياء هم الأوفر حظاً في فرص التعليم بسبب التكلفة وحاجة العائلة الفقيرة للذكور ليعملوا وتزويج الإناث في أقرب فرصة من دون مراعاةٍ لضرورة التعليم الذي هو أحد قوائم الآداب. كما أنه من الملاحظ على الفقراء عموماً تملّقهم لأصحاب المال ومنافقتهم، وهذا ليس من أدب المعاملة بشيء، وفي الجانب الآخر فإن أغلبية الفقراء من غير المتعلمين متشددي الآراء، ويتثبون بمعتقداتهم، ولا يجيدون آداب الحديث مع بعضهم البعض الآخر.. بالطبع لم تكن أحكامنا قاطعة، ولكن هذه الآراء عمومية ويمكن اعتبارها تنطبق على الأغلبية من الأثرياء والفقراء، وهنا وهناك توجد الكثير من الاستثناءات.

يقال إن المال قد سميّ مالاً، لأن الناس تميل إلى تملّكه وتخضع في الغالب إلى من يملكه، وقد قيل:

رأيت النَّاس قد مالوا إلى من عنده مالٌ ومن لا عنده مالٌ عنه النَّاس قد مالوا
رأيت النَّاس قد ذهبوا إلى من عنده ذهبٌ ومن لا عنده ذهب فعنه النَّاس قد ذهبوا

قلت لزياد: إن فقراء العلم والآداب والمال هم الأتعس حظاً، ومعظمهم مؤهلون للوقوع بسهولةٍ تحت سطوة وتأثير المال.. يتقبّلون العطاء، وينافقون، ويؤيدون بانبهار، ويستجيبون لرغبات المال على أمل ضمان أيّ نصيب منه، أو حتى الحفاظ على الوهم بفرصة الاكتساب، ولهذا فهم سريعو الانقياد والتقلّب في الولاء.

إن الغنيّ إذا تكلّم بالخطأ قالوا أصبت وصدّقوا ما قالا

وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت ياهذا وقلت ضلالا

إنَّ الدَّراهم في الأماكن كلها تكسو الرِّجال مهابةً وجمالاً

فهي اللسان لمن أراد فصاحةً هي السِّلاح لمن أراد قتالا

"أعرف أنك لا تعمّم هذه الرؤية على الفقراء، ولكن كثرةً من الأغنياء أيضاً يقعون فريسة للمال والأغنى منهم." علق زياد على ما سمعه مني، فأيدتهُ وأضفتُ شارحاً لنظرية جديدة في عالم الفلسفة مفادها أن المال هو الآلهة الجديدة التي يفوق حبها وطاعتها كل الأديان السابقة وآلهتها، فالمال يوحّد كلّ سكان العالم في سبيله وحبه والسعي إليه ودفع الغالي والرخيص للحصول عليه. "تريد الإيقاع بي" قال زياد، فأكدت له وجود هذه النظرية ونموها بسرعة، بل إن مؤمنين من كلّ الديانات يؤيّدونها على اعتبار أن المال هبةٌ من ربهم، وذكّرته بسورة الكهف، حيث المال والبنون وتكرار القصد بتقديم المال على غيره كلما جاء ذكره في القرآن، وكما هو أيضاً فتنةً فنقصه بلوةٌ من الله، إلى جانب الجوع والخوف.

"صحيح، لقد قدّم القرآن المال على البنين مراراً، لكن ليس على الدوام." قال زياد واستشهد من الكتاب: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّـهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} (آل عمران:14).

"هل لاحظت أن الجنس هنا جاء في المقدمة، لكنّ التربية لها دور جليل في أدب الناس تجاه بعضهم، لهذا نهتم ببناتنا وأولادنا ونؤدبهم في التعامل واحترام الأكبر

منهم والضيف، وطاعة المدرسين والشيوخ، وهذا النوع من التربية متاحٌ للجميع أغنياء وفقراء."

"نعم، لاحظت أن النساء والمال والخيل من متاع الدنيا، وكذلك اعتبار حرث الأرض أحد مصادر الثراء والفتن." أجبت صديقي ثم رجعت لحديث التربية: هذا صوابٌ يا زياد، لكنه تأدّب الحد الأدنى، ويحتاج إلى صقلٍ بالعلم، وتعميق احترام الذات والآخرين، وهذا يُدعمُ بالمال.. دعني أعطيك مثالاً: حين تشاهد مظاهرةً سياسية للفقراء ومتوسطي الحال سترى صراخاً وتزاحم وتضارب، وحين يتظاهر الأطباء أو المدرسون فستراهم يرفعون شعارات ويقفون بهدوء فينالون التعاطف. هذا يشير إلى وجود مبادرةٍ لتنفيذ مهام مدروسة واستعدادٍ لتحمّل المسؤولية والتحدّي. تفكر زياد فيما سمع وقال إن التفاؤل والتشاؤم يمكن أيضاً اعتبارهما وجهين للثراء والفقر. المتشائم مصابٌ بالعجز والقنوط وشخصنة الأمور واتهام الآخرين في الماضي والحاضر، وأنهم سيكونون سبب خراب المستقبل، ولا فائدة تُرجى من أيّ شيءٍ. وفي مجال المال فالمتشائم يرى أن من يملكه قد نهبه من غيره بغير حق. بينما المتفائل تراه أكثر مشاركةً وإقبالاً على الحياة ومشاركةً مجتمعية، وهكذا يمهد طريقه للمال عبر العمل الدءوب.

النَّفس تجزع أن تكون فقيرةً والفقر خيرٌ من غنى يطغيها

وغنى النُّفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها

وتذكرت أبياتاً أخرى عن الفقراء والأغنياء:

النَّار آخر دينار نطقت به والهمُّ آخر هذا الدِّرهم الجاري

والمرء بينهما ما لم يكن ورعاً معذّب القلب بين الهمِّ والنَّار

قلت لزياد قبل أن نصل بالسيارة إلى البيت: لو جمعنا كلّ المال في العالم ووزعناه بالتساوي على الناس، فماذا ستكون النتيجة في رأيك؟ قال: بعد خمس سنوات سيعود كلّ شئ إلى حاله، وسيتجمع المال بنسبٍ متقاربةٍ في أيدي أصحابه الحاليين، لأن الرزق ليس بالصدفة.

كنت أعرف رؤيته في هذا الصدد من حوارات سابقة. كان يرى أن المال والسعة والضيق والفقر هو ابتلاءٌ من الله ليختبر الناس، البعض ينجح والأغلبية ترسب في اختبار المال: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}(الأنبياء: 35).

هكذا.. فكثرة المال ليس دليلاً على حبّ الله، وقلّته ليست دليلاً على غضب الله، فالمال لمن يحبه الله وللآخرين، وأحياناً يضيّق الله على من يحب. العبرة أن المال يجب أن يكون في اليد وليس في القلب، بمعنى إنفاقه بما يرضي الله وعدم الوقوع في حبّه وخزنه. على الغنيّ أن يشكر ربه على النعم، ويؤدّي الواجب بالفعل وليس بالقول، أيّ إخراج الحقوق من زكاة وإنفاق في أوجه الخير المتعدّدة والمتنوّعة الأهداف.. هذه قناعات زياد، وكنت كثيراً ما أذكر أمامه أن أغنياء العرب والمسلمين أبخل من أغنياء الكفّار من مسيحيين ويهود، وأنهم على الأقل لا يتمثّلون بما هو معروف عن الرسول، وبعض الصحابة، من بغضه للاحتفاظ بالذهب، بل إنفاقه كله في سبل الخير، وكذلك أبو بكر الصديق الذي أنفق كل ماله في سبيل الله، بينما عمر بن الخطاب تبرع بنصف ماله في حياة الرسول. كان زياد يجيب برأيٍ وتفسيرٍ خاصٍّ به قوامه أن الرسول يستعيذ بالله من الفقر ومن شرّ فتنة المال، وكان يذكر الذين رسبوا في اختبار المال حسب روايات القرآن، ومنهم قارون، والمنافق المذكور في القرآن حيث نقض العهد بعد أن أعطاه الله المال حسب طلبه.

رؤية زياد للمال وتعامله به كانت مرتبطةً بمفهومه للشرع الذي يحافظ على الضروريات الخمس: الدين، النفس، المال، النسل، والعقل.. وفيما يتعلق بالمال، كان يراعي الالتزام بالقانون القرآني: تحريم أكل الأموال بالباطل، والابتعاد عن الربا، ورفض السرقة والفساد، وعدم أكل مال الأيتام، ولا يبذّر. هذه القواعد التزم بها زياد حسب معرفتي له وللكثير من مواقفه التي تشير إلى ذلك. لقد اعتبر زياد أن البنوك الإسلامية هي الأبعد عن الربا فتعامل معها. أذكر حديثاً مطوّلاً دار بيننا حول البنوك الإسلامية وفي شأن الربا.. كانت رؤيتي أنّ مفهوم الربا السائد بين الناس يعتمد زمن الجاهلية، وأنه في الفترة اللاحقة قائم على أساس حديث الذهب بالذهب والفضة بالفضة.. الخ، وهذا في كل الأحوال لم يعد فعالاً الآن. الربا الذي تحدث عنه القرآن هو بالطبع ما ساد قبيل الإسلام، أيّ ربا العباس عم الرسول، الذي كان يضاعف المبلغ المستدان كل عامٍ إذا تأخّر المستدين عن السداد، وهذا ما قاله الرسول في حجة الوداع: (ألَا إنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أول رباً أبدأ به هو ربا عمي العباس بن عبد المطلب، فإن تُبتم فلكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون..) وربا حديث الذهب كان يمنع الزيادة الربوية في ديون الأشياء ثابتة القيمة، فنسب للرسول قوله: (الذهب بالذهب مثلًا بمثل، يداً بيد، والفضة بالفضة مثلاً بمثل يداً بيد، والتمر بالتمر مثلاً بمثل يداً بيد، والبُرّ بالبُرّ مثلاً بمثل يداً بيد، والشعير بالشعير مثلاً بمثل يداً بيد، والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى). وبناء على ذلك، صدرت الفتاوى وتجدّدت وتلاحقت، وكان بها بعض المنطقية طالما كانت العملات المستخدمة ذهبيةً وفضيةً أو على الأقل طالما كانت العملة الورقية مدعّمةً برصيد

ذهبي مودع في البنوك المركزية. لكن بعد أزمة النفط على إثر حرب أكتوبر 1973 لم يعدْ الدولار مُدعّماً بالذهب، أي أصبحت المالية الأمريكية تطبع أوراقاً وتفرض قيمتها بالقوة عبر العالم، وربطت الكثير من الدول الإسلامية عملاتها بالدولار لتحميه من الانخفاض، فصار الحال كمن يستجير بالرمضاء من النار.. بمعنى أوضح: إذا أودعت نقودك في بنك أو احتفظت بها تحت الفراش في البيت فإن قيمتها تنخفض كل عام بسبب التضخم، ولهذا تعرض البنوك الوطنية الحديثة فائدةً سنويةً تغطي تقريباً قيمة التضخّم، وتشغل البنوك هذه الأموال في مشاريع وطنية مفيدة للوطن، وتزيد الأموال بفعل الإنتاج بدل الاحتفاظ بها ورقاً تحت الفراش. كنت الخّص رؤيتي هذه لزياد بأنّ مفهوم الربا يكون منطقياً لو استمرّت العملات الذهبية في التداول، أو على الأقل استمرّ دعم المال برصيدٍ ذهبيّ، لكنّ الابتعاد عن الفوائد هو إنقاصٌ لرأس المال، وكان صديقي زياد يوجز بأنّ البنوك الإسلامية تقدم مرابحةً قريبةً من الفوائد في الكميّة، وهي التي تتحمّل الخطيّة إذا كانت تشغّل الأموال في تجارةٍ محرّمة.

كان صديقي زياد كريماً رغم أن الكثير من البخلاء اعتبروه مبذراً وينفق على أناسٍ يستغلونه وينافقون، لكنه كان مرتاحاً مع ذاته، ومنسجماً مع معتقداته الدينية، وملتزماً بما أحلّ له الشرع. لقد مرّ قبل عقودٍ بأزمةٍ أوصلته إلى التحقيق، ولكنه التزم بالحقّ. كان ينفذ مشروع طريق بطولٍ معيّن، وحضر إليه مسؤولٌ يطالبه بالتوقّف قبل النهاية والقول أنه انتهى، وبالتالي يعطيه الفارق مالاً حراماً. قال زياد للمسؤول إن العمل لم ينتهِ وإذا أراد إنهاءه هنا فعليه كتابة ذلك خطياً له ودفع ما تمّ عمله.. لم يحتمل زياد الاستمرار في التغطية، ورغم المخاوف إلا أنه أبلغ السلطات وتمّ احتجازه لعدة أيام للتحقيق معه، وكان من الممكن توجيه التهم إليه بالمشاركة لكن المعنيّين قدّروا شجاعته وشكروه، وعلى الأرجح كان تصرفه من أسباب نجاحه في العمل والفوز بالعطاءات. عاد زياد من السجن إلى بيت أمه مباشرة، ولم تكن تعرف أنه كان قيد التحقيق، إذ أخفى عنها كل المنغصّات. قال لي إنّ أمه كانت طابخةً ذلك اليوم حمصيص، فأكل صحناً بعد الآخر، ثمانية صحون، وتساءلت أمه عما يفعل بكل هذا الطعام، وأين كان، وماذا تفعل زوجته في البيت إذا كان بهذا الجوع.. الحمصيص من الطبخات التقليدية المشهورة في غزة، وهي تُعملُ عادةً في الشتاء لأنه الفصل الذي تظهر فيه عشبة الحمصيص. وهي أكلةٌ تحتوي على العدس أيضاً، ويدخل في طبخها كميةٌ محترمةٌ من الثوم الذي يكون بمثابة لغم بطنيّ إذا لم يتمّ التعامل معه بحذر قبل الطبخ وأثناء الأكل.. ويحلو تناولها مع الفلفل المهروس والبصل الأخضر وقرون الفلفل الأخضر، كما هو الحال في البيوت الفلسطينية في غزة.. ومن لا يريد التوجه اضطرارياً إلى الطوارئ عليه إما عدم الإكثار منها

والتهوّر في تناولها، أو بالطبع أكل وصفاتٍ محسّنةٍ مخفّفةٍ لغير المتعوّدين. مشكلة هذه الوصفة انها مغرية الطعم فاتحة للشهية، وقد تعش بها احد اصدقاء زياد فاعجبته، فتناول صحناً ثان وثالثاً، وفي الليل نقلوه للطوارئ.

سيدنا يُوسُف

في رحلةٍ بالسيارة إلى أطراف عمان، تذاكرنا مشاكل زواج الإثنتين، فقال زياد: من يستطيع الزواج مثنى وثلاث ورباع ولا يفعل فهو حمار. كان مدخل استفزازي لتحريك نقاشٍ تطوّر إلى نواحي أخرى. كنّا في الطريق لمعاينة مزرعة زيتون بحجم 400 دونم وبها بئرا ماء عُرضتْ عليه بسعرٍ معقولٍ، وأراد أن أعطيه رأي، وهذا يعني إذا وافقتُ أنا على شرائها فإنه سيحمّلني مسؤوليتها.

"من يستطيع مالياً وجسدياً ومهما كانت سلطته على أهل بيته، فسُيعدم راحة البال فوراً، سيتعادى الإخوة مثل الأمهات.." قلت ممهداً لحديثٍ أطول لكنه قاطعني بالتأكيد أنه قال من يستطيع. عدت للحديث.. "أنا عارفك، لا بد أنّ لديك شيئا آخر."

"والدي تزوّج اثنتين، وكان حاكم البيت ولم توجد مشاكل تُذكر." قال زياد.

"يبدو أنك نسيت أن تسال أمك عن رأيها، ونسيت ماذا فعل أبناء يعقوب بأخيهم يوسف.." تريّثت وقررت تغيير مجرى الحديث لأني لم أفهم مقصده من ذلك الطرح الذي كنت أعرف أنه يناقض ذاته. "ما رأيك في قصّة سيدنا يوسف، أو بالأحرى: ماذا يدور في خلدك وعقلك الباطن عندما تسمع بذلك الاسم؟" سألت وصمت.

"جماله ووسامته، عفّته وحسن أخلاقه، إحسانه لمن أساءوا إليه.. ليس هذا طبعاً ما تفكر فيه أنت الآن." أومأتُ له بصحّة الاستنتاج، وتركته لبضع ثوانٍ ليتعرّف على ما أريد له أن يصل إليه. قال: "انكشني بكلمةٍ لأستدل."

احتكار. قلت وقد اقتربنا من محطة وقودٍ فتوقّف لشرب بعض القهوة وتدخين سيجارةٍ في الهواء الطلق.

"أعتقد أنني فهمتك.." قال بعد أن عاد إلى مقود السيارة، وتحرّكنا في اتجاه المزرعة في الحلّابات، واقترح أن أوجز له رؤيتي لقصة يوسف.

النبيّ إبراهيم تزوّج أربعةً أو خمسةً ذكرت الأديان منهنّ سارة والدة اسحاق وهاجر والدة إسماعيل، لكنه تزوّج بعد موت سارة وهجران هاجر، في الواد غير ذي زرع، تزوّج امرأتين من العرب إحداهما قنطورة بنت يقظان التي أنجبت لإبراهيم ستّة بنين وتزوج أخرى اسمها حجورا بنت ازهير التي أنجبت ما لا نعرف. لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الأعمام. طبعاً تعرف قصّة صراعات سارة وهاجر والاختلاف على من هو الولد الذبيح، ابن هذه أو ابن تلك. إسحاق تزوّج من رفقة وأنجبت عيسو

ويعقوب، الأول صار حبيب والده والثاني حبيب أمه وتنافسا على الحبّ وخافت الأم على يعقوب إثر قصةٍ طويلة، فطلبت منه الهروب إلى خاله في العراق. هناك تبدأ قصةٌ أخرى، فقد أحبّ يعقوب ابنة خاله الصغيرة راحيل، لكنّ الخال زوّجه -بالخديعة- أختها الكبرى بعد عشر سنواتٍ من رعي الغنم، ثم زوّجه الصغرى بعد عشر سنواتٍ أخرى من الرعي، وهرب يعقوب من خاله بزوجتيه وخادمتيهما، فأصبح لديه أربع زوجاتٍ وأنجبن اثني عشر ولداً، وكان يوسف وبنيامين ولدي المحبوبة راحيل، فأحبهما يعقوب أكثر من بقية الإخوة، وكما تعرف، انتقموا منه برميه في البئر.

"هذه مجموعة قصصٍ شيّقةٍ نحتاج ليلةً كاملةً لتفاصيلها." علّق زياد ليقول بطريقته إنّ بعض هذه التفصيلات جديدةٌ بالنسبة له، وأنصت مجدداً، كون الرواية لم تصل بعد للرأي حول قصة النبيّ يوسف، ولا زال أمامنا متسع من الوقت قبل الوصول الى الحلابات حيث توجد المزرعة المنشودة.

"تعرف طبعاً قصة الزوجة التي أحبته واتهمته وسُجن بسببها، ثم خرج براءةً بعد تفسيره حلم فرعون بالسنوات العجاف، وتسلمه إدارة الغلال للنجاة من الأزمة." كان زياد صابراً ويعطي إشاراتٍ بالمعرفة كون هذه الأمور بديهيةٌ ومعروفةٌ لكل مسلم. ثم أكملت: إنتبه الآن، لم يتبلّغ الفلاحون بأنّ سنواتٍ سبعاً عجافاً قادمةٌ بعد السنوات السبع الخِصاب، وقام النبي يوسف بتخزين فائض غلال السنوات السمان وشراء الغلال الفائض بسعرٍ رخيص. ثم في السنة الأولى من العجاف باع الفلاحون بعض ممتلكاتهم ثم باعوا حيواناتهم للنبي يوسف مقابل الغلّة ليأكلوا، وفي سنوات لاحقة باعوا أرضهم مقابل حبوب تبقيهم على قيد الحياة، ثم باعوا أنفسهم كعبيد لفرعون بواسطة النبي يوسف، فشغّلهم في أرضهم بالسخرة، بعد أن أمدّهم بحبوب للأكل وأخرى للزرع..

"من أين جئت بهذه الرواية؟" قاطعني زياد باستهجانٍ كون قصة النبي يوسف في القرآن تصل إلى نتائج خيرية.

"جئت بها من كتاب اليهود.. وهي لديهم هكذا بالضبط، وأنت تعرف أن أولاد يعقوب هم بداية تشكّل اليهود، وأن النبي يوسف هو المؤسّس الفعليّ لليهودية، فقد جلب والده وإخوته وعائلاتهم إلى مصر وأسكنهم منطقةً خاصةً لا يختلطون مع عامة المصريين ولا يمارسون أعمالاً جسدية، وهذا كله في كتابهم، وهكذا تكوّنت عقدة الجيتو الانعزالية لديهم.. وتصرفهم هذا أدّى للكراهية بينهم وبين المصريين الذين ثاروا عليهم وطردوهم من مصر بقيادة النبي موسى بعد حوالي مائة عام فقط. موسى هو ابن عمران بن لاوي بن يعقوب، يعني لاوي أخ ليوسف.. بقية القصة أنت تعرفها

وليست لبّ حديثنا." قلت لزياد موجزاً إذ وصلنا إلى منطقة الحلّابات، وأصبح علينا سؤال الناس لنستدل إلى المزرعة. هذا الاسم الغريب للمنطقة يعود الى قصص تقول انه في غابر الزمان وجدت هنا أغنام حلابة بكمية محترمة فلقبت المنطقة تبعا لغنمها.

كانت مزرعة شجر زيتونٍ مكتمل النمو، مسطحة الأرض وبها بيت ومنظمة بشوارع ونظام ريّ بالتنقيط، وبها ماكناتٌ زراعيةٌ ومضخّات. أحد البئرين كانت مياهه حلوة والآخر ينتجها بنسبة ملوحةٍ عالية يمكن أن تتكلّس على الجذور فتعيق النمو. تجوّلنا وتفحّصنا بعض الشجر، ولاحظتُ بعض الجفاف على الأفرع وبهتاناً في لون الورق، وقال أصحابها: هذا من تأثير البرد والصقيع. قطعتُ بعض الأغصان من مناطق مختلفةٍ، وطلبتُ من زياد عدم التسرّع حتى أعرضها على مختص.. وبالفعل تبيّن أن المزرعة مصابةٌ بمرض فرتيسيليوم الفطريّ، ويتوجب خلع كلّ الشجر وقلب الأرض رأساً على عقب وحرقها وتركها لسنواتٍ تحت الشمس للتخلّص من الإصابات التي تنتشر في الجذور ويمكنها البقاء حيةً تحت الأرض لعشرين سنة.. هكذا كانت الفائدة من تلك الرحلة ما خرجنا به من حكم وعبر الروايات، وتأكيد للمعرفة في الشأن الزراعيّ المكتسب فقط من المعاينة وبعض المطالعات المحدّدة.

فعل اللسان

ذات مرةٍ وحين كان يتأهب للتقاعد المبكر، تتابع الحديث بيننا، واقتربنا من فكرة كتابٍ مشتركٍ ننتج مواده سوياً عبر النقاشات، وأصيغه في النهاية. إقترحت أن تكون المادة حول الدين والتديّن بين الحقيقة والعادة المكتسبة، خصوصاً وأننا لم نكن على توافقٍ تامٍ في هذا المجال، وكثيراً ما تجادلنا حول الدور الهدّام للعادات السلبية المكتسبة، والتي يظن الناس أنها من صلب الدين. قلت لزياد: أنت تكون مع وأنا ضد، فوافق على الفكرة، كواحدةٍ من مقترحات أخرى. وأثناء رحلةٍ بحريةٍ في بربرة جلسنا على السطح لتحديد خطوط أولية للعمل. (بربرة هي مركب سمبوك خشبيّ تقليديّ من ثلاثة طوابق، وأطلق زياد عليها اسم قريتنا التي وُلد فيها أبوه قبل النكبة) قلت: لنبدأ من أهمية الشيطان أو إبليس لانتشار الدين.. نظر إليّ ثمّ توجّه للأفق، حيث تلتقي المياه مع السماء، مُعيراً الانتباه، فأكملت: الشيطان هو الظلام والله هو النور، ومن المعلوم أن الدنيا بالمجمل بمثابة تركيب للمتضادات، الأبيض والأسود، الجميل والقبيح، الخير والشر، الأمين واللصّ، الصادق والكاذب.. كلّ هذا متحدٌ في المعنى ويكمل بعضه، فبدون القبيح لا نعرف قيمة الجميل، وتفقد الصفات معناها.. وقبل أن أكمل الفكرة نظر صديقي إليّ وقال: وحضرتك تريد ربط الله بالشيطان وأن كليهما يكمل الآخر؟

هذا صحيحٌ بشكلٍ ما، بالطبع الله خلق الشيطان وكان بوسعه سخطه أو إزالته، وهو يعرف بالتأكيد سلفاً أن الشيطان سيعترض على خلق البشر ومع ذلك خلقه، وبالتالي فالحكمة المقصودة من خلقه وإبقائه أن يسعى لإغواء الناس بعملٍ مضادٍ لطلبات الله منهم بالعبادة والخير.. إذاً، بدون الشيطان لا دين ولا تديّن، لأن الإيمان يقوم على مقاومة الشيطانيّات.. قلت موجزاً وهو صامت يتأمل.

"هذا موضوعٌ سيتحوّل إلى حقل أشواك.. هل تعرف السبب؟" قلت: أعرفه تقريباً، ولكن زدنِ برأيك، فأكمل: "تتذكر موضوع (كذا) وكيف اكتشفنا أنّ الكثير من الناس لا يقرأون بعمق، وبعضهم يقرأ ولا يستوعب سوى ما هو في رأسه سلفاً.. كتابٌ بمواضيع كهذه سيشدّ الناس للقراءة بنيّةٍ مسبقةٍ للتصيّد، ولا تنسَ أننا في محيطٍ وخليجٍ دينيٍّ وهّابيّ يشجب الفلسفة.." هممت بالمقاطعة، ولكنه واصل القول: "حتى لو كان مسعى الكتاب النهائي هو تعميق الوعيّ الديني الإيجابيّ الموديرن فسنجد أنفسنا في مياهٍ عكرةٍ قاتلةٍ".. تذكرت فجائيات اليأس التي تلطمني كلما شاهدت التمسك الاعمى من الناس للعادات وتقديسها.

بعد ثوانٍ عاد وجهه للإشراق، وأضاف: لنأخذ موضوعاً آخر له علاقة بالله ومخلوقاته، مثلاً البحث في أعضاء الجسد.. ابتسم وهو ينظر إليّ ليرى تجاوبي، ولكنّي صمتُّ ورأى من ملامح وجهي أن عليه الإيضاح.. خذ الرأس البشريّ أو اللسان مثلاً، مكوناته وترابطه وتفاعله مع بقية الأعضاء، ووظائفه.. أحضر بعضهم شاياً بالحليب يسمونه الكرك.. يحسّ اللسان بالحرارة والبرودة فينذرك، ومذاق الطعام فيغريك بالمزيد، أو يردعك عن الضارّ و.. و.. و.. كنت منصتاً له وهو يُغدق في موضوع اللسان وكأنه حفظ عن ظهر غيبٍ ما يخرجه من عقله. تذكرت أنني قد استحضرت بعض الآيات من سورة النور عن الشيطان والإنسان لطرحها في موضوع الدين الذي خططت له، ولمعت في ذهني أنّ بعضها يتحدث عن اللسان أيضاً، فأسمعته إياها ومظاهر الترقّب عليه تزداد بعد كلّ آيةٍ حتى وصلنا لذكر اللسان:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

تجاوب زياد وردّد آية أخرى بها ذكرٌ للسان: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ}(٢٢ الروم). وسألت جوجل على الفور فأخبرني أن كلمة "لسان" قد ذُكرت خمسة وعشرون مرة في القرآن. تراسلنا بعد ذلك في تجميع المواد والأفكار غير التقليدية عن اللسان، لكن زياد لم يتقاعد عن العمل، ولم يتوفّر لديه الوقت لاستكمال الفكرة وتنفيذها. كان من الممكن أن أستكمل الموضوع وأتحمّل العبء ولكن هذا النوع من الأعمال لم يكن من ضمن صميم رؤاي، فقصّرت وأهملت الأمر حين تراجع هو عن المشاركة الفعّالة لانعدام الوقت. لو شاءت الظروف وكتبنا ذلك المؤلف لكنت قد تطرقت الى لسان زياد بالذات، فلديه القدرة على تجنيد لسانه في التفاوض وسحر الكلام المنمق وسهولة الاقناع، كما استعمل لسانه في التسلط اثناء العمل في السنوات النشطة انتاجياً، وسواء في العذوبة او التسلط فقد كان موقعه المالي يعطيه الثقة الذاتية والتاثير. لكنني قصرت في هذا الشأن عندما أضاع وقته في العودة للاعتناء باعماله، وبالرغم من ذلك أنجزت روايةً أخرى كنا قد تحدّثنا في بعض مواضيعها وأفكارها.. في السياسة، وانصياع الناس لغير المنطقيّ وخنوعهم للحاكم وتقبّلهم للأمر الواقع.

صدرت تلك الرواية في آيار 2018، وكان زياد قد أنهكه المرض ولم يعد بوسعه مطالعة ومناقشة المحتوى كما كنّا نفعل في الماضي.. أهديتها إليه عندما حضر للمرة الأخيرة إلى عمان، وكنت في الواقع قد قرأت عليه بعض محتوياتها في زيارتي السابقة إلى الدوحة. كان يتمدّد في البرندة المطلّة على البحر ويستمع لما أُسمعهُ إياه من تلك الرواية المحفوظة في جوّالي قبل صدورها ورقياً، لكنه كان يسهو ثم ينام قليلاً، ونادراً ما علّق على ما كان يسمعه. كانت الرواية تحتوي فصولاً طالما تحدثنا في مواضيعها، مثل: شيطان العقل، ودور الجينات والهرمونات في تكوين الإنسان، وسياسة الراعي والقطيع، وعن الغرائز والغيبيات، وصراع الواعي والباطن... وغير ذلك من المواضيع. كان زياد مناقشاً نشطاً في السابق سواءً لما كنت أخطّط لأكتبه أو ما صدر من روايات. أكثر ما شدّ انتباهه رواية "فتنة الكرسي" كان يتصدّى للنقاش في أية جلسات خاصة عن ذلك الأمر، ويتحدث وكأنه المؤلف، بل يتطرق الى جزئيات نسيتها، وكان هذا من طباع زياد حين تعجبه فكرة ادبية او هندسية او غير ذلك فيتبناها كانتاج ذاتي. يوجز للمستمعين محتوى الرواية ثم يتعمّق في نقاش الإشكاليات، وخصوصاً كيفية حصارٍ طويلٍ ثم قتل الخليفة عثمان بن عفان، بينما علي بن أبي طالب وصحابة آخرون في محيطه، وكيف تسبّب هذا في الفتنة الكبرى التي أصابت المسلمين بعد أن انتهز معاوية الاغتيال وطالب بالقصاص من القتلة، بينما تمنّع الخليفة المُنَصَب، علي بن أبي طالب عن القصاص منهم.

في الزعامة

كانت آراء زياد في السياسة واضحة، ومواقفه أقرب إلى الحيادية، ومحاولة تفهّم الخلفيات لما يدور، ومن ثمّ، يتخذ موقفاً ولكنه قابلٌ دوماً للتطوّر. لقد كثرت حواراتنا السياسية بعد حصار دولة قطر. في بداية الحصار كنت أقول له إن الأزمة سوف تنتهي بسرعة، ظناً منّي أنّ القصة افتعلت للتغطية على تطوّرات تولّية العهد لابن الملك سلمان في 21 يونيو 2017، وليس نقل الحكم من أخٍ لأخيه كما جرت العادة في المملكة، وكان زياد يتمنّى أن يكون الأمر كذلك والمياه ستعود إلى مجاريها، لكنه لم يكن مقتنعاً بهذا الرأي، وتطوّرت أفكاره مع الأيام بحثاً وتمحيصاً في المستجدات الأخيرة والمتتالية.

"لماذا تنازلت مصر -في رأيك- عن جزر تيران وصنافير للمملكة؟" كان ذلك التنازل قد حصل في إبريل 2016، ولم أملك إجابةً معلوماتيةً لهذا السؤال.. ظننت أنّ مصر تريد التخلّص من أعباء حماية الجزيرتين في البحر الأحمر والمضيق الذي أُغلق قبيل حرب 1967، والذي تمرّ منه السفن الإسرائيلية الحربية والمدنية من وإلى ميناء إيلات، وبالتالي، يكون الرئيس المصريّ قد حقّق عدّة مكاسب بضربةٍ واحدةٍ، منها المالي مقابل التنازل عن الجزر، وتوفير كلفة حمايتها، وإشراك المملكة في أية حرب قادمة مع إسرائيل. لم أخبر زياد بهذه الأفكار حين سألني، وانتظرت منه الإجابة فقال: "مضيق تيران يقع بين هذه الجزر والأراضي المصرية، يعني المضيق مياهٌ إقليميةٌ مصريةٌ حسب القانون الدولي، وحين يصبح المضيق بين أراضى دولتين يتحوّل إلى مياهٍ دوليةٍ لا يحقّ لأحد إغلاقه، يعني الفلم كله لتسهيل مرور إسرائيل." كان حديثنا هذا قد جرى بعد فرض مصر والمملكة والإمارات والبحرين الحصار يوم 5 يونيو 2017 على قطر، الذي وافق بدوره مرور خمسين عام بالضبط على حرب 1967، وقبل أيامٍ من إعلان تنصيب وليّ عهد للمملكة هو ابن الملك.

كانت رؤيتي للمجريات والاحتمالات -والتي لم أخبر زياد بها تفصيلياً- تقوم على مطالعتي للعلاقات العربية الداخلية، وتحديداً بين مصر والمملكة وتغليب مصالح الحكم على الأهداف الوطنية والقومية. في عام 1962 تدخّلت مصر في اليمن ضد الإمام الحاكم هناك ولنصرة الجمهوريين الذين انقلبوا على المملكة المتوكليّة، وأرسل جمال عبد الناصر -بطلب من الضباط الأحرار اليمنيين- قواتٍ مسلحةً مصريةً إلى اليمن، وتحوّلت المملكة العربية السعودية إلى نصيرٍ لفلول رجال الإمام، ودعمتهم وأصبح العداء مع مصر جلياً، ووصلت الأمور إلى حربٍ غير معلنةٍ وقف فيها الإنجليز وإسرائيل إلى جانب المملكة والإمام. كانت المملكة مرتعبةً من انتصار

الجمهوريين وتمدّد التيار القوميّ العربيّ إلى أراضيها. هكذا قرّر الملك فيصل، وحسب وثائق أُعلنت، قرّر الاستنجاد بواشنطن لتؤلب إسرائيل على مهاجمة مصر. في 27 ديسمبر 1966 أرسل الملك إلى الرئيس ليندون جونسون حسب وثيقة لمجلس الوزراء السعودي رقم 342 ما يلي: من كلّ ما تقدم يا فخامة الرئيس ومما عرضناه بإيجازٍ يتبيّن لكم أن مصر هي العدو الأكبر لنا جميعاً، وأن هذا العدو إن تُرك يحرّض ويدعم الأعداء عسكرياً وإعلامياً فلن يأتي عام 1970 وعرشنا ومصالحنا لا زال في الوجود. لذلك، فإنني أبارك ما سبق للخبراء الأمريكيين في مملكتنا أن اقترحوه لأتقدم بالاقتراحات التالية: أن تقوم أميركا بدعم إسرائيل في هجوم خاطف على مصر تستولي به على أهم الأماكن الحيوية في مصر، لتضطرها بذلك لا لسحب جيشها صاغرة من اليمن فقط، بل لإشغال مصر بإسرائيل عنّا لمدةٍ طويلة لن يرفع بعدها أيّ مصريٍّ رأسه خلف القناة.

هكذا حدثت حرب 1967، بينما كان جمال عبد الناصر يناور لسحبٍ متوافقٍ لكلٍّ من القوات المصرية والسعودية من اليمن. حدثت النكسة الكارثيّة واحتلت بقية فلسطين وأراضٍ مصريةً وسورية وأردنية، واجتمع العرب في قمّة الخرطوم وتصالحوا وانسحبت القوات المصرية والسعودية من اليمن، وتضامن العرب حتى أنجزوا حرب أكتوبر 1973، ومنع الملك فيصل تصدير النفط للتأثير على الغرب. ارتفعت أسعار النفط بشكلٍ جنونيٍّ أحدث لاحقاً طفرةً اقتصاديةً وانتعاشاً مالياً لدى الدول النفطية، وفي عام 1975 تم اغتيال الملك فيصل. وكان الخاسر الأول والدائم في هذه المجريات هم الفلسطينيون وقضيتهم وحقوقهم.. وهذا ما يُجمعُ عليه معظم أبناء الشعب الفلسطيني، ومن ضمنهم صديقي زياد.

كانت القضية الفلسطينية منذ بدايتها مرتبطةً ومترابطةً مع مجريات الأحداث، فيما أصبح يُعرفُ بالوطن العربي، وكان طوال أربعة قرونٍ تحت السيادة العثمانية. ومن دون الخوض في التفاصيل، يمكن التذكير أن عدّة دول عربية تأسّست وأنظمة أقيمت كثمنٍ مباشرٍ لتأييد وسكوت على المشروع الاستعماريّ بإقامة دولة إسرائيل على حساب الأراضي والشعب الفلسطيني، الذين استشيروا ورفضوا الانصياع لرغبات بريطانيا، تمّ إقصاؤهم وتهميشهم ومحاربتهم ونفيهم، واستبدلوا بمن وافق على السكوت واستعدّ لدعم رؤية ومطالب بريطانيا لإقامة إسرائيل.. هكذا، وبعد أن كانت شبه الجزيرة العربية مجموعة إماراتٍ وسلطناتٍ، تمّ التنكّر البريطاني للشريف حسين ونفوه إلى قبرص، وأعلنت المملكة العربية السعودية عام 1932 تحت حكم الملك عبد العزيز، وها هو التاريخ يعيد ذاته، والاتفاقيات القديمة تظهر إلى العلن، وتُطبّق بعد عقود من الترويض والمراوغة.

في حديثٍ سابقٍ كثيراً لحصار قطر من أخواتها وجيرانها، قلت لزياد إنني أفهم كيف ولماذا تخون بعض الأنظمة شعوبها ومصالح القوم، لكن يعصى عليّ فهم انصياع الناس كالغنم للراعي. قال لي صديقي على الفور إنه على العكس منّي، أيّ يفهم مسبّبات الانصياع للراعي ولا يفهم أسباب الخيانة.

السبب الرئيس للخيانة هو تمسك الحاكم الظالم الفاسد بكلّ السبل للحفاظ على حكمه، وهذا يشمل التجهيل والتجويع والضغط الجسديّ بما فيه التغييب والتعذيب، وقد وعت الصهيونية العالمية منذ نهاية القرن التاسع عشر لهذا الأمر فعملت على التحكّم في مقاليد القوى الأعظم التي تؤثّر في سياسة الآخرين.. هكذا أيّ حاكمٍ ظالم فاسد يريد الاستمرار في الحكم سيحتاج إلى حماية القوة الأعظم التي هي تحت تأثير الصهيونية العالمية بتشعّباتها المالية والإعلامية والاستخبارية. كانت القوة العظمى في السابق بريطانيا، ثم أصبحت الآن أميركا، والأمر في عهد الرئيس ترامب قد وصل إلى قمةٍ في الانصياع وتسابق مع الذات لخدمة الصهيونية. كلّ حدثٍ مؤثرٍ في منطقتنا ستجده خاضعاً لهذه النظرية، لذلك، لا يريد الغرب بالفعل أية ديمقراطية إسلامية أو عربية حتى يتواصل خضوع الأنظمة، ومطالبتها بالحماية من شعبها.

رؤية صديقي لانصياع الناس كالغنم تعتمد على ومستمدة من فنّ الإغواء، فالحاكم أمهر من الساحر، ويرسل إشاراتٍ متضاربةً ويتعامل معهم كشيطانٍ وملاك، خبيثٍ وطيب، ذكيٍ وغبيّ، فيضعهم في حيرةٍ ويصنع هالةً متشابكةً من حوله فيصدّقونة ولا يتجرأون على تكذيب ما يرونه من سحرٍ بالرغم من معرفتهم أنه خداع. الحاكم يفبرك مظاهر الرغبة فيه من قبل الآخرين، يوهمهم بمصيرٍ سيءٍ من دونه، يخلق لهم المشاكل ويرشدهم للحلول، يخبرهم بأنهم غير سعداء وعليهم أخذ السعادة عبر التزمت مثلاً، ثم يجدّد الحال بالثورة على التزمّت وتقديم الرفاهية، فيكسب طاعة أجيالٍ جديدةٍ، أيّ يخلق لهم نقاط ضعفٍ ثمّ يركز عليها.. وقبل هذا وذاك يبقيهم في حالة ترقبٍ ويفاجئهم بحلولٍ غير متوقعةٍ فيحتارون في التقييم ويطيعون. بمعنى آخر، مزج المتعة مع الألم والخوف مع الاطمئنان وخلق المشاكل والتوتر ثمّ حلّها لهم، وفي كلّ الأحوال تحميل الحاكم المسئولية عن السلبيات للناس، ونسب الحلول والإيجابيات له شخصياً.

لقد عايش صديقي زياد بداية حالة التبدّل في المملكة مع تسلّم وليّ العهد لإدارة البلاد والعباد، ولكنه لم يرَ بقية الانقلاب العقائدي التكتيكي الذي يؤيد رؤيته سابقة الذكر، لو عاش ليرى فربما وقع على ظهره من شدّة الضحك والاستغراب، بل الاستهجان. شيوخٌ كانوا عماد البلاد ويرشدون العباد بالقول والفعل والزجر والحبس، كانوا يُحرّمون ويُحلّلون طوال عقود، ثم انقلبوا فجأةً مع رغبة وليّ العهد، فأصبح

بعضهم مرشداً سياحياً لمناطق كانوا يمنعون البشر من زيارتها، حسب توصيةٍ نبويةٍ -كما قالوا- وأصبحوا فجأةً يقيمون فيها حفلات الغناء والرقص والمسرح.. شيوخ يعتذرون عن فتاوى العقود السابقة وينسبونها إلى طيش شبابهم. فتاوى من حجم منع تعليم الإناث وأخرى من نوع تحريم جلوسهنّ على المقاعد التي جلس عليها ذكور، أو مسكهنّ باليد للخيار والموز، كما أصبح الغناء بين ليلةٍ وضحاها مسموحاً به، وأنشأت هيئةً لتشجيع الترفيه. هذا كله وأكثر منه لا غضاضة عليه، لكن كونه يُطرح كشيءٍ مضادٍ لما سبقه، يتوجب طرح سؤالٍ عن موقف الناس ورضاهم، هل كانوا مع العقائد السابقة ولذلك سايروها، أو طبّقوها، أم أنهم احترموها صاغرين؟ وهل هم راضون عن الانقلاب السريع من النقيض إلى النقيض الآن، أم يكفرون به في السرّ ويهلّلون له لإرضاء الحاكم؟

الناس كذلك، وهكذا سيبقون، وليس في المملكة فقط. لقد كان الشعب الألمانيّ يحترم ويطبّق الديمقراطية التي أوصلت هتلر للحكم، ثم تقبّلوا رؤية الزعيم وعادوْا العالم وحاربوه لإرضاء الفوهرر، والتزموا برؤيته المدمّرة حتى النهاية، وبعد موته انقلبوا ضد ما فعلوه من أجله، قالوا كنّا مغيّبين، لم نكن نعرف.. سلخوا جلودهم واستبدلوها بجلدٍ ناصعٍ خانع. الفرنسيون الذين تقبلوا الاحتلال النازيّ، الطليان الذين ساروا خلف دكتاتورهم إلى أدغال أفريقيا ثمّ علّقوه من عرقوبه معلّقين معه أخطاءهم كلها، ومعترفين ضمنياً أنهم كانوا قطيعاً.. الأمثلة لا تنقطع وربما آخرها الشعب الأمريكي الذي انتخب نصفُه رئيساً مريضاً نفسياً مثل ترامب حسب تقارير خبراء تتجدد كلّ وهلة، وعلى الأرجح أنهم سينتخبونه مرةً أخرى.. وهكذا كان قياصرة روما وناسها ينصاعون للقيصر، ثم في ثوانٍ يهلّلون لنقيضه الذي استولى على الحكم بقتل سابقه. إذا عرفت كيف تتجاوب مع غرائز الناس، سيكون بوسعك توجيههم حيث تريد.

حين تهبّ رياح التغيير، أو حين يفشل الحاكم في التجاوب مع غرائز المحكومين، مثل توفير الطعام لهم، وكثرة التدخّل في الشأن الخاص، وقمع الرغبات العلنيّة والخفيّة، وبالتالي تململ الناس وثورتهم مُطالبين بعزل الحاكم ومحاكمة نظامه وأسلوبه، يُشهر حينها الحاكم أدوات القمع المحليّ، ويتدخّل كلّ من يتخوّف أن تصله رياح التغيير المُعْدِية لإخماد الثورة وإفشالها. هذا ما حدث حين تدخّلت الدول الملكية الغنية ضد ثورات الربيع العربيّ في الدول الجمهورية. سلّحوا قوى المعارضة الدينية وخلقوا الجديد منها ودفعوا الناس للاقتتال وتخريب البلاد ذاتياً من أجل تخويف شعوبهم من مثل هذه الثورات واسترضائهم بالتجاوب الإضافي مع غرائزهم.

لقد تناقشتُ كثيراً مع صديقي في مواكبة الربيع العربيّ حيناً بالعاطفة وأحياناً بالعقل، وكانت الأمور تتّضح لنا تدريجياً حتى اكتملت الصورة بالألوان، كما ظننا. لم نكن على توافقٍ مائة بالمائة، خصوصاً في تحديد الدول التي أساءت التصرّف وموّلت وحرّضت وتسبّبت في تحويل الربيع إلى حروب أهلية وصراعات مسلّحة. اتفقنا على كون الجهل بأنواعه هو السبب الرئيس خلف ما حصل، وهذا الجهل كنّا نراه أشكالاً وألواناً: بسيطاً، ومركباً، وعميقاً لدى الأفراد والجماعات والأنظمة والحكّام في المنطقة على أنواعهم. اتفقنا على أن أنانية الحكّام وطمعهم يُشكّل طرازاً ضليعاً من الجهل، فلو اقتنعوا بالقليل من المال المنهوب وجبروت السلطة ووزّعوا الباقي ورحموا الناس قليلاً لطال عمر أنظمتهم، ونعموا بما سرقوا لفترة أطول، لكنّ الطمع الجاهل قطع آخر شعرة تربطهم مع البسطاء المُجهّلين، والطمع الجاهل هو الذي أخافهم على مصيرهم لو فقدوا السلطة، خافوا من المحاسبة، وكان بوسعهم أن يقلّدوا زعماء ماتوا دون توريث ثروة ولكنهم كانوا -وما زالوا- محبوبين.. الطمع يؤدي إلى تعميق الجهل الذي لا طريق أو مصير له سوى الدمار الذاتي.

المشكلة أن الجاهل لا يعرف ولا يصدّق أنه جاهل، كان زياد يقول، وكنت أضيف أن هذا هو قمة الجهل، خصوصاً إذا ظنّ الإنسان أنه أبو العرّيف. إنّ غالبية العرب على اختلاف مواقعهم وعلمهم وعملهم، يظنّون أن بوسعهم تأدية وظيفة الزعيم خيراً من الزعيم ذاته، وربما كان معظم أولئك على صواب، ولكنهم –بالطبع- غير مؤهّلين للمنصب، فلو كان الزعيم جاهلاً بنسبة 51 بالمائة وأبو العرّيف جاهلاً بنسبة 50 بالمائة فهو أفضل، ولكنه غير مؤهل هو الآخر، وسيجنّد من حوله من هم أتعس منه وأسرق وأجهل. الحاكم الجاهل لا يريد لمن حوله أن يكونوا أفهم منه حتى لا يرى الاحتقار في عيونهم، والجهلة المختارون له لا يريدون لعموم الشعب أن يعرف ويتعرّف ويتعلّم حتى لا يُزاحوا مع زعيمهم، ولهذا فلا باس من استعانة الزعيم بالأجانب ليحموه وينصحوه كيف يسيّر شؤونه، وهؤلاء مصلحتهم الأولى هي تحقيق المكاسب لبلادهم عبر استمرار الجهل العميق.

الزعيم القدير الملهم المطّلع لن يستطيع –كشخص- أن يقود أمّةً من الجهلاء إلى ما فيه الخير أو النصر. لو عثرنا على أفضل زعيم قاد أمّته للخير والنصر ونصّبناه زعيماً على أيٍّ من بلداننا فلن ينجح، ولسوف نُفشله وندخله إلى عالم الجهل والغيبيات والدروشة حتى يتمكن من التعامل معنا. قلت هذا لزياد فرد على الفور: لن ينجح إلا إذا كان نبياً.. فقاطعته فوراً: أتظن أن أحداً من أنبياء الله قد نجح في مهمته؟ سكتنا وسرح كلٌّ منّا مع أفكاره، ثم استكملنا النقاش في تفرعٍ آخر. لقد فكّرت -في سرّي- أنّ كلّ الأنبياء فشلوا في إقناع الناس وتغيير حالهم، ولو كان أيّ منهم قد نجح

في مهمته لما كنّا على هذا الحال، حيث منطقتنا هي منبع الديانات الثلاثة الرئيسة، ولكنها في قعر جداول المناطق السعيدة والمتقدمة.

في السياسة

في ذات رحلةٍ إلى غور الأردن تلبيةً لدعوةٍ من معارف صديقٍ لزياد، تحدّثنا في طريق الذهاب والإياب عن الأوضاع الفلسطينية، طالما أننا على مشارف البلاد، وسأل أحدهم زياد إذا كان قد زار فلسطين بعد نكسة 1967، فقال: نعم، وجاء السؤال الآخر عن انطباعاته. تأثّر وارتفع صوته مادحاً أنها أجمل بقاع الأرض، ثم ارتفع صوته أعلى موبّخاً كلّ الذين تركوها وهاجروا إثر النكبة، وكان رأيه أن الموت هناك وحينذاك كان أشرف وأفضل. أنا أيضاً من أصحاب هذا الرأي، وكتبتُ مراراً في الاعلام وطالبتُ بضرورة أن يعود الذين هاجروا: كما هاجرتم عودوا. بمعنى سلمياً رافعين الأيدي حاملين حاجاتهم على الأكتاف، تماماً كما خرجوا خوفاً من الحرب والموت التي وضعت أوزارها. وكتبتُ في العلن في فتراتٍ لاحقةٍ أن الحياة لعرب فلسطين الإسرائيليين الذين صمدوا في وطنهم، أفضل من حياة إخوتهم في الضفة والقطاع تحت حكم حركتي فتح وحماس.

لم أكرّر ذلك الرأي والقول في تلك الرحلة، ولكني فكرت في الأسباب التي تدفع بمليونير لتمنّي أن يكون أهله قد ماتوا قبل خروجهم من بلادهم، وهو الذي يعيش في بلاد تحترمه، ومتجنّس من بلاد أجنبية ديمقراطية، ولم يولد أصلاً قبل النكبة، ولا يعرف شخصياً بلده الأصلي، ولا ذكريات صبا له فيها. لقد عشنا طفولتنا نستمع للاهل وما كانوا عليه قبل النكبة، ونعايش ما أصبحنا عليه بعدها. جيلنا والجيل الذي تبعنا تحلى بالاقدام من شدة البؤس واليأس، ولم نستوعب سهولة هجرة أهلنا مهما كانت معاناتهم وخوفهم، فنحن أصبحنا على استعداد تام للموت في سبيل العودة، وبالطبع لم نفهم مصوغات الهروب من الموت والوطن الذي تصورناه جنة الله على الارض من جمال وخير وكرامة وحرية وحب وفرح ومرح وغير ذلك من الجماليات المفقودة طوال حياتنا. الان وبعد جيل الفدائيين والانتفاضيين وصلنا الى وضع أصبح الكثير يتمنى ان يهاجر طوعاً من بقية فلسطين.. قد لا يكون طوعاً تماماً ولكن بتأثير من تفوق السياسات الاسرائيلية والخطط بعيدة المدي التي أوصلت الجيل الجديد للعدم أقتصادياً وسياسياً.

قبل الوصول إلى المزرعة مررنا بنقطة حراسةٍ عسكرية، وكان الجنود يعرفون صاحب المزرعة وأننا مدعوون.. وقبل أن نحطّ الرحال استجبنا لاقتراح أن نتحرّك بالسيارات لبضعة عشرات من الأمتار لنصل إلى النهر. كانت المنطقة مليئةً بالعشب بين أشجار الحمضيات، فلم نرَ بقيّة الماء في قعر النهر، رميّنا بحجارةٍ إلى أعلى فهبطت، واسمعتنا لصوت الماء. عُدنا إلى الجلوس فوق حشائش قُصّت للتوّ، ووضع

اللحم والرزّ في برميل الزرب تحت النار، وانشغلنا في أحاديث عامّةٍ كون الحضور لا يعرفون بعضهم بما يؤهل لأحاديث خاصّة. اقترح أحد المضيفين أن نطلق النار باتجاه الغرب، وقال إن جيشنا وجيشهم يعرفون بإمكانية إطلاق النار هنا، خصوصاً مع وجود خنازير بريّة هاربة أو مرسلة من الضفة الأخرى، وتجوب المنطقة. أطلق الرجل عدّة طلقاتٍ وطلب من زياد تقليده. كنت أعرف أن زياد لا يحب استعمال السلاح، وقد تمنّع مراراً عن إطلاق النار في ظروفٍ أخرى، لكنّ المضيف أصرّ ووضع السلاح في يده، وكان في وضعٍ أوتوماتيكيّ. ضغط زياد الزناد تحت إلحاح الرجل، فتمايل السلاح في يده مُطلقاً طلقاتٍ متتالية، فدعمه المُضيف ومرّت التجربة بسلام. العلاقة بين زياد والسلاح مقطوعةٌ، وقد أخبرني في مناسبةٍ سابقةٍ أنّ والده قد أخذه وهو صغير مع إخوته إلى الشام ليتدرّبوا على السلاح، لكن الأمر لم يتمّ حسب الطلب. في مزرعة الغور تناولنا ما تيسّر من الزرب، ثم صنع المضيف كنافةً على نار الحطب، وعادت الأحاديث العامة السلسة حتى طلب البعض دعماً مالياً لنادٍ رياضيٍ محليٍّ، وحظي بتأييد من بقية المعزّبين، الذين ظهر أنهم كلهم أعضاء وموظفون في النادي. ظهرت الحيرة جلية على وجه زياد، واستنجد بي عبر النظرات، فهو لا يريد التبرع لنشاط كهذا، وأصبح مُحرجاً عن الرفض أو تقديم شيء بسيطٍ لا يتناسب وكرم الضيافة الذي حفينا به. فقلت إن زياد اهتمامه بالرياضة وكرة القدم تحديداً صفر مركز، وبرنامج الدعم عنده منظّم ومنصبّ على شؤونٍ اجتماعيةٍ وجمعياتٍ تعتمد على ما يصلها لإنجاز عملها، ثم أضفت على الفور أن بعض أصدقائه الميسورين لديهم اهتمام بالرياضة، وسوف يحكي لهم عن ناديكم. لم أشعر بتأييد زياد لما قلت، فهو لا يشجّع حتى على الكذب الأبيض، ولكنه صمت، ونقلنا الحديث إلى شأنٍ آخر، ولم نوجه اللوم لاحقاً للصديق المشترك الذي تسبّب في هذه الدعوة والإحراج.

في السبعينيات من القرن الماضي كانت معسكرات التدريب لمنظمة التحرير وفصائلها متوفرةً في سوريا، وكان الكثير من الفلسطينيين يذهبون مع عائلاتهم في الإجازة إلى هناك، ويضعون الأبناء في المعسكرات للتدريب. مع نهاية ذلك القرن وبعد وحدة الشعب في ظلّ الانتفاضة الأولى وما تلاها من اتفاقيات أوسلو وتنكيل إسرائيل بها، آلت الأوضاع إلى اختلافٍ واختلالٍ في القيادات والأطر الفلسطينية إلى درجةٍ استعجب منها الصديق والعدوّ. كلما تحدّثت مع زياد عن السياسة الفلسطينية كنّا نتفق على سوء تدبير فتح وحماس، ولكنه لو أجبر على التأييد لاختار حماس. لكنّ أحاديثنا كانت أعمق من المناقرة حول من هو الأشد سوءً وضرراً. موقفي الثابت أن العسكر أفشل من أن يديروا بلاداً في أجواء سلم، وأن الواجب تنحيتهم وتكريمهم.. من يعطي الأوامر بسهولة وبيسر لقتل عدو أو ابن بلدٍ معارضٍ لا يمكن استئمانه

على مصير الناس. اليهود عرفوا هذه الحقيقة وطبّقوها في نظامهم، وطبّقوا العكس لدينا، حين وافقوا على ترئيس القيادات العسكرية الفلسطينية لمرحلة السلام.. هم أصلاً قالوا إن تنصيب هذه القيادات هدفه تأديب الفئات الرافضة للتنازل، أيّ فعل ما لا يريدون هم فعله بالشعب الفلسطيني.. وبعدما أعلنت الحركة الإسلامية في فلسطين عن ذاتها كحركة مقاومةٍ مواكبةٍ للانتفاضة، وفازت بقبولٍ شعبيٍّ لتبنيها التفجيرات الشديدة في المدن الإسرائيلية، ارتقت إلى مصافّ القيادات العسكرية، ثم انسحبت إسرائيل من قطاع غزة وتركته لحماس العسكرية، وفرضت العقاب على الشعب بينما تمسّك القادة بالزعامة والانشقاق، فأصبحوا صورةً طبق الأصل عن حركة فتح في الضفة، وكلاهما يتميّز بسمات الحاكم العربيّ.

لماذا لا يثور شعبنا هو الآخر ضد القيادة التي توغّلت في الفساد والعجز والشقاق والفشل؟ طرحنا هذا السؤال على أنفسنا مراراً وتكراراً، وكنّا كلّ مرةٍ نتعرّف على أسبابٍ إضافيةٍ للقنوط. من عشرات الأسباب أن إسرائيل نجحت في التغلغل والتأثير على مجريات العقل الفلسطيني الذي أصبح مقتنعاً أن العنف والقتال ولعلعة الرصاص هو الطريق الوحيد.. وهذا الطريق المحبّ للعنف والمستجيب له، هو سبيل النجاح لإسرائيل في كسب العالم، أو على الأقل ابتزاز المؤثّرين فيه. اقتنع الشعب الفلسطيني أنه شُرّد من أرضه بالقوة ولا سبيل للعودة إلا بالقوة، فطالما إسرائيل نجحت في ذلك الأسلوب فهو ناجح. لا يراعي العقل الفلسطيني أننا لا نملك سبل القوّة التي تسيطر عليها إسرائيل، نحسب ونطرح ونضع في حساباتنا قوّة العرب واقتصادهم وننسى أن إسرائيل تهيمن على أصحاب القرار في العالم، وبالتالي على العرب الذين هم أعجز في الأصل من الدفاع عن حدودهم، لديهم قوات قمعٍ داخليٍّ ولكن فشل عسكري عبر الحدود لأنهم لم يهتمّوا ببناء تلك القوة والاستراتيجيات. هكذا.. وكلما تأكّد الفشل العسكري الفلسطيني عن تحقيق أهدافه، يظهر مقاومٌ جديدٌ فيفجّر مرة ويكسب التأييد ثم ينام، ويأتي راجم صواريخ فيرجم ويتمركز في موقع السيطرة ثم يهادن، تماماً كما فعلت فصائل منظمة التحرير قبل أوسلو.. هكذا يكفّ الناس عن طلب الانتفاض ضد العسكر المحليين كونهم عنوان الوطنية ضد العدو، وهذا يأخذنا إلى سببٍ آخر لقنوط الشعب، وهو الخجل من الاعتراف أن طريق العسكر ولعلعة الرصاص قد فشل، وهو في الواقع طريقٌ لم نسر فيه على أصوله، ولم نستفد من تكتيكاته.

طرفا المعادلة الحليفان المتخاصمان لهما أنصارهما ودبّيكة وقبّيضة ومرتبطون مصلحياً، وبالتالي المصلحة الذاتية للبعض تُعيق الثورة على القيادة، وخوف الأغلبية الباقية من تطوّر أية ثورة إلى حربٍ أهلية، كما في بلدان الربيع العربي، تزيد الدمار وشماتة الصديق والعدو فينا، ولذلك لا ثورة على الثوار المسلحين الذين أسهل ما

عليهم تخوين أيّ معارض. رغم كل سلبيات حلّ أوسلو إلا أنه أوصلنا إلى بداية طريق الديمقراطية، بفرض الانتخابات البرلمانية والرئاسية التي كانت ستمكّن الشعب من تحديد خياراته، لكنّ القادة الثوار المتخاصمين سرقوا ذلك الإنجاز، أو بالأحرى سخّروه لصالحهم في البداية ثمّ تربّعوا ورفضوا الاستمرار في التطبيق، وكلٌّ منهم يلوم الآخر.. لماذا فعلوا ذلك؟ لأنهم فشلوا في الحكم، وتخوّفوا أن يستبدلهم الشعب عبر ديمومة الانتخابات، فقاموا بالمسرحيات، وادعوْا المبررات السياسية المتناقضة ليتثبتوا.. هذه هي النتيجة والحقيقة المفترض ألا يختلف عليها أشباه العقلاء. عدونا قوي وذكي، هذه حقيقة، لكن قياداتنا على الدوام متخلفة وهي من أهم أسباب البلاء، وتمسكها بالكرسي مُشين.. هل يعقل ان لا يتنازل أي مختار، شيخ قبيلة، زعيم حزب او حركة، قائد سياسي أو عسكري، رئيس عن المنصب الا بالقتل او الموت، هذا بالرغم من انجازات الفشل المتلاحق؟ هذا الحال يغيب التغيير ويخلق النفاق ويولد الغش والكذب والفساد، ويتسبب في الظلم والفوضى والجهل والهزائم، خصوصاً وان عدونا يستبدل ويجدد قياداته تباعاً ويقفز قفزاً الى أهدافه.

هكذا بدل أن يثور الشعب على الثوار سقط إيمانه بهم، وتركهم لخالقهم، وبحث عن الستر، وانتظر المعجزة، وآخرون يسعون جاهدين لترك البلاد، ذلك هو الهدف الأسمى عند الجيل الجديد، هجرةٌ للعمل في الدول العربية، أو مهاجرة إلى الدول الغربية، وهذا ما خطّطت له الصهيونية التي تعمل بنَفَسٍ طويل وضمن تشعّباتٍ نكتشفها تباعاً.

في هذا الصدد، قلت لزياد ذات نقاش، ماذا لو نُفذ استطلاع رأيٍ بين الفلسطينيين يسألهم عن الحكم الذي يُفضّلونه في ظلّ الظروف الحالية، وعلى ضوء تجربتهم في السنوات القليلة الماضية.. ضحك وقال إنه يعرف بماذا سيجيب في الاستفتاء، ولكن لن يسأل أحداً أو يستطلع رأي الفلسطيني.

في فعلِ الخير

حان موعد صلاة الجمعة ونحن نمرّ عبر قريةٍ أردنيةٍ صغيرةٍ، وكانت سيارات المصلّين قد توقّفت وكأن سائقيها لم يتلقّوا أيّ تدريبٍ على القيادة. أغمضتُ عينيّ واستُبدِلتْ في ذهني السيارات بحميرٍ متعدّدة الألوان والأحجام، فاتضحت الصورة وبدا أنّ كلّ راكبٍ قد ترك حماره يرعى على سجيّته تحت الحماية الربانية، وأسرع إلى الصلاة. أوقفتُ السيارة وقلتُ لصديقي: الأفضل أن تُصلي هنا فلن تلحق الصلاة في الجامع الذي أعرفه. في انتظاره تذكرتُ آخر مرةٍ شاهدتُ فيها صديقي يسامر أصدقاءه حول طاولةٍ في مجلسه. كنت أعرف –بالتقريب- حجم أموال زياد المجمّدة في شركاته وأصوله العقارية، ومقدار التسهيلات البنكية الممنوحة له، وكان أثناء أحاديثنا المتفرّقة قد أخبرني من الذي يملك مالاً أكثر منه، ومن الذي يعادله من أولئك الأصدقاء. هكذا جلستُ أنتظره في السيارة وأخذتُ أتذكر وأحسب وأجمع، فتوصلت إلى تقدير ملياريّ دولار تقريباً حجم ما يتحكّم به الأصدقاء الأربعة الذين التفّوا حول الطاولة، ولديهم صديقٌ آخر أعرفه يملك مجموع ما لديهم سوياً، وربما أكثر، ولكنه منشغلٌ بجمع المال ولا وقت لديه لمجالستهم وللمسامرة.

عاد صديقي من الصلاة منشرحاً بشوشاً. سألته: يبدو أن الوضع أعجبك في هذا الجامع. ضحك وقال إنه لم يجد مكاناً يصلي فيه إلا بجانب الصرامي، وأضاف أن الإمام شخص ممتاز وركزّ كل الخطبة في حثّ المصلّين على وصل الأرحام، وعدّد لهم الفوائد، وطالبهم على الأقل باستغلال حزم الهاتف المجانيّة غير المحدودة ليحادثوا أرحامهم. أنصتُّ إليه وهو يلخّص لي الخطبة، ويضحك من قلبه وهو يقلّد الإمام وإصراره على استغلال حزم الهاتف، وتسمية مزايا حزم كلّ شركة اتصالات، حتى لا يترك أمام المستمعين أيّ عذر.. طاف على مخيّلتي صورة جامعين بناهما زياد في الدوحة، ولم يكن هو الذي أخبرني عنهما. تذكّرت أيضاً رحلةً سابقةً لنا بالقرب من الحدود الأردنية السورية ونقص علينا الماء، فتوقفنا بجانب غرفةٍ مربعة الشكل سميكة الجدران من الحجارة السوداء كُتب عليها "مسجد الرحمن". دخلنا وشربنا من إبريقٍ فخّاريٍ واسترحنا قليلاً من الحرّ بانتظار حضور أيّ شخصٍ، ولكن دون جدوى، فوضع زياد يده في جيبه ووضعها تحت سجادة الصلاة الأماميةً وغادرنا.

يُعتبر زياد من المدرسة القديمة في فعل الخير، وهو يشبه والدي -رحمهما الله- في بعض تصرفاته. كان الوالد مثلاً في الأعياد يضع يده في جيبه ويُعطي من وجب عليه إعطاؤهم، وأيضاً يُعطي آخرين كنتُ وأنا صغير أظنهم ليسوا بحاجة. سألتُ والدي

ذات عيدٍ: لماذا تعطي فلان وهو ميسور؟ فنظر إليّ وقال: لا تغرّنك المظاهر، وعليك دوماً التعمّق ومساعدة المستورين، لأن الشحاذين والفقراء لهم طرقهم، أما المستورون فهم الأكثر معاناة وبصمت. أعرف القليل عن أفعال الخير التي كان زياد يمارسها، وجاءت المعرفة بالصدفة. طلب مني ذات مرةٍ البحث في إمكانية إقامة معهدٍ تعليميٍّ تدريبيٍ للمهن في الأردن، بشرط أن يُحصل الرسوم من القادرين ويُراعي الفقراء الجادّين، وقال إنه بذلك يقلد عملاً آخر مطابقاً قام به في لبنان وخصّص ريعه لصالح المخيّمات الفلسطينية، أيّ جعله وقفاً. لكنّ التعقيدات في الأردن كانت كثيرةً فطُويت الفكرة ولم تُنفذ. أعرف أيضاً أنه دعم تعليم الكثير من الطلاب في جامعات غزة، بحيث يدفع لهم الرسوم الجامعيّة فقط، وذلك حسب فلسفة اتبعها زياد في حياته الاقتصادية، إذ لا يُقدّم المنح حتى لا تتحوّل إلى صدقاتٍ مهدورة، ولكن مساعدة من يريد أن يساعد ذاته. كما أنه تبنّى إعادة تأهيل بعض الأمور في بيت لاهيا، قرية عائلته في شمال قطاع غزة. لكنّي كنت أعرف أيضاً، بدون يقين، أنه لا يموّل أيّ عملٍ وطنيّ شامل، فمثل هذه الأمور تُخيف أصحاب رؤوس المال المغتربين، كون السياسة عنصراً متقلباً متضاد، خصوصاً في ظروف منطقتنا ومهارة خصومنا وأعدائنا.

كلّ الأغنياء العصاميين تقريباً يؤمّنون عائلاتهم في أقرب فرصةٍ وبالتدريج تحسباً قدر الإمكان للزمن.. ومن ثمّ، يزيدون الاستثمار في العمل ذاته لتأمينه وتوسيعه، وبعد فيض الأرباح يتبرّعون لفعل الخير الذي يُخصمُ من الضرائب في العالم الرأسمالي، ويُحسب من ضمن أموال الزكاة عند المسلمين. مثلاً تبرّع الملياردير، صاحب شركة أمازون، العصاميّ الذي صعد من الصفر إلى المرتبة الأولى بين أثرياء العالم، تبرّع بملياريّ دولار من أصل ثروته المقدّرة 164مليار لصالح جمعياتٍ ترعى المشرّدين والأسر الفقيرة، وتدعم المدارس في المجتمعات المحتاجة. ورغم ضخامة المبلغ الذي أعلن الرجل التبرع به، إلا أنه أقلّ كثيراً من تبرعاتٍ قدّمها ملياردیرات عصاميون آخرون مثل بيل غيتس مؤسس شركة ميكروسوفت، الذي تبرّع بعشرات المليارات من ثروته لمؤسسته الخيرية النشطة عبر العالم، ومارك زوكربرغ رئيس فيسبوك الذي تعهد بالتبرع بـ99 في المائة من أسهمه في عملاق التواصل الاجتماعي لصالح منظّمةٍ تسعى لرعاية المجتمع. كما يقلّ مبلغ الملياريّ دولار عن مبادرة التعهّد بالعطاء التي أطلقها بيل غيتس والمستثمر الملياردير الأمريكي وارن بافيت، التي تشجّع أثرياء العالم على التبرّع بنصف ثرواتهم لصالح الأعمال الخيرية.

ذكرتُ ذلك لصديقي تمهيداً لفكرةٍ أردت طرحها، ولكنّي استكملتُ الحديث بالقول إن العصاميين يختلفون في طبيعتهم عن الأثرياء التقليديين الذين ورثوا أموالهم

وأملاكهم أباً عن جدّ، والذين هم –بطبعهم- حريصون ولهم ارتباطاتٌ سياسيةٌ تمكّنهم من مواصلة أعمالهم وضمان مصالحهم. الكثير من هذا النوع يهودٌ صهاينةٌ يعملون بأسلوب الأخطبوط، يسيطرون على مفاصل اقتصاد الأمم، ويتحكّمون في الإعلام الذي يحتاجه السياسيون للحفاظ على مراكزهم، فيقعون في الشبكة، والتقليديون يملكون مصانع وتجارة الأسلحة ليمتصّوا أموال المنكوبين عبر إشعال الحروب بواسطة رجال السياسة والحكم المرتبطين بهم. كان زياد فطِناً لمّاحاً كما أنه يسهل عليه قراءتي، فقال: هات من الآخر.

قضيتنا عادلةٌ ولها أنصارٌ عبر العالم، لكنّ التأثير الإسرائيلي المنظّم آخذ في التوسّع، خصوصاً مع سوء إدارة الصراع من قبل جماعتنا في فتح والسلطة وحماس. وبدون التورّط فيما قد يُحرجُ أيّ متبرعين أقترح الاهتمام بعمل إعلاناتٍ في كبريات الصحف العالمية لكسب التأييد وفضح السياسات الأمريكية الإسرائيلية في ظروفٍ محدّدةٍ، وهذا حقٌ مشروعٌ في العالم الغربيّ، وهو طريقٌ قانونيٌّ ومختصر، ورغم كلفته فهو الأرخص، ويمكن القيام به حسب الحاجة وبما تيسّر من دعمٍ ماليّ. شرحت لصديقي أن المزايا كثيرة، فيمكن تكليف أهل اختصاصٍ لكتابة الإعلانات ومحاسبتهم بناءً على فواتير وميزانياتٍ مسبقة، ويمكن أن نسترشد بآراء من يشارك في الدفع إذا أرادوا ذلك، كما يمكن طبعاً الحفاظ على سريّة المموّلين تماماً. حدثته عن مثال بسيط مؤثّر، ففي حرب إسرائيل على غزة انتشرت صور، بحثت ووجدت ما يشابهها من صور لليهود أثناء المحرقة، ومن نتائج عدوان هتلر على بريطانيا، صور تكاد تكون متطابقةً، وما كان يلزم هو نشرها مع ذكر تواريخها فقط، وجلّ الصور القديمة تعشّش في الذاكرة الأوروبية. توسّعت في التفاصيل حتى اقترح زياد عليّ أن أصيغ ما هو مناسب في رسالة واتس آب أرسلها منّي إليه، وهو يحوّلها لمن يتوخّى منهم خيراً، ولكن تعابير وجهه أوحت بعدم الجدوى، وهذا ما كان بالفعل. للأسف الشديد أن الغالبية العظمى من أغنياء العرب لا يدعمون مشاريع وطنيةً أو قوميةً مشتركةً، ومعظمهم يقتصرون بأعمالهم الخيرية الانفرادية على شؤونٍ ضيّقة في الجغرافيا والانتماء، وصدقات رمضانية، ويتفنّون في التملّص من دفع الزكاة في الكميّة والنوع، بالرغم من كونها الركن الثالث في الإسلام، لكنّ شروطها الأساسية لا تنطبق على الكثير من أساليب اقتصاد وتجارة هذا العصر، مما يُسهّل على من يريد أن يتملّص متمسكاً بالنصّ مهملاً للروح.

ما دفعني لاقتراح الإعلانات، أيّ الإعلام، كونه ركنٌ رئيسيٌ في المواجهات طويلة المدى. طالما أن الشعب الفلسطيني متمسك بحقوقه رافض التنازل عنها ويتحمل المعاناة في سبيل ذلك، فهذا يعني أنه صراع طويل المدى، وبالتالي يحتاج إلى إظهار الحقّ والتذكير به بشكلٍ متتالٍ للعالم، أو للرأي العام العالمي الذي يتحكّم

في سياسات حكوماته، وحتى لا تقع هذه الحكومات والسياسات نهائياً تحت التأثير الإسرائيلي الصهيوني. التراخي في كسب الرأي العام العالمي وفي ظلّ تفوّق إسرائيل العسكريّ سيؤدي لتقبّل الدول والشعوب الأخرى لنتائج الحروب التي تروّجها الصهيونية كدفاعيّة ضد الإرهاب وأنصاره، وهذا بالذات ما تسعى إسرائيل إليه: وضع الفلسطينيين في خانة الإرهابيين الرافضين للحلول، وبالتالي تقبّل العالم القضاء عليهم. بل واتهام من ينتقد إسرائيل بأنه معادٍ للساميّة شبه نازي، يريد إبادة اليهود. مثل هذه الأشياء نراها بشكل متلاحق: حملة إعلامية ضد بلد ما أو حكومتها أو زعيمها، ثم التطوّع الغربيّ، الأمريكي البريطانيّ تحديداً، لتخليص أهلها من الظلم والدكتاتورية ونشر الحرية عبر احتلال بلادهم ونهبها وتركها خراباً. لا توجد أية حرب في سنوات ما بعد العالمية الثانية إلا وسبقها التمهيد الإعلامي الذي يؤثّر على الرأي العام.. وبالطبع العكس صحيح لو أحسن الفلسطينيون تسخير الإعلام مع المقاومة ضد الاحتلال العنصريّ. وحتى نصل للرأي العام عبر أسهل الطرق نلجأ للإعلان المدفوع ثمنه من قبل الأثرياء في كبريات الصحف والوسائل الأخرى. لقد اعتمد الإعلام الفلسطيني في الماضي على العمل المسلّح المعزّز ببيانات توضيحٍ مضادةٍ للاحتلال والعنصرية، لكنّ الظروف تغيّرت، إذ انتهت المقاومة المسلّحة وسوّدت صفحاتها ونسبت إلى الإرهاب، وبالتالي، لا ضرر من الشرح الإعلاني.

من الحقائق العديدة المغيّبة عن النقاش أنّ الشتات اليهودي كجمهورٍ لم يمارس أيٍ دورٍ يُذكر في خلق إسرائيل، كانوا أداةً تمّ تسخيرها، لكنّ التخطيط والفعل قام به الأثرياء اليهود.. هكذا يمكننا أن نفترض سهولة انقياد وطاعة اليهود على الدوام لأنبيائهم وملوكهم وأغنيائهم وقادتهم، أيّ لديهم حسٌّ جماعيٌّ. في الحالة الفلسطينية كان ولا زال يتمّ العكس تماماً.

بالعودة لشأن الإعلام يمكن القول: أصبح الإعلام الفلسطيني والعربيّ عموماً موجهاً إلى الذات، بل إلى تثبيت أدوات الحكم القائمة في كلّ بلدٍ بما فيها فلسطين. ومنذ ما قبل نكبة فلسطين والإعلام العربيّ موسميٌّ يركز على المبالغة في الخسائر لزيادة حجم الإجرام الإسرائيلي. هذا الأسلوب ساهم في تهجير الفلسطينيين المرتعبين مما سمعوا، ولم يعدْ هذا النهج مقبولاً ويناسب العالم المتقدّم حيث تسيطر "إسرائيل" إعلامياً وسياسياً، بل إنّ قضايا إنسانية بحتةً من حجم مجاعاتٍ وإباداتٍ حربيةٍ أو جرثوميةٍ لم تعدْ تحرّك العالم إذا لم يوجد من يتبنّاها. حتى محطّات التلفزة العربية التي تبثّ بالإنجليزية أو لديها ساعاتٌ إخباريةٌ بالإنجليزية فهي محطات غير مرئية خارج الشرق الأوسط، ولا تحاكي طبيعة وطباع المواطن العالميّ في الغرب حتى لو صدف وشاهدها. وهناك فارقٌ بين أن تملك بعض وسائل الإعلام الغربية في عقر دارها وتؤثّر بأساليب أخرى على بقيّتها، وبين بثّ ساعات أخبار إنجليزي بلكنةٍ غير

مفهومةٍ إلى منطقةٍ خارج النطاق الجغرافي المستهدف. الكارثة أنّ بعض المحطّات العربية واسعة الانتشار تبثّ الإعلام المتصهين على شعوب المنطقة وتمحو الهوية القومية والإسلامية تباعاً، وتُجهّل الناس عبر محتوياتها.. أفلامٌ مسيئةٌ للعرب والمسلمين بشكلٍ مباشرٍ أحياناً، وتمجّد الرؤية والثقافة المعادية، ومحتوياتٌ تمجّد الكسب الماليّ السهل، ومبدأ المراهنات والمقامرة المبطّنة، وتروّج لأرباحٍ بالملايين وكسب سياراتٍ... وغير ذلك من ثقافةٍ مشوّشة.

هناك إشارات تحلّلٍ وانهيارٍ يمكن تفاديها إذا تنبّهت الأمم المصابة وتحركت في الاتجاه المضاد قبل فوات الأوان. منذ خمسة آلاف سنةٍ والمنطقة تشهد هذا الاستبدال الحضاريّ وابتلاع الحضارة القويّة لما سبقها ومحو ماهيتها وعناصرها من دينٍ ولغةٍ وعادات. لم تكن الحضارة السومرية هي الأولى ولكنها اخترعت الكتابة منذ 5500 عام، ثم عايشتها وطوتها الحضارة الفرعونية، التي بدأت تفرض ذاتها منذ 5100 عام. في مناطق أخرى من العالم ظهرت الحضارة الصينيّة ثم الهندية وبقيت بعيدةً في جغرافيتها وتأثيرها على منطقتنا التي أصيبت بزحف الحضارة اليونانية، ثم تبعتها الرومانية التي احتلت حوض البحر المتوسط، وقارعت الحضارة الفارسيّة، وكان العرب آنذاك يشتغلون حراسّ حدود مرتزقةً لصالح الفرس والرومان، حتى جاءت الحضارة الإسلامية لتكسر شوكة الحضارتين. سيطرت الحضارة الإسلامية وأثّرت في المجال الأوروبي طوال 500 عام، وعادت كفّة الميزان تتعادل ثم تميل إلى صالح الحضارة الأوروبية في كل المجالات.

في القرن الأخير، وقد أصبحت التغيّرات سريعةً جداً ومعتمدةً على العلم، دخلت القوّة الأمريكية الفظّة، التي وقعت بسرعة تحت السيطرة اليهودية الإسرائيلية طوال نصف القرن المنصرم.. دخلت القوة الأمريكية على خط الهيمنة في المنطقة، ومسح آثار الحضارة العربية الإسلامية. إسرائيل أصبحت المهيّمنة سياسياً وعسكرياً، والإسلام يُنظرُ إليه كدين إرهاب، واللغة العربية تتراجع بشكلٍ سريعٍ بين أهلها إلى صالح الإنجليزية، التي أصبحت ضروريةً للجميع.. ناهيك عن تقليد العادات الغربية واستعمال صناعاتهم، وتحوّل العربُ تدريجياً إلى كيانٍ هُلاميٍ على صعيد علمي وعسكري وسياسي وبشريّ، يجيد الاستهلاك ومنعدم المسئولية.

عن المؤامرات

"أراكَ تتحدث كثيراً هذه الأيام عن الكهرباء".. قال زياد، وكنت بالفعل قد تَطرقتُ لزيادة الأسعار على الناس ضمن نظام غير منطقي، بمعنى كلما زاد الاستهلاك يرتفعُ سعر الكيلو بدل أن يقل السعر كلما زادت الكمية، لأن نسبة ربح الشركة ترتفع، كما تحدثت عن تمديد خطوط كهرباء بين دول الشرق الأوسط بما فيها إسرائيل، وتَذكرنا أهلنا في غزة المحرومين من الكهرباء برغم من سرقة غاز فلسطين سواء المحتلة عام 1948، أو لاحقاً بمن فيها شواطئ قطاع غزة. وأظهرت استغرابي أن الأردن مثلاً يفكر في عمل مفاعل نووي لإنتاج الطاقة بدل أن ينتجوها مجاناً من الشمس الآمنة المتوفرة طوال العام ويصدروها إلى دول الجوار، أو على الأقل يدخرون المبالغ الهائلة التي يدفعونها لشراء الغاز الفلسطيني المنهوب من "إسرائيل".

قال صديقي: "لو فكرنا بهدوء فيما يجري بهذا الصدد، ماذا سنجد من معلومات، وماذا سوف نستنتج؟" قُلت: إسرائيل تَنهبُ الغاز في الأرض وفي المياه، وأصبحتْ تهدد لبنان وقبرص لاستخراج الغاز من مياهها الإقليمية، وأصبحت تبيع الغاز إلى الأردن ضمن صفقة بـ(15) مليار دولار، وكان الأردن يشتري غازه من مصر ولكن هذا تَوقف على إثر عمليات تفجير للخط في سيناء، والآن تَوقف التفجير عندما صار الغاز يتحرك من مصر إلى إسرائيل ومن إسرائيل إلى الأردن.. التفت زياد إليَّ وفي ملامحهِ استهجان، فأكدتُ له ذلك حسب علمي، وأضفت أن مصرَ تبيعُ غازها رخيصاً إلى إسرائيل التي تبيعه هو أو مثيله أغلى للأردن.

"دعنا نفتش عن أسماء الشركات المستفيدة من هذه المتاجرة وتحديد أصحابها". قال زياد، وتواعدنا على التمحيص عبر الإنترنت ومن ثم نتبادل المعلومات، وكان صديقي يجيد الاستفادة من الإنترنت، وكثيراً ما قال: "لنسأل العم جوجل".

في صباحِ اليوم التالي، ولم أكنْ قد بحثتُ في الأمر بعد، اتصل زياد وأخذ يَمدَني بالمعلومات: شركة جني الأميركية للنفط هي التي عقدت اتفاقية الغاز كوسيط بين إسرائيل والأردن، وشعارُها مصباح علاء الدين السحري، ويَملُكها جاكوب روتشيلد، وديك شيني، وروبرت مردوخ، وكوشنر نسيب الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، وجيمس ولسي، مدير السي اي ايه السابق، ولاري سومرس، وزير خزانة أمريكي سابق ومعهم ملك البُورصة اليهودي، ميخائيل شتاين، وحكام وسفراء ووزراء أمريكان آخرون، وللشركة أخت في إسرائيل، لكن هذا الجني الأمريكي اليهودي

تولى عقد الاتفاقيات تجنباً للإحراج السياسي. قلت لزياد ما أعرفه من السابق عن قيمةِ العقد وأن ثلثه ضرائب تُحصلها حكومة إسرائيل، وبالطبع تستفيد منها في دعمِ دولةِ الاحتلال وجيشها، أي كلما استعملَ أردني الكهرباء فإنه يدفعُ لإسرائيل ثلث، وليهود أمريكا ثلثي السعر، طبعاً مخصوم منه ما تحققه الشركة الأردنية الوطنية من أرباح تشغيل.

اتضح من تَنقيبنا أن شركة شل وبريتش بتروليم تآمرتْ على الأردن وغزة في شأن النَّفطِ والغازِ، إذ كسبت وحجزت حقوق التنقيب ولم تُنقب لتسهيل عقد اتفاقية الغاز، بينما إسرائيل كانت تدمر خط الغاز المصري عبر سيناء للأردن، ثم اشتغل خط مصر إسرائيل بسعرٍ رخيص، وخط إسرائيل الأردن بسعرٍ غالٍ من خلال اتفاقية سرية مخالفة لبنود الدستور الأردني، احتجَ عليها مجلس النواب لاحقاً، وشركة جني أصبحت صاحبة حقوق التنقيب في الجولان المحتل الذي منحَ ترامب السيادة عليه لإسرائيل أخيراً، حتى لا ينازعهم أحداً على ما سَينهبُوه من تحتِ الأرض.. الجولان فيه أكبر مخزون نفطي في المنطقة سماكتها (350) متراً وليس (35) متراً كما هو متوسط أعماق بحيرات النفط الجوفية في العالم، ويمتدُ حوض الجولان النَّفْطي إلى شمال الأردن. ويحتوي حوض شرق المتوسط على أكبر مخزون غاز في العالم، وإسرائيل هي المستفيد الوحيد للآن! مضحوك علينا في كل شيء ويمتصوا الأرض والعرق والحقوق والقرار من أجل شركات وشخصيات يهودية وأمريكية هي التي قادت الحرب ضد العراق، وتَسببتْ في البلاوي السابقة واللاحقة لتحقيق أرباح نقدية خاصة بهم من موادنا الخام، بعد أن أَمَنُوا لأنفسِهِم نَّفْط الخليج العربي، وارْتَهنوا مصير تلك المنطقة لعقودٍ طويلةٍ.

لو لم يُكْتَشف النَّفط اللعين في بلادِ العرب لبقينا فقراء غير مطموع فينا من العالم الصناعي المتعطش للطاقة، ورُبما عُدنا إلى سياسةِ الغزو لنَهبِ أموال العالم الغني والفقير. قلت ذلك لاحقاً لصديقي بين الجد والهزال أثناء لقاء لاحق. قال بدوره: "كان الغزو ممكناً في السابق، أما وقد امتلكوا عناصر العلم والقوة وما تبعها من تَسلُح، فقد انتهت تلك الفرصة التي سقطت أصلاً بسقوط الامبراطورية العثمانية، وتقسيمهم لورثتها وزرع إسرائيل في الوسط لأسباب لم تَعدْ تخفى على أحد."

المال حَوَّلَ مالكيه العرب إلى شيء هُلامي يريد الحماية من الغير وضمان ذاته وحياته، وبدون ثقة أو شرف، يختلق الصراعات ويحتمي بالأعداء ضد الجيران، ويحرضُ على الحروب ويتسبب في الكوارث الإنسانية.. ضاعَ كل شيء من همة ونَخْوة وشرف وكرامة.. كل شيء أصبح بالفعل هُلامياً حتى أجسادهم. هذا ما فكرت فيه ولكني أُحافظ غالباً على توازن فيما أقوله. كلما خطرت تلك الأفكار بذهني تتجلى

أمامي رسومات الصديق ناجي العلي الذي كانَ سَبَاقاً في التعرفِ على ملامح المرحلة في حينِهِ، وما ستؤول إليه الأوضاع. "إن أكثر ما يُغيظني بالفعل هو مُتاجرتهم في قضية فلسطين". قُلت لزياد ونحن نتبادل الآراء حول ما أُعلن عن صفقةِ القرن، وأكملت: "باعوا أنفسهم، وبلادهم، ونَفطهم.. كل ذلك بعد أن قسموا الوطن إلى دويلات، وحافظوا على تَضامن لفظي وتَسميم فعلي لكل شيءٍ حولهم. أصبحَ من الممكن تَقَبُلَ أن يفعلوا بأنفسهم ما يريدون، وعلى شعوبهم التي تَقبلت الرَشَاوى وخنعت أن تحاسبهم سلباً أو إيجاباً، ولكن لماذا يستمرون في خيانة قضية فلسطين، وبيعها مرة بعد الأخرى من دونِ موافقةِ أصحابِها؟ إن صفقةَ القرن هذه هي عملية بيع جديدة للقضية الفلسطينية من الحكام العرب المؤيدين والمنصاعين لتطبيق الصفقة".

"لسنا أبرياء تماماً من النتائج التي وصلنا إليها حتى الآن، والأُخرى التي تَلَوّح في الأفق، لقد ظَلمنا أنفسنا فتكالبوا علينا. هذا هو الواقع، الفريسة السهلة يكثر صياديها". قال زياد وتساءل عما يمكن عمله بالفعل؟

"أوافق الرأي باشتراكنا في الجُرم والأخطاء، لكن علينا ألا ننسى أبداً القوة التي تُعادينا، والتي نَصمدُ أمام جبروتها وتمددها في الساحة وهيمنتها عبر العالم، وبرغم من ذلك كله لا زالوا متشككين في إنجازهم وقوتهم وجهلهم إذا كانوا قد حققوا غاياتهم أم لا؟ ونحن لم نندثر ولم نستسلم ولذلك يُوسعون دائرة التآمر والخيانة". كان زياد يتأمل فيما يسمع، إذ من ميزاته الجميلة أنه غير متعصب لآراءه وأفكاره، ويُجددها دوماً ويُؤيدُ ما يقتنع به. النقاش بالنسبة له جَنِي فوائد وليس صراع ديوك وفرض آراء، ولهذا كانت صداقات وعلاقات زياد تتخطى التوافق الديني والفكري والفوارق الاجتماعية، فالأهم لديه هو المحتوى. قلت: "إن الخلاف بين فتح وحماس ليس ذو أهمية فعلية، بمعنى لو انتهى الآن واتفقوا فقد يتغير مصير فلسطين. تَتَذكر حين كانوا جميعاً متفقين، وقال الإسرائيليون لا حل مع فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية طالما أنها تتشارك في السياسات مع حركة حماس المتعصبة التي تُعلن أنها تريدُ تدمير إسرائيل! وحين حصل الخلاف وتَحَول إلى صراعٍ ظاهري على السلطة بين حماس وفتح، أصبحت الدعاية الإسرائيلية تقول: مع من سنصنع السلام أنتم غير متفقون! خَلْصُوا على حماس حتى نسالمكم". "واشتركت السلطة الفلسطينية في التنسيق الأمني في الضفة ولكنهم لم يُقدِموا لفتح والسلطة سوى البهدلة، وتخلوا عن كل الاتفاقيات، ثم تحولت أميركا إلى صهيونية أكثر من إسرائيل، وعادوا لنا بصفقة قرن تريد التوطين في سيناء وتعويم الوضع السياسي وبالطبع إشباعنا بالوعود والمليارات لتعطيل الوضع الاقتصادي بالفعل حتى يموت الكبار، ويهاجر الشباب طَوعاً من البلاد التي يصبغونها بشكل متواصل بألوانهم".

"لكننا مختلفون ولسنا على قلب رجل واحد، ولا يجب الاستهانة بالخلافات الداخلية، كما أننا غير متبعين لخط واضح سواء سلمي أو قِتالي، ولا نتفق على ما يجب عمله".

"نعم من الضروري والمُهم والمُلح الان الاتفاق على خط موحد، على الأقل اتفاق الأغلبية لأن اتفاق الجميع مستحيل". قلت لصديقي وأعطيته أمثلة بانشقاق شعوب الدول المتقدمة من النصف تقريباً، كما هو في فرنسا أثناء الانتخابات الرئاسية لمرشحين مختلفين تماماً في أهدافِهِم وطرقِهِم، وكذلك بريطانيا وخروجها من السوق الأوروبية، وقبلهم في الولايات المتحدة أثناء الانتخابات الرئاسية التي حُسِمَتْ بفارقٍ قليل لصالح المجنون ترامب، والذي كان يهدد أنه لن يعترف بالنتيجة لو كانت لصالح هيلري كلينتون.. الاختلاف طبيعي، ولو أرادت إسرائيل اتفاق الفلسطينيين ومسالمتهم، فما عليها سوى تطبيق الاتفاقيات أو اقتراح حلول معقولة حتى لو كان إلغاء حل الدولتين والسير في حل دولة واحدة للشعبين.. ولكنهم لا يريدون السلام لأن خُطتهم من الأساس تقوم على تسعير الخلافات والحروب ليصبحوا مهيمنين ويحلوا بدل الاستعمار التقليدي البريطاني والفرنسي وما تلاه من استعمار أمريكي.

صمت صديقي فواصلت استرجاع الماضي بسرعة لأوضح ما أظنه هدفهم، وما نسير إليه أصلاً. "الاستعمار القديم هو الذي خلق الحدود، وعزز الفوارق الطائفية ضمن أُطر جغرافية، وذلك من بعد اكتشافِهِم للنّفْط وتَحَقُّقهم من الحاجة إليه في خلق صناعاتهم وتعطيل تطورنا الصناعي حتى لا نستفيد من النّفْط. هكذا قبضوا من الأغنياء اليهود ثمن منحهم فلسطين، ووضعوا سوياً المخطط لتحل إسرائيل في المستقبل بدلهم مستفيدة من القُرب والتَوسط الجغرافي. لكن ذلك يتطلب التخلص من عداء العرب والمسلمين لإسرائيل، والطريق الأسهل هو تسخير السياسة الطائفية وتصعيدها، واشتداد العداوة والحروب الطائفية بين المسلمين. بالطبع لم ينقصهم عنصر الادعاء بنشر الديمقراطية ومحاربة الدكتاتورية، فَحاربوا البلدان المُتقدمة نسبياً ودمروها بدعم من البلدان الثيوقراطية، والآن وصلنا بعد الاستعمار البريطاني والفرنسي ثم الأمريكي، وصلنا إلى بدايات تعاون دول عربية أصولية مع إسرائيل للتصدي لعدو مسلم جار بحجة أنه يُهدد جيرانه ويتوعد إسرائيل بالدمارِ، أي أصبح هنا تحول متسارع لدور أحتماء هذه الدول بإسرائيل، علماً بأنها لا تُعادي إيران فقط، بل تُعادي وتُحاصرُ أخواتها، وتَقتلُ جيرانها الفقراء. لقد أوصولنا إلى ما خططوا له قبل مائة عام".

"وعلينا أن نُخطط لنصلَ ما نريده بعد مائة عام، وعلى كلٍ منا فعل ما يتوجبُ عليه من دعمٍ وتشجيعٍ وتعليمٍ وتوضيحٍ.. مُخططنا واضح وسهل، وهو رفضُ أي تنازل

عن الحقوق، ورفض لنتائج فرض سياسة الأمر الواقع".. قالَ صديقي واستذكر ثُم أضاف: "نحنُ بحاجةٍ لهيئةٍ مُخوَّلَة تعملُ على رفعِ قضايا ضد الدول التي عَززت إسرائيل، وسياستها العنصرية والاحتلالية، بَل والدول التي وَقعتْ على مواثيق وقراراتٍ تقومُ "إسرائيل" بخرقِها ولا تُقاطعها، عليها أن تُعاقبها على هذه الخروقات. ونحتاج إلى أُطرٍ نقابيةٍ وتَجمعاتٍ فلسطينية في المنفى تُحافظ على إبقاء القضية والتراث حياً".

بعد أقل من عام على وفاةِ زياد اجتمعَ البعضُ في البحرين ضمن ورشة اقتصادية لتمرير صفقة القرن، لم يَتحدثوا عن الحل السياسي مُطلقاً، ولكن أَطلقوا الوعود لتحسين الوضع الاقتصادي بينما الاستيطان والاستعمار والاستيلاء على البيوت الفلسطينية على أَشّدَه.. بالطبع لم يحضر أي ممثل فلسطيني، واتجهت السياسة اليهودية الأميركية والإسرائيلية إلى تلميعِ شخصياتٍ محلية على غرارِ تجاربِهم في روابطِ القرى لِيَحِلُوا بدلاً من السلطة وفتح وحماس في تمثيل الشعب.

الزوجةُ الثانية الفرنسية

رَنَ الهاتفُ ذاتَ مساءٍ، وَوَجدتُ زياد على الطرف الآخر، كان ذلك قبل أن يُكتشف المرض بسنوات. بَالغَ في السؤالِ عن الحالِ والأوضاعِ، وشَعرتُ أن في جُعبتِهِ خبراً ما، ولكنه مُتردد في الإفصاح فَتركتَه ولم أسحبْه في الكلام، ويبدو أنه شعرَ بموقفي أو أنه قرر عدم الإفصاح. سَأَلني ماذا أفعل الآن؟ وكنتُ بين كتابةِ روايتين أُراجع بعض المعلومات وأُغير أجوائي بمطالعة كتبٍ وروايات. قلتْ له أنني أُطالع رواية لإحسان عبد القدوس، رواية "سيدة في خدمتك، أوجزت له أنها مجموعة روايات قصيرة أبطالها الإناث.

"هل بها قصة عن زواج الإثنتين"؟

"نعم، زوجة من الشاطئ الآخر". أجبته فأَبدى الرغبة في سماعِ مُوجزِها. "إنها مختلفة في التفاصيل فقط عما تَعرفه عن تجربة أبوك وأعرفه عن تجربة أبي".

".. نعم تلك التفاصيل هي التي عليك أن تركز عليها".

"إنهُ رجلاً مغربياً غنياً يسكنُ في الدارِ البيضاء، وهو صديق للمؤلف، إحسان، الذي انبهر عندما دعاه عبد المطلب إلى بيتهِ، وتناول الطعام مع زوجة وابني الرجل، وكلهم في غاية الأدب والثقافة والأناقة التقليدية في بيتٍ أشبه بما نتخيله عن بيوت الأندلس، وكان عبدُ المطلب يقدمُ خدماتٍ لمساعدةِ إحسان كلما زارَ المغرب وضمان راحته كونهم أصدقاء. في الزيارة الثانية للدار البيضاء بعد عامين استقبلَ عبدُ المطلب صديقَه ومعه زوجة فرنسية الشكل والتصرف، كما أن عبد المطلب لم يَعد يَلبس الزي المغربي التقليدي. إكتشف إحسان أن صديقه تزوجَ وهجرَ الزوجة الأولى لإطاعة الزوجة الثانية التي أرادت له أن يُطلقَ أُم الأولاد وإبعاده عن بيتها، ولهذا جَلبت ولديه للسكن معها بحجةِ تثقيفهم وفَرْنَسَتِهِم". كانَ زيادٌ يستمعُ للموجز ويُعلقُ بهمهماتٍ لإظهار الاهتمام. "في هذه الزيارة واصل إحسان تعامله الجِنْتِلمَان ولكنه كانَ يتهربُ من السهراتِ مع صديقهِ وزوجتهِ الفرنسية ويَتساءل ويُساءل بطرقٍ جانبية عن الزوجة الأولى وبيتها ومصيرها. في الزيارة الثالثة بعد عامين آخرين، وكانَ ابني عبد المطلب قد أصبَحَا رَجلين، شاهدَ إحسان صديقه مريضاً ويده اليُمنى مشلولة، وكان اللقاء في بيتِ الزوجة الأولى التي ظهرت في زيها التقليدي الجميل، ولم يفقد بيتها رونقه وجماله".

"وماذا حصلَ للزوجة الفرنسية"؟ سألَ زياد بلهفة وشغف. قلتُ له سَأَقرأ عليك الحديث الذي دار بين إحسان ومدير أعمال عبد المطلب في نهاية الزيارة الثانية:

بعد يومين كنت في مكتب بوليب (اسم الدلع لعبد المطلب) وأخذني سي عبد الله من ذراعي وانتحى بي ركناً، وهمس في أذني وعيناه تضحكان ضحكة كبيرة، وشفتاه تبتسمان ابتسامه أكبر:

- أتدري ماذا حدث؟! لقد ضرب سي أحمد وسي المهدي زوجة أبيهما ضرباً مبرحاً.. سَلِمت أيديهما.. إنهما رجال.. سي أحمد وسي المهدي.. (أبناء عبد المطلب من الزوجة المغربية)

قُلت في دهشة:

ضَرباها.. لماذا؟!

قالَ ضاحكاً:

لأن إنسان ما كان يجب أن يَضربَها منذ زمن طويل.

قُلت:

وماذا فعل "بوليب"؟

قالَ: لقد أَعادَ الولدين إلى أُمهما.

وماذا عن مونيك (الزوجة الفرنسية)؟

إنها تَصرخُ وتُولول منذ نهارِ أمس، أَتدري ماذا تريد الآن؟ إنها تريدُ أن ترسلَ الأولاد إلى مدرسة داخلية في فرنسا، حتى لا يَراهما أبوهما.. وبحجة أن يتعلما الأدب.

قُلت لزياد: وتستمرُ القصة برفضِ الولدين الذهاب، وثورة أهل الزوجة الأولى. وفي الزيارة الثالثة بعد عامين حين يرى إحسان اعتلال صحة عبد المطلب وشَلَل يُمناه، وتَسَلُم ولديه التجارة والإدارة بنجاح، يخبر سي عبد الله إحسان أن مونيك ماتت، وأن أحداً لا يستطيع الاقتراب من بوليب لأنه رجلاً مؤثراً.. وهذه الإشارة يعجزُ إحسان عن تفسيرِها، وكيف ماتت الفرنسية التي لم يسعفها الحظ كي تنجب.

"هل تحدثَ إحسان عن سبب زواج بوليب من ثانية"؟ سَألني زياد بصوتٍ مكسور شَعرت من خلاله أن نهاية الرواية لم تعجبه.

"الأسباب معروفة في المجمل، لكن إحسان أَوجزَها في سؤال وجواب: ووجدت نفسي أَتساءل ما الذي يجعل رجلاً مثل بوليب يتخذُ زوجة أُخرى؟! ربما لأنه غني، والغِنى يُغري صاحبه بالنساء، كما يُغري به النساء." هذا ما كتبه، قُلت لزياد وأضفت: "المالُ يوفرُ الغذاء الجيد وراحة البال وإغراء السيطرة وتملق الإناث وغرور المُسيطر، وهذا كله يدفعُ إلى الجنس، فإذا كان للزوجة طاقة تَحمل كان بها، وإلا سيلجأ الغَنِي للحرام أو للحلال". وحين تتمكن الانثى من الذكر تباشر في طلب ما تريد، وفي حالة زواج الاثنتين تبتز الثانية زوجها ليطلق الاولى، وتلجأ الى البكاء والتهديد وعدم التجاوب في الفراش، والحل هنا هو التطنيش والتجاهل وعدم اظهار الضعف. لكن بوليب تجاوب مع زوجته الفرنسية فاصبحت النتيجة كارثية عليه وعليها، بينما تحلت الزوجة الاولى بالصبر ونظرت الى الصورة الكبيرة وابتعدت عن التفاصيل فجاءت النتائج في صالحها .. ثم استعدنا سوياً قصص رؤساء وزعماء وملوك وأمراء من كل الأطياف والأزمنة وقعوا في فخ الجنس، بل مَارَسَ بعضُهم الاغتصاب ضد عاملات في مكتبه ومواطنات جميلات تمنعنّ عن تَقبل رغبة المغرور. المهم في قصة بوليب أن الفرنسية قَبِلت أن تكون زوجة ثانية حباً في المال، ولم تكن مؤهلة لإرضاء غرور الزوج بالإنجاب فانتهت مقهورة كما ترى، فالكثير يتزوجون مثنى وثلاث ورباع بدافع أو بحجةِ الإنجاب، وكان المسلمون في الماضي يتباهون بطول الزب، بمعنى أنه أنجبَ كثيراً فيُوصف بذلك".

سمعتُ زياد يُهمهم بأن حلالَ الشرعِ أفضل من الحرام، ثم نقل الحديث إلى موضوع روايتي قيد التفكير، وعرفت بعد سنواتٍ، وعندما تَمَكنَ منه السرطان، ماذا كان يريد أن يُخبرني. استقبلني في مطار الدوحة، وتوقفَ بالسيارة على قارعة الطريق، وقال: سأُخبرك بسري، وكان قد أخبر أهله بذلك حتى تتأقلم العائلة فيما تَبقَى من أيامِ العمرِ مع الوضعِ الجديدِ، وكانت أُم عياله قد اكتشفت سره هذا قبل دستة من الأعوام، واشتركتْ معه في كتمانِهِ عن الجميع حتى ألحت الظروف للإشهار. خطر لي القول ان النساء يختلقن المشاكل ولا يتأثرن من الزن والتكرار فيقصرن عمر الرجال، وأعمارهن في المتوسط اطول من الرجال بسبع سنوات، والسبب ان الرجل يتعامل مع المشاكل أما بحلها او نسيانها، لكن المرأة تعيد وتزيد وتقلب لان هدفها هو اثبات وجودها وتخفيف المشكلة والتوتر بالحديث عنها. لكن مثل هذه النصيحة لم تكن لتنفع زياد حينذاك. لم يكن هذا سره الوحيد الذي أخفاه عني، فقد اكتشفت بعد وفاته انه قد وقع في الكثير من المطبات التي لم يخبرني بها، وكان يحث بعض الاصدقاء المشتركين على إخفائها عني، لكنها أمور كان يظن انها ستقلل من شأنه في نظري او تعرضه للنقد مني، وقد احزنني ولم يزعجني الامر حين عرفتها لاحقاً، بل اثبتت لدي قناعات أضافية عن مستوى ومقدار ونوعية العلاقات التي سادت بيننا.

عما يُضحك

حسب مقولة "أوسكار وايلد": "ليس الضحك بداية سيئة للصداقة.. ومازال أفضل نهاية لها".. أصبحتُ أرسل لزياد أثناء تواجده في نيويورك للعلاج بعض النوادر لإسعاده ولو مؤقتاً. في الثامن من أكتوبر من العام 2017 أرسلت له فكاهة عن مهارة النساء:

"كان هناك امرأة متدينة تُعطي دروس للنساء في الجامع، مرة قالت لهنَّ: يجبُ على المرأة الصالحة أن تساعدَ زوجها على إحياء سُنة تعدد الزوجات، إقتداءً بالرسول الكريم ولا تُعارض رغبة زوجها. وبعد انتهاء الدرس جاءتها امرأة اسمها فتحية كانت ضمن المستمعات وعانقتها وقالت لها: الله يفتح عليكي يا شيخة كنتُ لا أعرف كيف أناقشك بالموضوع، لكن الحق وجدتك متفهمة لدرجة كبيرة. أنا اسمي فتحية ولي أربع سنين متزوجة من زوجك ولا أعرف كيف أُخبرك. الشيخة من الصدمة سقطت أرضاً وأُغمي عليها وأخذوها للمستشفى وذهبتْ معهم فتحية. ولما استيقظتْ الشيخة جاءتها فتحية وقالت لها: والله لا أعرف زوجك ولا عمري رأيته، بس مره تانية خلي دروسك عن الصلاة وبر الوالدين والصيام، وبلاش الحاجات اللي ماتقدرين عليها".

بعد ثلاثةِ أيام، وكان قد أخبرني ممازحاً ومعلقاً على النكته أن من يستطيع تطبيق الشرع ويتقاعس فهوحمار، أرسلت له نكتة أُخرى: "أبو سالم مريض بالمستشفى وأهل الحارة بدهم يزوروه وعددهم 9، المهم اتفقوا مع واحد عنده باص يوديهم للمستشفى وكل واحد يدفع 5 ليرات، لكن ضل كرسي فاضي. السواق قال ياريت تشوفوا كمان واحد نكمل العدد، قالوا: لا خلص هذا عددنا ولما بدأ يتحرك شافوا واحد جاي يركض من بعيد ويحاول يوقف الباص، قال السواق: خلونا ناخذه معنا حتى نكمل العدد قالوا: "لالا..لا توقف هذا فلان المنحوس.. إذا ركب الباص لازم يصير اشي! قال السواق: لا والله غير أوقفله أنا أولى بالمصاري انتوا ولا يهمكوا! (بلا منحوس بلا بطيخ أهم شي الخمس ليرات) قالو له إنت حر وذنبك على جنبك! أول ما فتح الباب قالهم: انزلوا شباب!! أبو سالم طلع من المستشفى.

ثُم أَرسلتُ لزياد نكتة منسوبة إلى الرئيس سعد الحريري: "ركبت سيارة أُجرة للتمويه قبل يومين متوجهاً إلى البيال لإلقاء خطاب مهم، وإذا بالسائق من صيدا ولم يتعرّف علي! لكني لم أتكلم أو أعرفه بنفسي. عندما وصلت طلبت من السائق أن ينتظرني ساعة حتى أعود، فاعتذر السائق بأدب وقال لا أستطيع، لابد أرجع للبيت

حالاً عشان استمع إلى خطاب الشيخ سعد الحريري!!! وفَرحت بل ذُهلت من شوق هذا الرجل ليستمع إلى خطابي فأخرجت مبلغ 100$ وأَعطيته له إكرامية بكل سرور. رأى السائق المبلغ ونظر إليَّ قائلًا :طز بسعد الحريري وطز بخطاباته كلها ضراط عالبلاط والله لاستناك لبكرة الصبح !!! خوود راحتك يا أستاذ!!!".

كان زياد يُرسل لي نتائج الفحوصات وما يخطط له أطباءه في نيويورك، فأَتجاوب معه بعد التمحيص فيما يقول وأُطمأنه. في ذلك الشهر، ولم يكن بوسعي عمل اي شئ، أرسلت له هذه النكتة أيضاً:

"واحدة جُوزها إسمه إبراهيم، في يوم تخانقوا وحلفت ما تنطق إسمه أبداً. جاء وقت الصلاة، وهي عم تصلي وهو قاعد وراها يستناها تقرأ التشهد علشان تنطق إسمه غصب عنها، فسمعها بتقول: (اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على أبو إسماعيل وآل أبو إسماعيل) زوجها من الضحك صار معوا فتاق، وإبليس حلف بالطلاق إنها ما خطرت على باله. فكتب زياد إليَّ أن المرأة تعلمت درسها الأول من الحية والثاني من الشيطان، واطمأنيتْ أنه قد ضَحِك قليلاً.

في سنواتِ العافية كنا نضحك كثيراً كلما التقينا، تَغمرُنا بعضَ القفشاتِ بسيلٍ من الضَحك حتى بداية السعال، فَنَكُفُ عن ذلك ونُغير الموضوع. بَقي زياد مقبلاً على الدنيا حتى مع بداية المرض، لم يغير رؤيته وخصاله إذ كان على الدوام متأكداً من طاعة ربه والتقرب إليه بالعمل والعبادات واتباع الشرع ومراعاة الحلال والحرام. كان يبتسمُ كلما التقى الأصدقاء، ويَضحك معهم ويضرب كفه بكف جاره أو من يحالفه في الحدث المُستدعي للانبساط. كُنا نستمتع أحياناً بأغاني كلاسيكية كلما ارتحلنا بالسيارة.. أُم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش، وأحياناً مواويل محمد طه، وبالطبع كان يحتفظ في أماكن الاستجمام بكلِ إسطواناتِ الطرب الشامي. وبرغم اجتماعيته وانفتاحه لم يكن زياد يحب الرقص، حتى الدبكة التقليدية كان يتهرب من المشاركة فيها برغم من استمتاعه برؤيتها ومعرفته لحركاتها، وقد حدثني مراراً عن فرقة كَوَنها ولده الأكبر، وكيف كان يتابع حركاتهم ويُقيمها. أعتقد أنه أرادَ الحفاظَ على رصانةِ الجسد ولم أراه يشارك جسدياً في التعبير عن سعادته رقصاً حتى في المناسبات القريبة إلى قلبه. سروره وانبساطه كان ظاهراً كل مساء تقريباً، ولو بشكل مؤقت، عندما يلتقي الأصدقاء والزوار في المجلس، كانوا يلعبون الورق، تحديداً "الطرنيب" و"بناكل"، وقد حاول زياد تعليمي إياها ولكن قلة اهتمامي أغلقت ذهني. كنت أحياناً ألاعبه "هندرمي" أو "مصرية" إذ ألعبها بصورة آلية منذ أيام الصبا. تعمُ الفرحةُ الثنائي الفائز، وتنتشرُ الشماتةُ في المغلوبين على الألسن. لَعبٌ بريء بدون مراهنات من أي نوع، ولكن بانغماس وكأن الجميع يتنافسون في تجاهل

مشاكل اليوم وهموم الغد. حتى في الأيام الأخيرة وقبل الزيارة النهائية لمستشفى حمد كان زياد يذهبُ للمجلس فيجدهم بانتظاره ويلعبون لوقت قصير معه، ثم يغادرهم ليستريح في انتظار موجات الألم.. آلام العلاجات والأخرى التي يسببها المرض، وكانت تصيبه بصداع مؤلم متواصل.

تُحسب الحياة بأوقات السعادة ونقيضتها التعاسة، وليس للمال علاقة مباشرة بكمية هذا أو ذاك.. هذا على الأقل ما أَظنه ولا أَجْزِم بحقيقتِهِ. صديقي زياد مثلاً ليس أغنى الناس في محيطه، ولكنه حتماً كان أَسعدهم، بَشوش الوجه، متواضع، مبتسم، ولا يمنع ضحكته في وقتها. أما الكثيرون من الأغنياء مالياً فتراهم متجهمين متظاهرين بالقوة أو الرصانة، متقيدين في القول والملبس والحركة، وباختصار هم فُقراء في كل شيء سوى المال الذي يشغلون ذواتهم في جمعِ المزيد منه.

بعد موتِ الخليفة الناصر في قرطبة، وكان سلطانه هو الأعظم في أوروبا والملوك والسفراء الفرنجة يَلتمسون رضاه بكل الأشكال، وفي عهده قَفزت الأندلس درجات في مجالات العلم والبناء والقوة الحربية.. بعد موت هذا الخليفة وجدوا في مذكراته تسجيل لأيام السعادة، فأحصوها ووجدوا أنها عشرة ايام فقط. أنا بوسعي التأكيد أن أيام السعادة عند صديقي زياد كانت أكثر من ذلك بكثير، ولم يكن هو في مستوى غِنَى أو سلطة الخليفة الناصر.

يُظن ان السعادة مرتبطة بالاحداث الايجابية وحجم السعادة حاصل مجموع تلك الاحداث، لكن بودي القول ان السعادة مرتبطة بالسمات الشخصية وليست بالأحداث. فقد تستمر تعاسة أناس يشاركون في احداث سعيدة كثيرة لان طباعهم جامدة سواء لاسباب وراثية او تربوية فلا يرون السعادة حتى لو تعثرت أقدامهم فيها وسقطوا فوقها.

عن القيادة

"أنت يا صديقي لديك رغبة في الإصلاح للبشر وترى أهمية لقيادتهم والتأثير فيهم وإسعادهم، وهذا يؤدي إلى تَحملك لمسؤليتهم، بينما أنا شخصياً أُحب الانعزال والمراقبة والاستفادة الذاتية، وأحس بالرضى كلما شعرت بأنني قَوَمت ذاتي قليلاً، أي تَحَسَست نقطة ضعف في التفكيرِ الباطن وَوَضَعتُها قيدَ المراقبة للتعديل. أنت مليونير وكثير الإنجاب وتحبُ المزيدَ منه، وأنا على العكس سواء في ملكية المال أو البنون، أنت ضمن جماعة (من يشاء) في قوله تعالى: (يرزقُ الله من يشاء بغيرِ حساب) وهذا يُلقي عليكَ أعباء، بينما أنا مُتحرر من كل ذلك طوعاً ومع سبق الإصرار". قُلت ذلك لزياد عندما تطرق بنا الحديث عن العائلة، ووصل هو لاستنتاج أن الكاتب يمكنه أن يصبح مليونيراً ولكن المليونير لا يمكنه أن يصبح كاتباً.

كان هذا الحديث قد بدأ عندما اقترح عليَّ أن أضم تحت إبطي، حسب قوله، مجموعة من شباب العائلة الإناث والذكور، لأرشدهم وأتحصن بهم. هكذا رغبت أن أشرح له الأمر على بلاطة، وكررتُ تنبيهه إلى جودة العلاقة مع من يُعنيهم ومع غيرهم وهم بالعشرات، ولكني لم أعد أرغب في تحمل مسؤولية إرشاد وكسب أي إنسان معين، ولم تعد عندي رغبة في التَمَوضع القيادي التنظيمي أو القبلي العشائري، وأصبحت سعادتي هي فترات الانقطاع والهدوء والتفرغ للتعبير عن ذاتي بالكتابة، وهذا تفاعل كافي لارشاد العموم بما آراه قويماً، ولهم حرية الاختيار أن يُطالعوا ويستوعبوا أو يستمروا في المسير مع القطيع ألف وخمسمائة سنة أُخرى.. أما السعادة الأكبر فهي يوم يَصِلني أول نسخة من كتابي الجديد، أَظن أنها سعادة تعادل عند البعض يوم يرزقهم الله بمولودٍ ذكر.

ليس للسعادة تعريف أو سبب محدد فكلٌ يراها من تجربتِهِ، ويقولُ الفيلسوف ابن حزم: "السعيد كل السعادة في دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان". ذلك أن هذا العَلاَّمَة الأندلسي وَرِثَ العلم والمجد عن والده وكان من أوائل من قالوا بكرويةِ الأرض، قد أوشى به (الإخوان) من العلماء المنافقين، وحَرَضُوا السلطة عليه فتم نفيه من بلاده وأُحرِقت كتبه، وربما لذلك يرى السعادةَ كلِهَا في اتقاءِ شرِ الإخوان. وهو القائل: "من جالس الناس لم يعدم هماً يؤلم نفسه، وإنما يندم عليه في معاده، وغيظاً ينضج كبده، وذلاً ينكس همته، فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم؟ والعز والراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم، ولكن أجعلهم كالنار تدفأ بها، ولا تخالطها".

كان زياد فناناً في كسبِ الناسِ، والسيطرةِ على عقولهِم، وبالطبع كان يستفيد من حقيقة امتلاكه للثروة في أقبال الصالح والطالح من الناس عليه، لكنه أظهرَ قُدرات مُنظمة تُؤهله لدور السياسي الذي كان يتجنبه. كان يتقرب لمن يريد بأسلوب التفافي، لا يُظهر أهداف ما يسعى إليه، ولا يُبالغ في استعمال تعبير الصديق والحبيب بغير حساب. وكونه ثرياً كريماً اجتماعياً فقد سَهُلَ عليه استخراج مشاعر الناس بالسعادة من حديثه معهم، واستقباله المفرح لهم.. يرى من لديه مشاكل ويستمع إليه، ويتحدث معه من وحي سهولة حلها بالمثابرة. هكذا يُظهر مزاياه الحكيمة، ويُضيف رؤيته في الشأن المُتَحدث عنه فيحصل على التأييد شبه المطلق. لم يكن ينتقدُ الناسَ مباشرة، ويُعزز موقعه بِتَحَسُسِ نقاطِ ضعفهِم، ثم يُطلق الحلولَ فيُفيدهم ويُبهرهم. هكذا كان على الدوام يُتابعُ ويقدمُ الجديدَ حتى لا يشعر مريدوه بالملل من التكرار. لكنني كنت أحياناً أستشعر كمية نفاق محترمة من المستمعين المتفاعلين، وقد تاكدت رؤيتي للاسف بعد انتقال زياد الى ربه فظهر الكثير على حقيقتهم السيئة.

عَرفَ صديقي ذات يومٍ بغضبي من بعض الأشخاص، فاقترح عليَّ تطبيق مبدأ التجاهل و"التطنيش"، وأَخذَ يكيل لي الصفات الأخلاقية، ويُذكرني بالعلمية والمهارات الأدبية، وإن كل ذلك لا يليق بي غاضباً مزعجاً لذاتي. تجاهلت ما قال وأكدت أنني أَود الانتقام العملي لأنني منزعج، فباشرَ يُقدم لي الحل النظري: اعزل عدوك بقطع صلاته، حرض عليه بقدر الامكان، وبخ المقربين منه لتقبلهم أفعاله، وحين ينعزل يسهل الانقضاض عليه. شعر زياد من سرحاني فيما قال أنني لا أستطيع تنفيذ هذا التكتيك نظراً للظروف المحيطة بالحالة وأن حلولي ربما من نوع آخر.. طالبني بالتروي، وترويت وتدخل هو وفض الاشتباك.. تذكرت حينها أن الصديق كالمظلة، كلما اشتد المطر زادت الحاجة إليه.. كان حضور زياد في حياتي طوال العقد الأخير بمثابة علامة فارقة انضمت إلى قلة من علامات مشابهة.. وليبعد القدر عن بقية حياتنا العلامات الفارغة والصداقات المزيفة. "زهرة واحدة تستطيع أن تكون حديقتي، وصديق واحد يستطيع أن يكون عالمي". كما قال الأميركي الإيطالي الأصل ليو بوسكاليا، الذي اشتهر بدكتور الحب في الثمانينيات. المشكلة إذا غاب هذا الصديق الوحيد، لذلك الأفضل جعلهم إثنين أو ثلاثة.

المهم هنا والقصد هو الإشارة لمعرفةِ زياد ولقدراته وقناعاته، وأنا متأكد أن فلسفته متعددة النواحي هي التي مهدت له طريق المال ومنحته حب واحترام الناس وقربته لخالقه وأرشدته لفعل الخير، كما ان المال المتزايد منحه قدرة للاقناع وطوع مستمعيه للانصات، خصوصاً وانه كان يظهر التواضع الطبيعي، والغني بوسعه الاقلاع عن المظاهر لانه غني بينما اغلبية الآخرين يندفعون للتظاهر بأنهم أغنياء.

صداقتي مع زياد لم تكن عمياء تجيد البصم، بل وجدت لدى كل منا بعض القناعات المختلفة، وهذا ما كان يمهد لنقاشات متنوعة وخصوصاً عن الثواب والعقاب.

أحيانا وعندما كان زياد يشعر بالحصار، أو يرى في حديثي ورؤيتي للدين تعارضاً عما يراه هو، كان يقول من سورة فصلت: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)، ولم يكن حديثي يطعن في ذلك، وإنما إذا كان النقاش مثلاً عن الجنة، يقتصر هو الرأي بذلك الاستشهاد، ليردعني عن الخوض في التفاصيل غير المتعارف والمتفق عليها. تحدثنا أحياناً عن الثواب والعقاب، ومن الذي تحق له الجنة، ومن يستحق النار. كنت أقول يفترض أن يكون من تحق لهم الجنة هم الذين يعملون بالجهد الأعلى للفوز بما يكفيهم في الحياة، وبالتالي يجب أن ينالوا عن جهودهم المخلصة الفوز بالجنة، بينما الذين يتكاسلون حسب مبدأ الجهد الأدنى والغنيمة الأعلى هم من يستحقون النار، وهؤلاء هم الأغلبية بين العرب والمسلمين، الكسالى والمتكلون والمنتظرون العثور على كنزٍ، أو أن يمطر الله عليهم المال. أما صديقي، فكان يعطي الأولوية لمطبقي العبادة النشطين، وهنا كنا نتجادل: أنا أدعي أن الله يحب العاملين، ويفضلهم على المتعبدين، واستشهد بالقرآن، وأن الأقرب لله هم: (.. مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُون)، كما ورد في سورة سبأ، وصديقي يحتمي بآياتٍ عدة من القرآن، تؤكد ضرورة العبادات، ويفسر العمل الصالح بفعل الخير، مثل الصدقات، بينما أنا أعتبر العمل الصالح هو العمل الذاتي الجيد، وأستشهد بربط القرآن الايمان بالعمل 360 مرة. طبعاً كان من السهل التوفيق بين الرأيين، ودمجهما سوياً، ولكني كنت أريد إظهار فضل العمل على العبادة، وخصوصاً العمل الجاد المخلص الفعال الذي رفع الأمم الأخرى، بينما أعاقنا حبنا للكسل، وإبداعنا في أساليب الراحة والخداع للوصول إليها.

في قليلٍ من الأحيان، كنت أحاول استفزاز زياد بسؤاله ماذا سيفعل في الجنة؟ فيستغرب من سؤالي، فأعيد السؤال عليه، وأجاوب: نعم، ستنعم، وتحصل على كل ما تريد وتتمنى، وما لم ترَهُ عينٌ، أو تسمع به أذنٌ، ولكن ألن تمل من التكرار؟ حين أنجح في استفزازه يسألني مقاطعاً: وأنت ألن تمل من النار والشواء فيها؟ فأقول له: هذه مثل تلك، سأتعذب مراراً وتكراراً، وأموت وأحيا وأتعذب، ولكني سأعود للحياة وأموت وأتعذب، وفي النهاية سأدرك أن الموت ليس النهاية، وسأتعود عليه حتى يفرجها الله، ويرسلني إلى الجنة بشفاعة الرسول الكريم، كوني على الأقل مسلماً، بل مسلم مخلص في عمله، وأمين في معاملته. في الجنة بعد سنةٍ، أو ألف سنة سوف يصيبني الملل: حينها نرسلك مجدداً للنار لتتذوقها، وتقابل الأشقياء، وتسمع قصصهم، وتعود بها إلينا في الجنة، كان زياد يقول، ويضيف: هذه شغلة كويسة لك،

وتنهي الملل، ثم نضحك، ويقوم هو للصلاة بينما أحمد الله على الصحة والعقل والستر، وأتعهد بالعمل الصالح قدر استطاعتي، ثم أقوم ببعض ما ينتظرني من مهام.

في بعض الأحيان كان خيالي يسرح فعلاً في أمور شتى لما بعد الموت، ماذا لو وجدت الحياة الأخرى كما يعم تصورها بين المسلمين، وفيها جنة ونار حسب تفاصيل الرؤية والقناعة المكتسبة السائدة، وكان نصيبي الجنة، واشتقت لرؤية أصدقاء في النار، هل يمكنني الطلب من الله أن أزورهم أو يزورونني؟ أم أنني سأتحول إلى أناني لا أهتم سوى بنفسي ومتعي مثل المغيبين، والذين وجدوا في الجنة ما أرادوا من المتع فكفوا عن التفكير بعمل شيء جديد؟ وهل يمكن زيارة النار والاطلاع على أوضاع سكانها ومحادثتهم؟ لو عاقبني الله وأودعني النار أو كافأني بالجنة، فأتمنى ألا يكون جيراني هناك من النوع الغبي، لأن جيرتهم أسوأ من عذاب النار، وسيعكرون المزاج في الجنة.

لقد زرعت في حياتي، في عدة مناطق من الأرض، حوالي سبعة آلاف شجرة مثمرة معظمها زيتون، ولكن أيضاً حوالي عشرين نوع من الفواكه، وبعضها متعدد الأشكال والألوان والطعم، مثل الخوخ والتفاح والعنب، وهذا العمل مما يوصي القرآن بفعله من تعمير على الأرض، فهل سيكون في الجنة أكثر من ذلك؟ وهل أستمتع بما زرعه غيري؟ صحيح أنني أحب ممارسة الجنس، ولكن هل أستمر مع الحوريات إلى ما لا نهاية له؟ وما فائدة نهري العسل واللبن، أهما للسباحة أم للأكل؟ وما جدوى نهر الخمر إذا كان لا يُسكر، يعني كالعصير، ولماذا أصلاً وضعت الخمور مكافأة للمؤمنين في الجنة، ومنعت عن المسلمين في الحياة الدنيا، بينما كان النبي عيسى يوزعها على رفاقه ويقول لأتباعه إنها تنعش القلب؟

لو مُنحت تحقيق رغبة في الجنة لطلبت من الله مواصلة الكتابة، ووجود ناشر لي، وملايين من القراء النهمين المُحبين والمجادلين، لكن القراء ربما لن يحبوا القراءة أصلاً وهم في الجنة، وبالتالي سأكتب لنفسي، وهذا سيفرغ المعنى ويزيل المتعة، وربما صعب علي العثور على كتب صادرة حديثاً، لأن السادة والسيدات المؤلفين سيعيشون جنتهم مثل غيرهم. خطر لي أن معظمهم قد يكونون من سكان النار، إذن لا بد من تدبير أمر الزيارة إلى هناك.

كانت هذه من بنات أفكاري الذاتية التي لم أتحاور حولها مع صديقي، لكنني سألته مرة بما معناه: إذا كان كل شيء متوفر مجاناً وحسب المزاج وأحسن من الخيال في الجنة، فلماذا يكثر الحديث والإغراء بالذهب لمن يدخلها، الذهب قيمة مادية في الدنيا كونه معدناً نادراً يمكن تبديله بأموال تمكن من تلبية الأماني على الأرض، أما وكل شيء، وأكثر من كل شيء، متوفر مجاناً في الجنة، فلماذا الذهب هناك؟ لبريقه مثلاً؟

كان زياد يقول: إن القرآن نزل لإقناع الناس على الأرض، وهم يحبون المال والذهب، وبالتالي يعدهم بما يريدون ويتمنون إذا صدقوا الإيمان، ولبوا شروط دخول الجنة، القرآن ليس مادة للتفلسف، وإذا بدا لك شيء غير منطقي فذلك لأنك لم ترتق بالعلم إلى مستوى الاستيعاب. كان هذا الرأي أحد أسلحة صديقي الحادة لحسم النقاشات. قلت له: إنني أعرف الطريق لإصلاح حال كل المسلمين، ودخول غيرهم في ديننا جماعات متلاحقة حتى يسلم كل العالم. صمت، ونظر إلي منتظراً هذا الحل السحري، فقلت: أن تظهر على الأرض حورية تؤكد أنها وأمثالها في انتظار الصالحين في الجنة، أراهنك حينها أن الرجال، على الأقل، سيسيرون على الصراط المستقيم، فقال صديقي: وربما أصيبت الإناث بما يدفعها للثورة.

فنُ "التطنيش"

التنظير على الدوام أسهل بكثير من التطبيق، والذي يتمكن من ذاته ويطورها ويستفيد من النظريات المتاحة والشروحات المتكررة فهو بالتأكيد من السعداء على الأرض. كان زياد يحاول التقرب من النظرية المفيدة وتجارب التطبيق، وكان يسعى لنشر الفائدة على المقربين منه. في ليالي اللقاء والسهر في مزرعته بالدوحة، حيث يتجمع أواخر الليل الأبناء والبنات وأزواجهن وبعض أقاربه، أراد زياد الاستفادة من الفرصة والوقت المتاح، وأصبح يطرح عليهم مواضيع للنقاش، عبر تكليف بعضهم بمراجعة موضوع معين، يعرضه على الآخرين ويفيدهم عبر تقديم المعلومات وتدويرها بالنقاش، وكان بوسع الجميع طبعاً الاستعداد سلفاً في ذات الموضوع لو أرادوا. أحد النقاشات التي طالت لأكثر من جلسة، وكانوا يعودون إليها بين الحين والآخر هو التطنيش، فوائده، طرقه، مضاره.

قال الكثير من الحكماء عن التطنيش، أو التجاهل، ما يحبب الناس فيه. لكن ما قيل لم يفد الأغلبية الذين عرفوا هذه المقولات، فالتجاهل ليس سهلاً على الإطلاق، خصوصاً وأنه يُطلب وقت الغضب وتراكم المصاعب، وبالتالي فوران الغرائز لدى الناس. "التجاهل أبسط شيء تفعله عندما تتزاحم حولك التفاهات" حسب ويل سميث، الممثل الأسود الذي يريد الصعود إلى مصاف الحكماء. أما فكتور هوجو فقال بهذا الصدد "أحياناً يكون التجاهل درساً مفيداً لتلقين بعض البشر آداب الحديث"، بمعنى لو أخطأ أمامك شخص غير مؤدب فعليك تجاهله، طبعاً هذا سهل لو كان الخطأ غير مقصود، أو مهيناً وغير موجه لك، حينها يمكن السيطرة على غرائزك. لكن جورج ماكدونالد، الشاعر والأديب الأيرلندي، يطالب بالتجاهل خصوصاً في وقت الغضب فيقول "التجاهل وقت الغضب ذكاء، والتجاهل وقت المصاعب إصرار، والتجاهل وقت الاساءة تعقل، والتجاهل وقت النصيحة البناءة غرور، فانتبه متى تتجاهل". أما مالكوم إكس فيحذر من أن الإنسان سيخسر الكثير من الأشياء، وأولها العافية، إذا لم يتقن فن التجاهل.

"التطنيش يريح النفس، ويبعد عن الإنسان هموماً وأفكاراً قد تسبب القلق، وهو أيضاً يوفر وقتك لتشغله في المفيد، وينتعش فؤادك كلما استبعدت ما يمكن من مسببات القلق، التدقيق في كل ما يقال عنك، ومن ثم إثارة الرغبة في الانتقام سيعطل قدراتك." قال زياد للمنصتين في جلسة حضرتها، وتبين لي أن الجماعة ينظرون للتطنيش والتجاهل ضمن تعريف مفتوح على مصراعيه. صحيح أن النفس تنشغل كثيراً في شئون القيل والقال وطرق الرد، ومن يطاوع الغرائز قد يشن طوال وقته

حروباً وهمية في ذهنه، وهذا ما يجب التصدي له، ويعتبر التطنيش الداخلي والذاتي أحد طرق التصدي، لكن لا يمكن تجاهل من يلمح عليك في لقاء مع الآخرين، أو يشيع عنك بما ليس فيك، السكوت سيؤدي للتطاول وسيعزز قناعة الآخرين بصدق ما يقال. التطنيش المطلوب ليس بالضرورة من قبل المعني بالقيل والقال، ولكن تطنيش المستمعين وردعهم للمتجني، أي التصدي للظواهر السيئة في المجتمع.

قلت للمستمعين: إنني لا أظن بقدرة الإنسان على التطنيش حسب ما يرون. قد يكون تطنيشاً وتجاهلاً ظاهرياً لإغاظة من يريد دفعك للاشتباك، ولكن في سرك وعقلك لن تستطيع التجاهل، وسوف تنسج له خطط الانتقام، وتستغل أول فرصة تتاح للتطبيق، إن التسامح الحقيقي غير موجود إلا في روايات الأنبياء ومقولات الحكماء، حتى الأنبياء عندما يُستفزون يطالبون العين بالعين والسن بالسن، أو يفقؤون عيون من فقأ العيون، ويأمرون بقطع الأيدي والأعناق عند الضرورة.

استشهد أحد الحضور بقول القرآن: وأعرض عن الجاهلين. في إشارة إلى كون هذا الأمر الرباني مطالبة للمؤمنين بالتجاهل والتطنيش، قلت بدوري: إنه لا يمكن اعتبار كل من يغلط في حقك جاهلاً فتعرض عنه، ومن الطبيعي أن تعرض عن الجاهلين حين تعرف أنهم كذلك. وأضفت القول بأنني أرى تفسير هذه الآية بالأمر الإلهي بالابتعاد عن الجاهلين، وبالتالي طلب العلم والتعلم وعدم مساواة الجاهل بالعالم، والابتعاد عن السفهاء والنمامين. تهلل وجه زياد وقال من القرآن :(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) (القلم)، وهذا يعني ما سمعتوه للتو، قال زياد مؤيداً لتفسيري السابق. أضفت بدوري إعادة تأكيد أن مقاومة المجتمع للنمام والمخطئ في حق الغير هي الوسيلة الأفضل لتقويم المجتمع وإسعاد الجميع. ثم تطوع صديقي لشرح صفات النمام حسب الآيات، التي يطالبنا الله بالتصدي له ولها. قال:

"لا تطع كل حلاف مهين يعني لا تطعه لأنه يكثر الحلف، فالذي دعاه إلى الإكثار من الحلف كون الناس لا يصدقونه فيحلف لهم بالأيمان المغلظة ليصدقوه، وهذه إشارة إلى أنه كاذب وعلاجه عدم تصديقه، لأنه هان على ربه. والنمام هماز بلسانه وعينه، وهو مشاء ينقل النميمة ليفسد بين الناس، فالأجدر بهم ردعه وعدم تصديقه لأنه مناع للخير ومعتدٍ على الآخرين، سواء الذين ينم عنهم، وأيضاً الذين ينم إليهم، والنمام حسب الآيات أثيم متكبر وزنيم، أي ابن زنى لا يكتم الحديث". استمعت مع الآخرين لصديقي، ولم أعرب عما دار في خلدي بأن القرآن لا يطنش كما هو واضح بل يطالب بالردع، ويتهم النمامين بما يليق بهم من صفات. لم أرَ في حديث القوم عن التطنيش ما يضر، وكنت على قناعة بأن أياً منهم لن يطنش إذا تعلق الأمر به، بمعنى

لن يطنش في قرارة ذاته ليريح نفسه، ولكن قلة منهم قد يتسامح ويتجاهل ما يسمع في بعض الأمور، وخصوصاً حين لا يكون بوسعه الرد أصلاً.

قلت لصديقي في مناسبات أخرى: إن التجاهل قد يسبب للإنسان من الأذى ما يفوق لو تجاوب بالكراهية ضد النمامين، فالصراحة والمواجهة أحياناً قد تريح النفس أكثر من الكتمان والتجاهل، والتظاهر بعدم الاهتمام الذي يعطي مفعوله حين تتأكد أن أفعالك أو مواقف الآخرين ستثبت في القريب خطأ وسوء نية النمام. أقصر الطرق لحل مشكلة هو مواجهتها حتى لو كانت مؤلمة، المهم ألا تثور وتترك المنطق والحجة أثناء المواجهة حتى لا تفقد مظاهر الثقة بالذات. حين تعم أو تنتشر ثقافة ردع النمام فإن الكلام الخبيث السيئ القبيح الذي يقال فيك سيضر قائله.

يقال ان الدماغ مثل حلة الضغط واذا لم تتنفس تنفجر، وهذا التنفيس عبارة عن تكسير أشياء او ضربها، وهناك الان أماكن عبارة عن نوادٍ خصصت لهذه الاعمال، يزورها من يظن انه بحاجة للتنفيس فيكسر الاشياء برميها وهو يظن انه يرميها على زوجته او أي خصم آخر.. لكن النظريات النفسية الحديثة تؤكد ضرر هذه المقولة والاعمال المرتبطة بها، وانه من الافضل تجاهل الضغط حتى يقل ويزول من دون تكسير.

عن الحلم والمال

الناس أصناف متنوعة نحتتها وشكلتها الظروف، ومن أفضل الأصناف من هو مستوعب لطبيعة ردود أفعاله، وليس هجومياً أو دفاعياً بالمطلق، أي يوازن بين الأمرين بإدراك. في المجمل هناك أصناف أخرى للشخصيات، مثل الإنسان المستعطف للآخرين بتظاهره أنه يتحمل الأسى والغدر وما شاكله. وهناك الشخص على النقيض، أي اللوام للآخرين الذين هم على خطأ ويتحملون مسؤولية كل شيء. وبالطبع يوجد الكثير من المشوشين المراوغين الذين يغيرون مجرى الحديث كلما شعروا بالحرج أو اقترابه، وبالقرب منهم هناك أبو الحلول لأية مشكلة لو فقط استمعوا إلى نصيحته، وبعضهم لديه طاقة إيجابية يسال عن أسباب المشاكل ثم يبحث عن الحلول، وهذا أقرب إلى أبو العُريف. شخصية زياد مركبة من هذا الخليط، فهو قد أصبح في السنوات العشر الأخيرة من عمره أكثر تحكماً في ردود أفعاله، وأقرب إلى أبو العُريف، ومشاركاً اجتماعياً مع الآخرين، يقدر آراء الغير ولكنه في الأغلب يعود لآرائه الذاتية.

يقال إن أقصى غايات الصداقة، التي لا مزيد عليها، من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك، وآثرك على من سواك. لقد سألني زياد أكثر من مرة عندما نلتقي إذا كنت بحاجة إلى المال، فأشكره وأشرح له مصادر دخلي وكفايتي والحمد لله، وأؤكد له أنني عندما أحتاج لن أسأل غيره. لم يكن يعلق أو يبدي اقتناعاً، فقلت ذات مرة، قبل سنوات من اكتشاف إصابته بالسرطان، قلت إنني أوصيه إذا مت قبله أن يرعى حاجة الزوجة إذا احتاجت. ضحك وقال: لا بأس، إنها مثل أختي في حياتك ومماتك. لم يخف علي سبب ضحكه، فهو يعرف أن لزوجتي أربعة أخوة لن يتركوها تحتاج، وهو يعرف قصة نجاح أحدهم الباهرة، وكان دوماً يسألني عن تطوراته كونه يشابهه في العصامية وإدمان العمل وينافسه في كثرة المال. لكن اتضح لي أن ضحكته كانت لسبب آخر، إذ قال: سأموت قبلك، وربما سبقتك زوجتك أيضاً إلى الموت..، قاطعته بنظراتي فأضاف: هل نسيت حلمك الذي فسرته لك؟

تذكرت ذلك الحلم الذي قصصته في حينه على صديقي بكل تفاصيله، فقال لي آنذاك إن عمري سيطول، وأضاف: إنني سأبقى من بعده لعمل أشياء محددة، وذكرها لي. كان الحلم أنني رأيت نفسي وقد عدت إلى موطني في سيارة مستأجره، ووقفت في مكان أعرفه في السوق على مرأى من دكان يجلس أمامه مجموعة أشخاص أعرفهم، وأظن أنهم كلهم قد ماتوا منذ زمن، قبل أن أصل على قدمي إلى الدكان خرج منه والدي، الذي يعرف زياد جودة العلاقة بيني وبينه وتميزها. نظر الوالد إلي

بشكل غاضب، وتناول مكنسة من أمام الدكان وهددني بها وطردني من هناك قائلاً: ماذا تريد، لماذا حضرت، اذهب من هنا. نظرت إلى الآخرين أمام الدكان ولم أسمع منهم تعليقاً، أو ألمح أي تعبير على محياهم سوى الحيادية التامة. استدرت مكسوفاً وركبت سيارتي وغادرت المكان. هذا هو زبدة ما ذكرته لزياد مما تذكرته من الحلم، الذي التصق بتفاصيله في ذهني بعد أن صحوت، على عكس الكثير من الأحلام التي تطير بمجرد فتح عيوني.

يرى الإنسان في الحلم من انشغل ذهنه فيه، من أحبه، وبالتالي يتزاورون في الأحلام حتى لو كان أحدهم قد رحل عن الحياة، أو سافر إلى مكان بعيد وانقطع معه الاتصال، لكن الحلم لا يتعدى مكنونات العقل الباطن الذي ينشط دون رادع أثناء نوم العقل الواعي، وبالتالي لا جدوى من تواعد الأحياء على التزاور في الحلم بعد موت أحدهم، ولا معنى لتفسير الأحلام، لأن الحلم مرتبط عشوائياً بالذاكرة والتجارب والعواطف التي حدثت، أي هي انعكاس للماضي ولا علاقة لها بالحاضر والمستقبل لكن العقل يحاول ربطها ومنحها معنى.

ضمن الكتب في بيت زياد واحد عن تفسير الأحلام، وقد أهديته عنواناً آخر في ذات المجال، اشتريته أثناء تجوالنا سوياً في معرض الدوحة للكتاب. لم يكن صديقي مفسراً للأحلام بقدر ما هو متأمل فطن. أصبح بعد ذلك الحلم، وقبل سنوات من اكتشاف السرطان في رئتيه، على ظن بأنه سيموت قبلي، وصار بالفعل يتطرق كثيراً لموضوع الموت، وماذا سيحصل لهذا وذاك وأولئك لو "فقعتها موته" الآن، وماذا أمن وأنجز للآخرين ولربه، وماذا تبقى عليه عمله. كنت أقول له إن مشاكل المال في الحياة وبعد الموت أكثر من مشاكل الفقر المالي، وكنت أذكره بقول لصديق أسباني، كان يردد عندما يأتي ذكر هذه المشاكل في أحاديثنا، إنه يفضل مشاكل كثرة المال على مشاكل قلته. المشاكل المتولدة من المال في الحياة يعرفها من يملكونه، وقلة من الفطنين، ومشاكله بعد الموت مرتبطة بالغني الذي مات، وبأهله من الورثة.

الميت سيحاسب بقدر ماله وما كان يتوجب عليه فعله، وهذه محاسبات لا يواجهها الفقير في الحياة الأخرى، ولا مشاكل أيضاً لورثته في الحياة الدنيا، إلا إذا ترك لهم بعض الديون التي عليهم تسديدها، بينما ورثة الأغنياء في العادة يدخلون في صراعات، ثم يواجهون إشكاليات التصرف فيما ورثوه، كونها أموالاً وأعمالاً لم تكن في مجال حياتهم اليومية الشخصية وعاداتهم، فُتخرج بعضهم عن أطواره الى درجة الاختلال العقلي والاخلاقي، ويصاب العقلاء والمتضررون بصدمة من جراء تصرف من ظنوهم غير ذلك. عندما كنت أدرس في المانيا فاز طالب سوري باليانصيب وقبض بضعة ملايين من الماركات .. على الفور اشترى سيارة بورش

بثمن باهظ، وخرج من بيت الطلاب الى بيت اشتراه، ولم يتمكن من انفاق المال اذ سبقه الموت على شكل حادثة سير في البورشة الجديدة التي لا يمكن لمن كان يركب الترماي ان يقودها بجودة وامان .. عقله ضرب، الله يرحمه.

يتأثر الناس عموماً أثناء حياتهم بعوامل أساسية، مثل المال الذي هو مطمعهم، والطرب الذي يدمجهم سوياً لفترات محدودة، والحزن الذي يوحدهم حتى زوال أسبابه، والدين الذي يوهمهم طوال حياتهم، كما تؤثر السياسة في الناس، وفي المقام الأول تفرقهم. يميل الناس للمال بدرجات غير عقلانية، وإلى درجة أن الكثيرين يضحون بأرواحهم أكثر مما يضحون بأموالهم، ذلك لظنهم أن المال عصب الحياة، وبالتالي يفضلون الإكثار منه وجمعه. في حقيقة الأمر، وكون معظم الأموال الفائضة عن الحاجة اليومية مودعة في البنوك، أو المصالح تتكاثر أو تتناقص، فإن من يكتفي بقليل المال الذي يملكه يساوي في الغنى كثير المال، وربما كان قليل المال أسعد وأبهى من صاحب الكثير، خصوصاً إذا عرف كيف ينفق ويستمتع ويرضي معتقداته. وقد كان صديقي زياد يملك المال وينفق مقارضاً ربه ولا ينتظر رد الإحسان ممن أحسن إليه، وكان يعرف الحاسدين وذوي التراكيب الخبيثة، ولكنه يتفاداهم بقدر الامكان ويبتعد عن الطماعين، عملاً بحكمة أن الطمع أصل لكل ذل، ولكل هم، وهو خلق سيء ذميم. بينما نزاهة النفس نقيض الطمع، وهذه صفة محببة للعقلاء كونها مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم. أما الطمع فتركيبته خليط من الجبن والبخل والظلم والجهل، والطمع هو الذي يذل صاحبه حتى لو كان من أصحاب المال. أعترف هنا ان زياد كان يعرف طماعين ويتعامل معهم تأدباً منه ومراعاة لعلاقة او معرفة قديمة، وللاسف انه لم يحسم معهم في فترة المرض سواء لصعوبة الحسم أقتصادياً او لظن صديقي ان الموت لن يوافيه في القريب. هؤلاء الطماعين وبعد عام كامل لا زالوا يراوغون في تسديد ما عليهم، وغيرهم من البخلاء انعدمت نخوتهم ويرفضون شراء حصص زياد باسعار منطقية. لكن وللحقيقة ثبت شهامة ومرؤة من لم يكونوا أصدقاء، فقدموا المعلومات والدعم واعترفوا بما عندهم لزياد حتى وان لم يكن موثقاً.

الطمع والنزاهة وتراكيبهما تمثلان جزءاً من الأخلاق والصفات التي استحكمت في الناس. هناك أيضاً أهل النفاق الذين يمدحون في الوجه ويذمون في الظهر، وهذه صفة واسعة الانتشار. يأتي بعدهم الوقحون العائبون الذين يذمون في الوجه والظهر، ويسبغون الذم أحياناً بالمزاح، بينما أهل الخير يمدحون في الظهر، أو يمسكون عن المدح والذم بشكل عام.

طلب مني زياد أن أصحبه إلى لقاء غداء عمل في بيت صديق له دعا ثلة من معارفه، سألته مستفسراً عن الضيوف، وعرفت أنهم خليط ممن استنتجت أنهم طماعون ومنافقون أصحاب مراكز، والذين يسهلون مهام رجال الأعمال مقابل براطيل. قلت لصديقي: اعفني من الذهاب، وأظهرت استغرابي من هذا السلوك، فقال إن صديقه رتب الأمر ويصعب الانسحاب، ولن نخسر أي شيء خصوصاً وأنني غير ناوٍ على عمل ما يظنون. وأضاف: أنت كاتب، وبالتأكيد ستكون لك فائدة في مراقبة والاستماع إلى القوم، وربما قدح ذهنك بعض الخواطر. وافقته وذهبنا، وخرجت فعلاً بفوائد، أهمها التأكد من حقيقة مقولة أن سمات الناس في وجهوهم وأجسادهم وتصرفاتهم، ثم تتأكد الأمور في أحاديثهم. سألت نفسي إذا كان أمثال هؤلاء يعرفون ذواتهم وصفاتها، وماذا يخبرهم العقل الباطن حين يحلمون؟

كنت من ملاحظات سابقة ومراقبة لتصرفات اخرين قد استنتجت اذلال المال السهل لطالبه، فمن يتسول من الاخرين يتذلل لهم، ومن ينتظر الهبات او يطلبها او يستجديها يجد ذاته يتصرف بذل يؤثر على نفسيته سلباً فينافق ويكذب لنيل المال، ومن يبحث عن الكنوز المخفية ويسعى لجوائز اليانصيب لديه عقلية مختلطة بين السخف والطمع وذو قابلية للغش. المال يؤثر في غالبية الناس، ولكن تأثيره على الفقراء اشد لظنهم بقدراته في التاثير عليهم فتراهم يتقبلون الكثير من الضيم والذل ويبذلون التملق لنيل المال او ضمان العمل او الامل في زيادة نقدية. كما لاحظت من مراقبة الناس ان الخبيث يظن ان بقية الخلق يتصرفون بخبثه او بأشد منه وانه الصالح بين الطالحين، لاحظت ذلك في الماضي وتأكدت منه وانا اتابع تصرفات أناس كانوا محل ثقة زياد.

اصطفاف البلاوي

ودعت الحاجة أم زياد وتوجهت مبكراً إلى المطار، فقد عزمت على زيارة صديقي ووداعه مرة أخرى بهدوء. تقع مقبرة ابو هامور على طريق المطار، وقد سجلت موقع القبر أثناء الدفن على هاتفي الجوال، وزرته يومياً أثناء أيام العزاء، ، حيث الاحياء يعزون ذاتهم وأهل الفقيد، ويتحادثون في شؤون حياتهم، ويتناولون الطعام في موعده ويترحمون على الميت الذي تركوه في القبر.. كنت أصب الماء على حجارته، واتفقد مسبحة تركتها أخته على الشاهد، ونثرت حبات قمح حتى تزوره العصافير في الصباح وقبل المساء، وأوصيت من يمر كل يوم جمعة لينثر المزيد منها، فقد تنبت اخضراراً في ذلك المكان الأجرد تماماً إلا من شواهد القبور المرقمة ودون أسماء كما هي عادة أهل السنة هناك، بينما القسم المخصص لأهل الشيعة تخط على شواهده الأسماء، وتوضع فوق القبر بلاطات بآيات قرآنية. لقد دفن زياد في بطن حفرة لأرض رملية بيضاء غير متماسكة مليئة بالحجار، ثم حُفر في جانب الحفرة كهف صغير بطول الجثمان، وأغلقت ببلاطات أسمنتية مائلة قليلاً، وأغلق أولاده بالطين المبلول فراغات ما بين البلاطات، وردمت لاحقاً جرافة صغيرة المكان ووضعت الشواهد. هذه الطريقة متبعة أيضاً في شبه الجزيرة العربية حتى لو كانت التربة رملية، فتلك هي الطريقة الوهابية للدفن وللقبور عموماً، لا بناء يمنع الانهيارات، أو غطاء علوي، ولا أسماء على القبور ولا زرع حتى لا يتشجع الزوار، بل زيارة القبور غير محببه ولو تمكنوا لمنعوها. في الدول الاسلامية غير الوهابية يوضع الميت في بناء من الطوب مثل التابوت ويغطى بقطع باطون ثم يهال عليه التراب من دون خوف لحدوث انهيارات، وقبل عقود كانوا يبنون قبة حول جثمان الميت ويغطونها بالتراب.

قيل إنه: في غرائز البشر صراع دائم بين الموت والحياة، تتغلب الحياة وتنجو من الموت بالصدفة أحياناً، أو بالإرادة الربانية أو الحظ، لكن في النهاية لا بد من الموت. طوال الحياة كل منا معرض للموت، أثناء الولادة أو الرضاعة أو الطفولة، وفي عز الشباب حين نتصور أننا أقوياء أشداء أصحاء فيأتينا الموت من بعوضة أو ذبابة أو جرثومة، أو خلية مختلة نعجز أصلاً عن رؤيتها، أو بالطبع من جراء الشيخوخة والوهن. زال خطر الحيوانات المفترسة التي كانت ترعب أجدادنا الأوائل وحل بدلها المرض المستعصي والحروب الخرقاء، والحوادث المتزايدة بأنواعها. يأتي الموت للبعض فجأة ولآخرين بإنذار مسبق، لكنه دوماً يسرق منّا الفرحة والسّعادة، ويقلب حياة الأقربين رأساً على عقب، يخطف منّا أحبّتنا، ويفرّق جمعنا، ويُخيّم على قلوبنا

الحزن إلى حين، وكلما هبت لاحقاً نسائم الذكرى. عندما يرحل الأحبّة لا نصدّق أنّهم لم يعودوا موجودين في عالمنا، لا نصدّق، ولا نريد أن نصدّق، أنّهم رحلوا وتركونا نعاني مرارة فقدانهم. الموت لا يستأذن أحداً، ولا يجامل أحداً.

كان زياد يحب الصحابة، ويُجل آل البيت، ويعتبر علي بن أبي طالب فارساً وحكيماً، وأرى أن هذا الشعر، المنسوب إلى ابن عم الرسول وصديقه ورفيقه وصهره، يعبر عن واقع زياد في الحياة ويبشره بالجنة التي أمن بها في الآخرة:

النّفس تبكي على الدّنيا وقد علمت أن السّعادة فيها ترك ما فيها

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلّا التي كان قبل الموت بانيها

فإن بناها بخيرٍ طاب مسكنه وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدّهر نبنيها

أين الملوك التي كانت مسلطنةً حتّى سقاها بكأس الموت ساقيها

فكم مدائن في الآفاق قد بُنيت أمست خراباً وأفنى الموت أهليها

لا تركننّ إلى الدّنيا وما فيها فالموت لا شكّ يفنينا ويفنيها

لكلّ نفس وإن كانت على وجل من المنيّة آمال تقوّيها

المرء يبسطها والدّهر يقبضها والنّفس تنشرها والموت يطويها

إنّما المكارم أخلاق مُطهّرة الدّين أولّها والعقل ثانيها

والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والفضل سادسها

والبرّ سابعها والشّكر ثامنها والصّبر تاسعها واللّين باقيها

والنّفس تعلم أنّي لا أصادقها ولست أرشد إلا حين أعصيها

وأعمل لدار غد رضوان خازنها والجار أحمد والرّحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها والزّعفران حشيش نابت فيها

تذكرت تلك الأبيات بجانب زياد، وأرسلت صلاح، ابن أخي الذي يرافقني للمطار، أرسلته لجلب بعض الماء، وتمنيت لمن في القبر بصوت مسموع، أن يحقق الله له ما كان يتمناه في حياته لآخرته. "آسف يا صديقي أنني لم أكن بجانبك في اللحظات الأخيرة، أهون عليك، أبلغوني هنا وبعد فوات الأوان أنك طلبتني في اليوم

قبل الأخير، وأعرف أن الصديق يطلب صديقه الحق على فراش الموت. كنت على تواصل يومي لأعرف أخبارك، لكن القوم انقسموا بين موافق ومعارض لإبلاغي، بعضهم يشفق عليك، ويريد تحقيق رغباتك، وآخرون يشفقون علي، ويريدون أن أحتفظ بذكراك بعيداً عن فراش الموت، وعرفت منهم انك طلبت تذكيري بما تحدثنا عنه، فأطمئن. لقد شاهدتهم يغسلونك بالعنبر، وطفت حول المسجد وهم يصلون عليك. أنت تعرفني في هذه الأمور أليس كذلك، وكما قلت لك إذا كنت أنت المحق فتوسط لي. إذا كانت الأمور عندك الآن كما تصورت أنت يا صديقي، فسلم لي على الأب والأم والأخت والأخ والأشقاء، وكل من تقابلهم من أهل الخير والطيبة، وسأراك إن عاجلاً أو آجلاً، وإذا لم تكن الأمور كذلك فلا ولن تحزن لأنني لن أنساك أبداً ما حييت، سأتذكرك كلما رأيت أو أكلت ما رأيناه وأكلناه سوياً، سأراك في حِكم الحياة التي أتقنتها أنت، وفي أسباب الضحكات التي اشتركنا فيها، وسأتذكرك حتى أكف بالفناء عن التذكر. هل تتذكر ما أوصى فيلسوف مدينة جدارة بكتابته على قبره: "أيها المار من هنا، كما أنت الآن كنت أنا، وكما أنا الآن ستكون أنت، فتمتع بالحياة لأنك فان". لن ينفعك هذا كثيراً حيث أنت، أو حيث لا تكون، ولكننا بشرٌ وستبقى صديقي زياد، وذكرى طيبة في فؤادي حتى أزول أنا الآخر، وأنزل من فوق الأرض إلى تحتها.

حافةُ الموتِ والحياة

الدنيا والآخرة

في الأسبوع الأول من مايو 2019، وبعد تسعة أشهر من وفاة صديقي زياد، توقفت عن الكتابة، وهذا ما أفعله في العادة لأسباب متعددة. قطعت العمل وذهبت مع زوجتي لزيارة ابنتي الثانية وزوجها السويدي في النرويج، حيث حضرت البنت الأولى أيضاً من لندن ومعها أحفادي، وكان والدهما الأفريقي قد تسلم وظيفة جديدة في غانا فلم يحضر. قضينا أسبوعاً ممطراً بارداً جميلاً، بينما كانت الحرارة في الشرق الاوسط في أواخر رمضان تناطح الخمسة وأربعين درجة مئوية. إلى جانب المتعة أرهقت نفسي في أعمال نجارة لبيت ابنتي، ثم توجهنا إلى باريس للاستراحة والاستجمام لدى عائلة الأخ الاصغر الذي سمى ولده باسمي. كانت باريس قذرة الشوارع على غير عادتها، والغبار يتطاير ويهيج العيون. بعد أقل من ثلاثة أسابيع عدنا إلى بيتنا، وقررت إجراء بعض الصيانة فيه. ومجدداً قسوت على نفسي في العمل الجسدي، لأنتهي بسرعة وأعود للكتابة بأفكار جديدة لاستكمال هذا العمل. لقد بلغت السابعة والستين ولكن عقلي يتصرف من منطلق لا يتجاوز الثلاثين، وكلما طاوعته جهداً أنال عقابي ويذكرني جسدي بعمري الحقيقي.

يوم الخامس عشر من يونيو توقفت عن العمل في الصيانة لتناول الغذاء، شعرت بدوخة وعرفت فوراً أن ضغطي يهبط بسرعة، نزلت عن الكرسي لأتمدد على الأرض، لكنني سقطت مغشياً علي، وغبت عن الوعي لبضعة دقائق لم أستجب فيها لزوجتي، صحوت وتمكنت من الوصول للفراش بانتظار صديق حضر وساعدني على التحرك للسيارة. بعد أقل من نصف ساعة من الإغماء قيس ضغطي في قسم الطوارئ واتضح أنه اعتيادي، أي كان ضعف الأرقام التي قيست في البيت بُعيد الإغماءة، هذه بالطبع أعراض جلطة، لكنني لم أشعر بتغير في الكلام، أو أداء اليد والساق وشكل الوجه. طلبت طبيبتي إجراء فحوص شتى قبل مغادرة المستشفى، وكانت قد فحصتني سريرياً ولم تجد أية أعراض جسدية. ظهرت النتائج وتبين أن الكرياتنين عالٍ جداً، ولم يكن كذلك قبل ثلاثة أشهر، والكرياتنين يتعلق بعمل الكلى، ولا علاقة للأمر بالإغماءة التي حصلت لي، لكن طبيبتي تخوفت من عطل الكلى، وبقيت في المستشفى معي لساعات بعد نهاية دوامها، حتى تأكدت من نتائج صور للكلى والمثانة وتخطيط القلب وفحص صدى القلب وعمل الشرايين في الرقبة، وذلك كله للتأكد من وصول الدم والأوكسجين للدماغ، وطلبت مني عمل صور رنين مغناطيسي في القريب.

وضعتني طبيبتي على محلول في الوريد بكمية لتر يومياً ولثلاثة أيام متتالية لتغسل الكلى تماماً، وبالفعل عادت نسبة الكرياتنين لمستواها الطبيعي، لكن الصورة المقطعية للدماغ أظهرت آثاراً تم تفسيرها كجلطة صامته قديمة قبل أشهر، ولم تظهر آثار أية جلطة جديدة. والجلطة الصامتة تحدث دون أن يشعر الإنسان بها، ولا تظهر لها أعراض، لكنها بالطبع خطرة إذا تكررت ولم تعرف أسبابها. هكذا توجب إجراء عمل رنين مغناطيسي على أحدث الأجهزة، وعمل تخطيط لكهربة المخ، بحثاً عن سبب الإغماءة، وحولتني الطبيبة إلى أخصائي دماغ وأعصاب معجبة به، وعرفت لاحقاً أنه كان أستاذها في الجامعة.

في مثل هذه الظروف تبدأ في التفكير في الحياة والموت، والتخطيط الفوري لكل منهما، ويتوجب عليك مراعاة الأقربين إليك، هل تشعرهم ومتى؟ وأن تراعي ظروف الزوجة التي تصبح تحت ضغط نفسي هائل، وبالطبع تصبح العلاقة مع الأطباء سلسة استسلامية لما يقولون ويشورون، وليس كما في الظروف العادية تجادلهم في ضرورة كل دواء، وتتجاهل نصف نصائحهم. في حالتي عادت إلي الذكريات مع صديقي زياد، خصوصاً في فترة مرضه، حيث تمسك بإيمانه، وجارى كل الأطباء، وجرب كل الأدوية الكيماوية والعشبية والوصفات الشعبية البدوية والفلاحية. أراد الحياة ولم يخف من الموت، ولكنه كان قلقاً. يأتي القلق عندما لا تعرف السبب، ولا تتوقع النتيجة والمصير والموعد، وحينما يُعرف السبب وتظهر الاحتمالات للعلاج من دونه يزول القلق ويحل الخوف أو الاطمئنان. كان زياد يتحكم في عواطفه، وللحقيقة لم اره باكياً او حتى دامع العين رغم اشتراكنا في مواقف مؤثرة، لكن نهنهة صدرت عنه وتم ضبطها سريعاً حين عرف ان السرطان انتقل الى العمود الفقري.

عندما عدت من الطوارئ في اليوم الأول، أخبرت زوجتي بحتمية الموت للجميع، وبأننا حصلنا على حياة جميلة منتجة، وأخذنا ما يكفينا، وذكرتها بأنني اخترت مكان الدفن، وكنا قد رتبنا في السابق ما يجب عمله إذا غادرت الحياة قبلها. تظاهرت بالتقبل ولكن الحساسية ظهرت طفحاً على وجهها في الايام التالية، نتيجة للضغط النفسي والتوتر الذي كانت تحاول إخفاءه. بالنسبة لي، كنت مرتاحاً مطمئناً لإيماني بأن كل البشر سيموتون، وأن النهاية قبل تكاتف الأمراض عليك هي نعمة، وأنا من مشجعي الموت الرحيم الممنوع في الدول الإسلامية، وهو اختيار الانسان، وهو في كامل وعيه، أن يتم إنهاء حياته بإشراف طبي إذا تعرض لأمراض تفقده السيطرة الفكرية والجسدية، لكن وطننا ليس سويسرا، وبالتالي قد يتعذب المريض لفترة، ويرهق أهله وذويه في محاولات لتجنب المحتوم.

تصورت وتذكرت أن المتدينين في وقت الشدة، ومنذ أزمنة غابرة، ينذرون النذور إذا نجوا من المرض، أي رشوة للآلهة، وأعرف أنهم كانوا ولا زالوا يكثرون من التقرب للسماء، ويكررون المصطلحات الدينية، ويتمنون ويتقبلون أدعية الأهل والأصدقاء لهم بسرور، وهناك من يظنون أن الدعاء الكثير من الغير قد يُشفي، ويؤدي للنجاة من أمر محتوم، أي إذا تعاظمت رغبة الكثير من البشر لإنقاذ مريض بالدعوات فبوسعهم ذلك. شخصياً لم تؤد هذه التجربة الجارية لأي شيء معي من ذلك القبيل، ولم تغير قناعاتي حول الديانات والمتدينين. خطر لي قبل تأكيد الرأي بعدم جدوى الدعاء تفحص ما يتوفر علمياً، فوجدت أن تجارباً قد أجريت منذ عام 1872 ولكن دون إثبات للجدوى. آخر التجارب قام بها فريق من جامعة هارفارد بتمويل من مؤسسة تيمبلتون الدينية، وشملت 1802 كانوا يستعدون لإجراء عمليات قلب في عدة مستشفيات. وزع المرضى عشوائياً إلى ثلاث مجموعات متساوية، وطلب من دور عبادة للديانات الرئيسة الدعاء للمرضى بنجاح العملية. المهم هنا أن التجربة حددت سلفاً إبلاغ مجموعة من الثلاث أن أناساً مؤمنين سوف يدعون لهم بالشفاء، أما المجموعة الثانية فلم تُبلغ بالأمر، بينما المجموعة الثالثة لم يطلب لها الدعاء أصلاً. جاءت نتيجة عمليات المجموعتين الثانية والثالثة متقاربة، بينما ساءت حال المجموعة الأولى بنسبة 12 بالمائة عن البقية. يعتقد العلماء القائمون على هذه الدراسة الأحدث أن إبلاغ أعضاء المجموعة المتأثرة سلباً خافوا حين عرفوا أن العلم والطب لجأ للدعاء في بيوت العبادة، وظنوا أن حالتهم صعبة للغاية، فكانت النتيجة تدهور حالات أعلى من المعدل بينهم.

تفكير غالبية الناس في الرحيل يرعبهم، كونهم سيختفون تماماً، ليس ليوم أو سنة أو عدة قرون، ولكنه اختفاء أبدي، إذ لم يعد أي واحد ممن رحلوا ليعطي بعض الأمل، أو يتحدث عن لقاء الأحبة والأصدقاء في حياة أخرى. أتفهم الآن بشكل أفضل ذلك الخوف من العدم، والرغبة في تصديق وقائع الحياة الآخرة، والشفاعة المنتظرة ونعيم الجنة المبالغ فيه بشكل يستوجب مراجعة منطقيته، لكنني على قناعتي أن نهاية العمر تعني النهاية الفعلية، وعدم العودة بأي شكل لاحقاً، وكل ما هو غير ذلك يرتبط بمعتقدات متوارثة بين البشر منذ القدم، وشكلت أساساً للأديان بأنواعها، كون الإنسان لا يريد أن يصدق أنه لا شيء، وحين يموت سينتهي، كما أن الأحياء من الأهل والمحبين يشعرون بالأمان والرضى وهم يعتقدون أن الراحل مصيره دخول الجنة. تخيلت الموت عندما هبط ضغطي بسرعة، فقدت السيطرة ولم أشعر بشيء أثناء الإغماء الذي استمر لخمس دقائق حسب مراقبة زوجتي. كنت أتنفس وأنا متمدد على جنبي الأيمن، وهذا التموضع تعلمته في دورات تعلم الطيران، وعلمته لزوجتي

فنفذته عندما سقطت مغشياً علي. لم أكن واعياً بأي شكل، وهذا هو الموت إذا لم تفق، أو ابن عمه إذا أفقت من الإغماء.

بين العلمِ والاتكالية

أتصور أنه في زمن ما قبل الأديان السماوية كان الإنسان أكثر حرية وتفكيراً في البحث عن منبعه ومصيره، وعندما سادت الأديان بالتوالي استقرت الأفكار لفترات يتم فيها الإجماع بين الأغلبية على معتقدات، ويُنبذ الآخرون وتتولد الخلافات والاقتتال والحروب، وهذا يُخيف ويحد من التفكير والابتكار. كان الإنسان دوماً يبحث عن حلول علمية منطقية وعملية لأسئلة وجودية، فجاءت الأديان كل مرة لتحسم الأمر، وتطالب بالإيمان الأعمى ووقف التفكير وزندقة الحوار. هكذا سادت الكوارث والحروب الأهلية، وسيطرة الكنائس والكنس، وتحالفها مع فئات استغلالية لفرض الإيمان، وإقناع الاتباع بالصبر على مصيرهم التعس في الأرض، ووعدهم بنعيم في السماء. منذ ذلك الحين تولدت تفسيرات رئيسة، منها الديني السماوي، والروحي الغامض، حتى تراجعت هذه الرؤى بعد قرون طويلة في مجتمعات أصبحت أفضل من غيرها وانتشر التفسير المادي، وبالطبع التفسير العلمي الذي تنامي وتسارع منذ بداية القرن الماضي.

التفسير الديني السماوي يعتمد وجود قوى خارقة بعضها خير وبعضها شر، وأن قوة عظمى حددت المسير والمصير. هذا يعفي من المسؤولية، وبالطبع يخلق الاتكالية وسلبيات أخرى. علينا تذكر ان التفسير الديني في اوروبا مثلاً كان حتى ثلاثة قرون خلت يؤمن بالسحر والساحرات الطائرات على المكانس ويحاكمهن بهذه التهم ويحرقهن في النار عقاباً لهن، وذلك بتأييد من القانون والدين والمجتمع، ولم يفكر اي مسؤول بالاستفادة من قدرتهن على الطيران .. فقط ذات مرة في انجلترا اعترفت عجوز بأنها ساحرة وتطير فقال لها القاضي: لا يوجد ما يمنع الطيران على المكانس اذا كان ذلك يسعدك، وانهى القضية المرفوعة ضدها.

التفسير المادي يعني التفسير المنتمي للتفكير، وقناعة أن كل عمل تسبقه فكرة أوجدته. هكذا إذا وجد قائد مفكر مُطاع، أو مجموعة من المفكرين، في أجواء تتقبل الفكر والعمل المرتبط به، فإن الأمور تسير إلى الأفضل، وكلما تعاظم حجم التطور القائم على الفكر والعمل تسارع هذا التطور وتنوع، وبالتالي تزداد الهوة بين هذا المجتمع حر التفكير سريع التطور وبين غيره الذي لا زال ينتمي إلى، وتسود فيه، القناعات الميتافيزيقية الإيمانية الثابتة الشبيهة بما ساد في اوروبا من تصديق بالسحر والشعوذة والخوف من الشياطين والغيبيات العديدة ويعاقب من يفكر خارج الاطار.

هذه الأمور هي التي تولد لدي شخصياً قناعة بضرورة العمل في هذه الحياة، وأيضاً التمتع بها، والنضال لانتزاع الحقوق أثناءها، وعدم انتظار الإنصاف بالضرورة في حياة أخرى بعد الموت، الذي هو نهاية المطاف في كل الأحوال، فالمهم هو نفي الاتكالية وتسويغ التصبير، وعدم التحمل للظلم على الأرض في انتظار النعيم بعد الموت، فهذه المعادلة تحقق استمرار الجمود والتخلف وعمق الهوة عن العالم المتمدن لقرون قادمة. نظرية الحياة الاخرى يمكن الاخذ بها من باب الايمان الاحتياطي، لكن في الحياة الاولى يجب ان تسير الامور بجدية وعدالة وحرية ومتعة.

في الزيارة الثالثة لطبيبتي الشجاعة إثر هذه الأزمة الصحية التي ألمت بي، والتي أصبحت تخاطبني بصديقي، وقبل أن تحولني إلى طبيب الدماغ والأعصاب، قلت لها إنني أشعر بتعب وإرهاق غير معتاد. على الفور طلبت فحص دم لمعرفة أداء الغدة الدرقية، واتضح أن الغدة قررت التكاسل، بما يتوجب ابتلاع دواء بدل هرمونات الثيروكسين وغيرها مما تنتجه الغدة، وذلك الدواء له تأثيرات جانبية كثيرة، عايشت منها في اليومين الأولين الصداع والإسهال وألماً في الصدر، وأصبحت أفكر في مناقشة طبيبتي إذا استمر هذا الأمر، ولكني أجلت ذلك لما بعد استلام تقرير صور الرنين وتخطيط الدماغ، وسماع رأي الطبيب المختص في سبب الإغماءة، وبالطبع انتظار إمكانية أن تزول التأثيرات الجانبية للدواء بعد أيام، فوضعي يتطلب العمل بفلسفة الاهم اولاً، فالمهم لاحقاً.

طبيبتي محبوبة من كل مرضاها، وهي تعطي كل واحد الوقت الكافي، ما يزعج المنتظرين الآخرين على الدور حتى يحين موعدهم، فلا يستعجلون الخروج من عندها. وهي فريدة بالنسبة لي حتى الآن، كونها تعمل ملفاً لكل مريض فيه كل معلوماته ونتائج فحوصه وأدويته، وذاكرتها ممتازة بالرغم من إصابتها بسرطان الدم. تعالجت ولا زالت تتعالج، وتداوم مع مرضاها، وهذا ما حولها إلى أيقونة في المثابرة والصبر وقوة الإرادة، ومنحها سلطة مُطاعة لدى المرضى، ولكني أشفق عليها في أغلب الأحيان، وأرى كيف تقسو على نفسها، وتبادلني المعلومات عن وضعها الصحي فيزداد إعجابي بقوة إرادتها، وتذكرني تصرقاتها بصديقي زياد.. وهي محجبة ومرحة، وقد أخفيت عنها معلومة أنني أتناول القليل من الكحول كل أسبوع، وفي المناسبات، لم أرد جرح شعورها فأخفيت عنها المعلومة حين سألتني.

السبب في هذا السرد الشخصي هو انتهاز فرصة هذا المرض المجهول للآن، وما يسببه من قلق لي، لتحسس ما شعر به صديقي زياد، الذي كان حتى قبل شهر من نقلة النهائي للمستشفى على قناعة بأن الله سيشفيه. بالنسبة لي في أزمتي الصحية

وحتى معرفة نتائج الفحوص فكل شيء ممكن، وهذا يعني احتمال وجود خلل في الدماغ يؤدي إلى سكتات دماغية صامتة أو عادية، والسكتة بالنسبة لكبار السن هي بداية الانهيار السريع، وقد تكون قاضية إذا لم تكن قريباً من مستشفى حين حدوثها. وبالطبع قد تثبت النتائج عدم اكتشاف أي شيء، وتتحول هذه الأزمة إلى فرصة أظهرت مشاكل أخرى في الجسم، نسعى الآن للتعامل معها. كنت أعرف من سنوات بوجود نبضة زائدة في كهرباء القلب، وبعد هذه الأزمة قررت الطبيبة إعطائي دواء ينظم عمل القلب، واكتشفنا في الوقت المناسب زيادة الكرياتنين وأسبابه وتعاملنا معه، ثم ثبت تكاسل الغدة، وقالت طبيبتي وهي تضحك "سنعيدك شباباً"، وكتبت لي ذلك العلاج المزعج. لحسن الحظ أنني طالعت معلومات هذا الدواء قبل استعماله، وعرفت التأثيرات الجانبية المتوقعة، ولولا ذلك لازداد خوفي من ألم الصدر ظناً أن القلب سببه، لكن الصداع يذكرني بما عاناه صديقي زياد طوال الأشهر الأخيرة من حياته، علماً بأن حجم معاناتي من الصداع لا تعادل ولا تقاس بما عاناه. كسل الغدة يؤدي إلى التعب وأشياء أخرى، وهذا الدواء التعويضي يزيد الوزن، وأنا أريد التغلب على التعب، وإنقاص الوزن أو الحفاظ عليه، إذ خفضته عشرة كيلوجرامات في الأشهر الأخيرة، وصغرت حجم خصور البنطلونات، وفتحت أماكن جديدة في الأحزمة كلها، ولا أريد الآن زيادة في الوزن وملحقاته من الكوليسترول والإعياء. إنها حلقة تتطلب الحرص والمثابرة والهدوء، ولذلك بدأت أمارس اليوغا بقدر ما أستطيع جسدياً.. أكتب هذه الوقائع والمشاعر تباعاً حتى لا يضيع شعور اللحظة.

كنت أتذكر صديقي زياد وأتحسس الفارق النفسي بيننا، أحياناً أظن أن الفارق كان لصالحه، وأحياناً أخرى تسود قناعة معاكسة، كوني لا أعرف ما ينتظرني. كان زياد شديد الإيمان، منذ عرفته وهو بكامل صحته وعافيته وسطوته، ولم يتغير ذلك بالطبع عندما ألم به المرض، وبالتالي كان إيمانه يتراوح بين أن يشفيه الله، أو أن ربه يحبه ويريده إلى جانبه في الجنة. هذا بالطبع قد يريح المؤمن في الحياة الأخرى، أنه سيموت ومن ثم سيحيا ويعيش في النعيم. أما في حالتي فالوضع مختلف تماماً، كون قناعاتي كلها تدور حول هذه الحياة الدنيا، وبالتالي يفترض أن أكون حزيناً على نهايتها دون أمل في التجديد. عندما أمحص في هذه الأفكار، ورغم قناعتي بأن صديقي مؤمن بالحياة الآخرة، إلا أنني كنت على ثقة بأنه لا يفضل الذهاب إليها وقد بذل جهده وماله في سبيل تمديد البقاء بيننا.

في أخر مرة شاهدته كان جسده مسجى في غرفة التغسيل التابعة لجامع مقبرة ابو هامور، والابناء وأصهاره يغسلونه بالمسك، لم يكن بوسعي سؤاله أي شئ، بل ترددت في الدخول الى الغرفة ووقفت في الباب لوهلة، وعندما لفوه في الكفن

وأدخلوه إلى مكان انتظار ارحامه لتوديعه أمسكت بنفسي أضرب رأسي في الجدار .. كانت تلك هي الرؤية الاخيره لصديقي.

قانون المصُونية الذاتِية

"الدين مجرّد تطوّر طبيعي، وهذه هي الحال في أكثر أشكاله بدائيةً. إنّه متوافق مع كافة الدوافع الطبيعية للبشر. ذلك القانون الطبيعي الأول (المصونية الذاتية) بالغ القوة وشديد التأثير. لا يوجد شخص على وجه الأرض يرغب بأن يموت. كل شخص يريد أن يعيش. وحتى الناس المتديّنون، أولئك الذين يتغنّون ليل نهار بأمجاد السماء وجمال الجنان ومتعها والحياة الأبدية، لا يرغبون بالموت أيضاً. وعندما يمرضون فقد يلجؤون إلى الصلوات، لكنهم من كل بدّ يذهبون إلى الطبيب. إنّهم لا يريدون الموت. بل إنّهم يفضّلون البقاء في هذا (العالم التعيس والآثم) قدر الإمكان. وهناك سبب جيد لذلك: إنّه العالم الوحيد الذي هم متأكّدون منه. إنّ قانون المصونية الذاتية يفرض نفسه ويتخطّى كل عقبة. فالغنيّ سيدفع كل أمواله، وهو مستعدٌ للتخلّي عن كل ما يملك، للحفاظ على حياته. أمّا الفقير، أو المتسوّل مادّاً يده للناس، مريضاً وسقيماً، لا يتناول خبزه إلا من مال الصدقات، فإنّه سيبذل جهده للبقاء على قيد الحياة. فالحياة ثمينة، والروح غالية، حتى بالنسبة له."

في الواقع إن حياة الإنسان منذ الأزل وإلى الأبد تدور ضمن قانون المصونية الذاتية، أو بمعنى آخر السعي الدائم بكل الطرق للحصول على الطعام، وتناوله لضمان استمرار الحياة في أفضل ظروف ممكنة. كيفما نظرت إلى التاريخ البشري، الجماعي أو الفردي، طويل المدى أو قصيره، ستجد حقيقة السير على هذا القانون، والتمسك بالحياة وتحسين سبلها، ولا تمر في العادة بضع ساعات قبل تجدد تأكيد هذا القانون، عبر تناول طعام أو شراب مكتسب بالحلال أو بالحرام، أو زيارة طبيب، أو ممارسة عمل لتأمين ثمن الطعام، أو الاشتراك حتى في حرب وقتل الاخرين لتامين المزيد من ضمانات ورفاهية الحياة.

يوم الأربعاء، الثالث من يوليو، حددت موعداً لزيارة مختص المخ والأعصاب، أسعفني الحظ وكنت ثاني المراجعين. اقترب موعدي فأرسلتني السكرتيرة إلى غرفة الفحص، بجانب مكتب الطبيب الذي كان يتعامل مع مريض ومرافق لا يريدان الذهاب. سألت الطبيب إذا كان علي انتظاره في غرفة الفحص أو الحضور لمكتبه، فقال إنه قادم لي، وحضر. بدأت أشرح له ما حدث، لكن المراجع الأول جاء ووقف بالباب يسأل عن أشياء، فطلب منه الطبيب الذهاب للسكرتيرة وإبلاغها ما يريد. في منتصف الفحص السريري حضرت السكرتيرة، وقالت إن الرجل يريد أن تكتب له في الشهادة أنه بحاجة لاستمرار العلاج. "شو قصته هذا الرجل؟" سألت الطبيب بهدوء.

"إنه مجند سعودي على حدود اليمن، ويبدو أنه لا يريد العودة قريباً للخدمة"، قال الطبيب، فشجعته على إبقائه هنا إن أمكن، فربما ننقذ بذلك بعض أرواح المساكين في اليمن. ضحكنا وقال للسكرتيرة أن توافق له وتصرفه. كان هذا الجندي يطبق قانون المصونية الذاتية بالابتعاد عن رصاص وصواريخ الحوثي.

لم يجد الطبيب أي خلل في الفحص السريري، وهذا الفحص هو قياس الضغط واختبارات ردود الفعل ومقاومة الأطراف. قال الطبيب بعد أن جلسنا في مكتبه إن التشخيص يعتمد على ثلاثة أشياء، الفحص السريري، ونتائج الفحوص المختبرية والصور، وقصة المريض عما حدث. قال إن فحصي السريري جيد، ونتائج الفحوص للآن عادية، وإن كنا سنحتاج إلى رنين مغناطيسي دقيق، وتخطيط دماغ لنحسم الأمر، وأضاف أن قصتي غير عادية، أي كوني دُخت ووقعت وأنا جالس على كرسي. هكذا تقرر أن أصور دماغي بجهاز رنين هو الأحدث والأدق، وعمل تخطيط لكهرباء المخ. قبل أن أغادر دخلت السكرتيرة وتحدثت عن المُجند، وأضافت أنها عرفت أنه متزوج اثنتين، واحدة في السعودية وأخرى في اليمن. قلت للطبيب إنه مثل الخلايلة والسلطية، وفسرت مضيفاً أن كلاً من رجال الخليل في فلسطين، والسلط في الأردن، كانوا يتزوجون واحدة في بلدهم وأخرى في الضفة الثانية، خصوصاً الذين كانوا يتنقلون دوماً بين الضفتين، فيحققون بذلك الراحة والخدمة والمتعة. تحدثت مع الطبيب قليلاً عن الحرب في اليمن، وقلت له إنني أستغرب حقاً عدم رحيل اليمنيين إلى السعودية، كما رحل السوريون إلى تركيا وأوروبا، فقال الطبيب ما معناه إن الفقراء يمجدون الصبر ويخافون المجهول. غادرت العيادة، وفي ذات اليوم توفقت في إنهاء شأن التصوير، ووعدوني بإرسال التقرير بالبريد الإلكتروني يوم الخميس، وقررت عمل التخطيط يوم السبت.

بالطبع لم يرسلوا التقرير يوم الخميس، وقررت عدم متابعتهم والإلحاح لإرساله حتى أنعم بالهدوء يوم الجمعة، فربما كانت النتائج مُزعجة، والأفضل ألا أصر على إتعاس نفسي بسرعة، خصوصا وأنه لا يوجد ما يمكن عمله لإنقاذ فوري للموقف، لكن هذا لا يعني الهدوء الذهني بالفعل. قلت لنفسي لا جدوى من الحزن والأسف والحسرة على ما كان وقد يزول، والأجدى تذكر أنه كان جميلاً، وأنه مستمر حتى هذه اللحظة، وأية إضافة هي مكسب مُرحب به، وفي كل الاحوال فالموت قادم. قررت إذا استمرت الحياة محاولة السعادة لاستمرارها، والتصرف دون مراعاة كبيرة لآراء الغير من المراقبين والقوالين، وتجاهل أية إساءات وطعنات، وتجنب النكد، والغناء وكأنني لوحدي تحت الدش، خصوصاً وأنني أعتبر هذه الحياة هي مقر الجنة والنار، ويمكن للإنسان وضع ذاته في أي منهما الآن، فالحياة هي التي نعيشها فقط، وهي مرة واحدة لا عودة إلى مثلها على الأرض أو في السماء، فإذا عشتها

بشكل جيد، فمرة واحدة تكفي، ولن تكون بحاجة لتحمل الويل والذل والظلم توقعاً لأساطير لاحقة تتسبب في لخبطة برامج حياتك الارضية.. أي أضافة قادمة ستكون مرُحباً بها، لكن هذه الحياة الارضية يجب ان تعاش بنزاهة وشجاعة وعدالة وحرية وعمل ذاتي متقن.

حين أتأمل في تصرفات الناس أجد أن غالبيتهم موجودون فقط ولكنهم لا يعيشون حياتهم، أنهم مثل أسراب النمل أو النحل، مسيرون مغيبون، وندرة من البشر هم الذين يحيون بالفعل، بينما الأغلبية إما مسيرة بين النوم والنوم، أو تجرجر ذاتها على الأحلام وتنسى واقع الحياة، حتى عباداتهم أصبحت روتينية ولا تنعكس عملاً أيجابياً في ممارساتهم اليومية. في مساء ذلك اليوم، الخميس الذي لم يصلني فيه تقرير الصور، طالعت نتائج استطلاع موسع أجُري في الدول العربية، وشد انتباهي اشتراك لبنان والعراق وفلسطين في حقيقة أن نسبة التدين لم تتراجع هناك بين 2013 حتى 2019، بينما تراجعت بنسب متباينة في بقية الدول العربية، وخصوصاً بين الشباب تحت سن الثلاثين، لكن الأهم أن اليمن تفردت في زيادة نسبة التدين. أناس أفقدتهم الحروب الثقة منذ 2011 حيث بدأ الربيع، وغيرهم في حروب اليمن واقتراب الموت تزيدهم أيماناً.

تتكون الجنة المنشودة في العقل من البيئة الذاتية والنقص والمرغوب في تعويضه. هي مثلاً لدى الهنود الحمر مروج خضراء واسعة مليئة بالطرائد، ويتوفر فيها أدوات صيد، ويتمتع فيها الميت بالقوة والمثابرة، إنها أرض الصيد السعيدة المُبتغاة. أما جنة الفايكنج فهي حفلة ضخمة دائمة، يستقبل فيها الإله أودين بنفسه ضيوفه على باب الصالة، ويشرب معهم ويأكل ويمرح مع النساء بشكل متواصل. جنة الإغريق والرومان الذين ورثوا آلهتهم تتفق مع الآخرين ممن سبقوا ولحقوا بالرغبة في استمرار الحياة، أو بالطبع وجود حياة ثانية أبدية بعد الموت، لكن الجنة هناك بالنسبة للإغريقي والروماني ليست مراعي صيد، أو صالات احتفال متواصل، ولكنها حياة مشاركة في حلبة مصارعة وألعاب رياضية أولمبية، إلى جانب وتحت أعين الآلهة العديدة الجميلة، وهذا بالطبع انعكاس لواقعهم المعاش على الأرض في الحياة الأولى، حيث كانوا يظنون أنهم مراقبون من تلك الآلهة العديدة أثناء ممارستهم لألعاب الأولمبياد. الذين اخترعوا تلك الآلهة روجوا على الدوام لفكرة وجود الحياة الأخرى، وطرحوا مبدأ الثواب بالجنة والعقاب بالنار لكسب الولاء وردع المعارضين. وكل شيء كان ينقص البشر في الحياة الدنيا سيجدونه في الجنة إذا صبروا وأطاعوا، سيجدون ما يتمنون وهو على الأغلب ضمن الغرائز مثل الجنس والطعام، ومما ينقصهم على الأرض مثل المال والعدالة والمياه والخمور والمراعي ومشتقاتها، هذا طبعاً إذا صبروا وأطاعوا على الأرض. أما المتمردون فمصيرهم أنواع عقاب أشد

من أقسى ما يمكن تخيله من عذاب معروف على الأرض، أي حاصل جمع خوزقة وحرق وإغراق في حديد يغلي، وذلك مراراً وتكراراً، أي لا رحمة في الموت من ذلك العذاب.

أما جنة اليهود والمسيحية والإسلام فهي متقاربة في الإساس، متنوعة في التفاصيل بما يناسب الزمن والتطور المادي. هذه الديانات تعتمد الفكر الأبوي القبلي، فإبراهيم أبو الجميع وقد كان راعياً يهتم بأغنامه ويتمنى المزيد من المراعي، ولهذا جاء الاهتمام بالأراضي والمراعي والغنم والماء لندرته في تلك الجغرافيا، وكانت تنقلاته وأبنائه وأحفاده من بعده، من قحط ومجاعة إلى بعض الرخاء، ثم تعود دورة التنقل من هذا إلى ذاك. الانبياء اليهود جاؤوا من سلالة دم واحدة، توجب طاعتها لأنها تنفذ رغبة الأب الأكبر في السماء، وضمن هذا الإطار جاءت المسيحية مستنسخة عن اليهودية، وأقيمت الأنظمة الدينية الإقطاعية التي توجب طاعة الفلاح والمواطن للإقطاعي والملك، كونهما يمثلان على الأرض إرادة الرب في السماء، وأي تدخل مضاد لهذا الترتيب كان يعني التدخل ضد الإرادة الإلهية، وضد الرب الأب شخصياً، أي الكفر وما يتبعه من عقاب على الأرض، أما من يتحمل معاناة الحياة الأرضية ويرضخ، فهناك الجنة تنتظره بكل ما يتمناه من مال وكرامة وعزة، وكلما تعاظم القهر والظلم والفقر على الأرض فهذا يعني أضعافه من العز في الجنة. سيدخلون من بوابة مرصعة بالحلي، ويسيرون على شوارع من ذهب، وسيكون هناك عدل ومساواة، وهذا كله ما كان يمتلكه بالفعل الأغنياء على الأرض، ويتمناه الفقراء والعبيد والعاطلون عن العمل.

الطبيبُ المختص

يوم السبت، أي بعد مرور ثلاثة أسابيع على الإغماءة وبداية الأزمة، أخذت التقرير المُفسر للصور ولم أفهم معظم محتوياته. في الطريق إلى موعدي لتخطيط المخ في عيادة الطبيب المختص، أرسلت عبر الواتس صورة من التقرير إلى طبيبتي، فردت بسرعة إنه شيء جيد. كانت سرعة الرد قد شككتني في أنها طالعت التقرير بالفعل، فسألتها إن كانت طالعته، فردت بنعم وأنه جيد والأشياء التي لم أفهمها طبيعية بالنسبة لكبر السن. شكرتها ووصلت عيادة الطبيب مشياً، فهي على مسافة مائة متر من مركز الرنين المغناطيسي. لم يكن الطبيب قد وصل، وكذلك تأخر الفني الذي يعمل على جهاز تخطيط المخ. وصلت سيدة بدوية عجوز محمولة على ذراعي شاب نحيل مهندم، تحف بها سيدتان قويتا البنية هما بنتاها. كانت العجوز تولول: يمه، يا محمد، يا الله، وذكرتني بشعار الأردن: الله الوطن الملك. كان الصراخ متواصلاً وجلس الشاب بانتظار تقديم خدمة أخرى للعجوز، والبنتان تطلبان منها الصلاة على النبي وتوحيد الله. تحت نظرات الحضور وتصنع الهدوء وسكوت السكرتيرة، قالت بنتها إنهم وضعوها على كرسي متحرك لمغادرة عيادة طبيب حولها إلى هذا الطبيب، وكانت بنتها تدفعها على الكرسي، ولم تراع أن قدميها العاريتين تجران على البلاط والأسفلت بالرغم من صراخها المجلجل، كانت تصرخ وهما تقولان لها "وحدي الله" حتى وضعوها في سيارة تاكسي تحملها إلى هنا، وأوقفتا الشاب المهذب وطلبتا منه حملها إلى الداخل، ولاحظوا سبب صراخها في الشارع والتاكسي وجروح أصابع قدميها. قال لي عقلي: قوم الطخ بنتيها كل واحده كف، لكني تذكرت أنني مريض وبلاش ضغطي يطلع وأعرض نفسي لمساءلة، كما أن أياً منهما لو قررت لكمي لطرحتني أرضاً، فقررت الهدوء والمتابعة الصامتة وكأنني لا أفهم ما يجري وسط هذا الصراخ.

صارت العجوز النحيلة والمصابة بضمور عضلات، تصرخ على الحضور طالبة أشياء لم أفهمها لغوياً، رغم تركيزي التام لم أفهم سوى تكرارها: يمه يا محمد يا الله، بين جملها الأخرى. أعطتها بنتها حبتين قالت لها إنه مهدئ، ثم حضرت الثانية بعد أن ذهبت للصيدلية ومعها قطن ويود باشرت بوضعه على جروح أمها، خطر لي سؤالهما لماذا لم تذهبا بها لطوارئ المستشفى المجاور تماما، لكني واصلت الصمت بينما العجوز تصرخ من حرقة اليود وطلباً للانتباه، ثم قالت لها إحدى البنتين مجيبة على سؤال لم أفهمه، إن الطبيب لم يحضر بعد. قالت واحدة للأخرى إنها أعطت الأم حبتي مهدئ، فشهقت الأخرى مؤكدة أنها أعطتها أيضا مثلهما عندما بدأت الصراخ.

"أنت حمارة" قالت لأختها.

"فعلاً أنت تركتيني معها أحملها على ظهري مثل الحمارة"، أجابت الأخت ثم غطى صراخ الأم، رغم أربع حبات مُهدئ، على صراخهما. بدأت إحداهن تسأل المراجعين لأخذ دورهم في إدخال أمهما للطبيب قبلهم.

"أنا مليش قرار اسألي السكرتيرة"، قال شاب معصوب الرأس حضر مع والده لزيارة الطبيب.

"طيب كيف الطبيب كويس وشاطر وشو تخصصه"؟

"شو يعني دكتور وكويس، أسألي السكرتيرة"، أعاد الشاب حديثه إلى البنت التي توجهت بالسؤال إلي مخاطبة إياي بالحاج.

"انا لست بانتظار الطبيب ولا علاقة لي بالأمر، أنت الأفضل تسألي السكرتيرة فهذا عملها"، قلت لها واتجهت هي إلى السكرتيرة التي كانت صامته تحدق طوال الوقت ولم تحتج على اليود والقطن الذي تناثر في الأرضية. طلبت السكرتيرة الإذن من المريض الأول فوافق على الانتهاء من الأم المولولة بسرعة وتحمل الانتظار.

"طيب هذه الدرجات حتى غرفة الطبيب كيف سنحملها إلى هناك؟ لم أفكر بوجود درجات بين صالة الانتظار وغرفة الطبيب، كيف؟ مفروض ألا توجد درجات"، قالت البنت وكان الشاب النحيل المهندم قد اعتذر وغادر الصالة. "هل يمكنك حملها إلى هناك؟" سألت الابنة الشاب معصوب الرأس، فقال لها يدوب هو قادر يحمل راسه.

"أنت وأختك يمكنكما حملها على الكرسي عبر الدرجات الخمس، والحجة لا تزيد عن أربعين كيلو ويمكنكما التعامل معها". قلت لهما قبل أن تسألاني وأرفض، أو أجيبهما بأن كلاً منهما يمكنها حمل عجل بين يديها.

"سأخرج للشارع وأحضر من يحملها"، قالت إحداهما وخرجت وعادت بشابين همّا بحملها، لكن الطبيب لم يكن قد حضر أصلاً، فغادرا ووعدا بالعودة. قلت للابنتين: عندما يحين الوقت هناك شرطي على بعد عشرة أمتار يمكنكما سؤاله وسيحضر ويحملها. همهمتا، فلم يكن بودهما انتظار الطبيب ثم البحث عن حامل لأمهما خوفاً من ضياع دور ليس لهما في الأصل، بل أرادتا وضعها على سرير الفحص قبل وصول الطبيب لفرض الأمر الواقع. إنه قانون المصونية الذاتية يُطبق لصالح الأم وفي شأن الصحة. وصل الفني وذهبت معه إلى غرفة التخطيط، وغبت عن المسرح لنصف ساعة، ولم أعرف ماذا جرى. وددت لو شاهد الطبيب التقرير

والصور ونتائج التخطيط الذي عملته للتو، لكن الازدحام كان شديداً في العيادة، فقد تخربطت المواعيد ومعظم المراجعين كبار السن ومشاكلهم بادية في وجوههم وعلى أجسادهم، وكل منهم يظن أن الطبيب سينقذه. لاحظت أن هذا الطبيب مثل طبيبتي، باله رايق ويعطي كل مريض حقه من الوقت والشرح، فحددت موعداً يوم الاثنين كون العيادة مغلقة الأحد.

قضيت مساء السبت ويوم الأحد أقل قلقاً على ذاتي، بل تلاشى التفكير في أية نتائج خطرة محتملة، إذ تمعنت في تقرير صور الرنين، وكنت قد سألت فني التخطيط عن رأيه حسب خبرته في نتيجة تخطيط كهرباء المخ، فقال إنه لم يلاحظ أي شيء، لكن الحقيقة هي أنني فقدت الوعي وأن الفحوص عثرت على أشياء لم نكن نتوقعها، اللهم أن كسل الغدة الدرقية قد يؤدي للإغماء في حالة الإعياء والإرهاق. في ذات الوقت اتصلت ابنة أخي الأكبر وأخبرتني من الدوحة أن والدها تم نقله إلى المستشفى إذ تعثرت صحته، فهو في سن الرابعة والثمانين تقريباً، ولكنه بدأ ينسى منذ زمن، والآن صارت ذكرياته تتلخبط وقصصه لم تعد منطقية وأصبح عصبياً.. هذا التطور بالطبع مزعج لي وله، وتوجب علي طلب تقاريره لدراستها، فأرسلتها الابنة، أم محمد، وهي زوجة صديقي المرحوم زياد، ولم أخبرها بحالتي الصحية طبعاً أذ يكفيها ما تعانيه بعد فقدان الزوج وما استجد بمرض الاب دون نسيان التطورات السلبية العديدة التي تعاني منها، كما لم أخبر آخرين غيرها عن وضعي.

يوم الاثنين وبعد شهر كامل من الإغماءة، وصلت إلى عيادة طبيب المخ والأعصاب في الموعد، ولكن مراجعاً آخر كان قد حضر قبلي فدخل للطبيب في موعدي. قلت لنفسي لا بأس فلن أعود إلى هنا على الأرجح في القريب، وأنا بحاجة للقليل من الوقت مع الطبيب ليفسر لي نتائج الصور والتخطيط. حضر مراجعون أصبحوا معرفة من الزيارات السابقة، تبادلنا التحيات والتمنيات. لاحظت وجود أم مع ابن سمين، تركت مقاعد الانتظار وجلست على الدرجات بين الصالة وغرفة الطبيب. انقسمت الصالة إلى مجموعتين، على اليمين محجبات موديرن، يعملن طوال الوقت على هواتفهن، وحضر معظمهن مع الوالد أو الجد، ومجموعة من ثلاث مهندمات كبيرات السن معهن بناتهن وحفيدة صغيرة أشغلوها بهاتف جوال. هذه المجموعة على اليسار تعارفن على بعضهن، واتضح أنهن من منطقة بيت جالا جنوب القدس، وأخذت إحداهن توضح أن بيتها كان جنب الإذاعة أيام الانجليز الذين تسببوا في طردهم من البلاد. "قالوا لنا أخرجوا من البلاد ليومين فقط فتنتهي الحرب وتعودوا، ومن يومها لم نعد وأنا أبكي كل يوم للآن". قالت السيدة التي ألقت التحية عندما حضرت إلى الصالة، وقد تذكرتني من زيارتها السابقة.

"واحنا طلبوا منا نبيع الأرض ونبقى، أو سوف يهجمون علينا، رفضنا البيع وخرجنا تاركين البيت والأرض". قالت الثانية وأخذت تصف أين كان بيتهم واسم قطعة الأرض، وأنها عادت لزيارة البيت بعد عام 1967. على الأرجح أن بيت وأرض هذه السيدة غرب بيت جالا، في منطقة أخرى على الطرف الغربي من حدود 1967، لأن الضفة ومعظم منطقة بيت جالا بقيت مع الأردن حتى هزيمة حزيران. المهم لم أتدخل في هذا الحوار، لأن كبيرة السن فيهن كانت فاقدة لذاكرة التواريخ والأحداث، كما يتملكني الحنق كلما سمعت قصص الذين رحلوا عن البلاد لاسباب واهية بالرغم من دراستي للاسباب وفارق الخبرة بين الجناة والمجني عليهم.

نادتني السكرتيرة فوجدت الأم وابنها يسدان الطريق. قالت السكرتيرة: اذهب مباشرة لغرفة الطبيب. طلبت من الأم أن تفسح الطريق حتى لا أحتك بها جسدياً، وأبديت لها استغرابي من تموضعها. جلست مقابل الطبيب فإذا بصوت هذه الأم يرتفع، وانزعج الطبيب وتشتت ذهنه. دخلت السكرتيرة وقالت إنها لا تريد أن تصور الولد.

"لا بد من الصور". قال الطبيب وقد راجع ملف الولد الذي بدا من صوت أمه أنها من بلد عربي آخر. خرجت السكرتيرة وعادت لتقول إنها ترفض عمل الصور لأنها خايفة الولد يروح فيها. طلب منها الطبيب أن تخبر الأم بالانتظار، ونظر إلي فذكرته بنفسي وحالتي وراجع الملف والتقرير والصور وتخطيط الدماغ. أشار إلى نقاط بيضاء صغيرة على واحدة من الصور العديدة، وقال هذه سكتات صغيرة قديمة، تحدث ولا تشعر بها طالما أنها لم تصب أعصاباً حساسة مثل السمع أو النظر أو التنفس أو الحديث. سألته إذا كانت تصيب الذاكرة مثلاً فوافق على هذا الاحتمال، وأكد أن الأمر طبيعي يتوجب الحذر ولا يُخيف لانه لا يوجد ما يمكن فعله. راجع أدويتي المقررة من طبيبتي الشجاعة وأيد الاستمرار بها، ونصح بالعمل على خفض الكوليسترول في الدم، وأكد أن تناول الأسبرين ضروري جداً، وطالب بالالتزام برجيم يخفف الوزن وممارسة حياة نشطة. "هذا كل شئ؟"، سألته فعاد وأكد على ذلك وانه لا يوجد ما يمكن عمله طبياً لتجاوز خطر السكتات الصامتة. في الواقع اطمأننت إليه كونه لم يطلب أية فحوص مكلفة أخرى قد يستفيد منها مالياً، ولم يرَ ضرورة لأية عمليات أو نفقات، وهو ما عايشته مع آخرين وقعوا في براثن أطباء تجاريين. هذا الطبيب على مزاجي، فقد وجد آثاراً قديمة ولكنه يقر بالأمور حسب النسبة والتناسب، واكتفى بالكشفية وببدل التخطيط للدماغ في عيادته. قبل أن أتركه جعلته يتذكر طبيبتي، طالبته الجامعية، وعرضت عليه صورتها فحملني إليها السلام.

من السحرِ إلى الفضاءِ

غادرت العيادة بعد أن ألقيت التحية على المراجعين، ودارت في الطريق إلى السيارة أفكار في دماغي حول سكتاته المزاجية وغيرها من الشؤون. لم تهدني التجربة في أية مرحلة من الانتظار والترقب والمعالجة، أو تدفعني للخزعبلات وطلب المعجزات وتقديم وعود النذر. يمكنك أن تعيش حياتك كاملة دون الاعتقاد بالمعجزات أو الاعتماد عليها، وتكون مع ذلك متجانساً وراضياً عن نفسك، أو ترى طبعاً في كل شيء معجزة وسبحان الله. وأنا من النوع الأول، ولم تهن عزيمتي ويصيبني الخوف والهلع. حين يأتي المرض فهو بالطبع مزعج ولكنه نتيجة لأفعالي ونتيجة لتصرفاتي ونهج حياتي السابقة، أو جاء بسبب وراثي لا حيلة لي فيه. تذكرت ما قيل عن شيوعي قديم تقدم به المرض فانحاز إلى المعجزات وبدأ يستغفر ربه، وعندما سألوه عن سبب هذا التحول قال: يمكن يكون الكلام صحيح وفي دنيا آخره، وأنا مش خسران إذا طلع ما في. نظر إلي بائع التين الشوكي ببعض الدهشة وأنا أسير ضاحكاً في الشارع الطبي مع تلك الذكرى.

"الله يبسطك باستمرار يا أستاذ"، قال بائع التين الشوكي وهو يناولني ما يقشره.

"الصحيح أنني ضحكت لتذكر قصة قديمة، لكني أشعر بالحزن أيضاً كلما مررت في شارعكم هذا الذي ترددت عليه مراراً مع صديق لم يسعفه الطب".

"الله يرحمه ويرحم كل أموات المسلمين". قال البياع وأنا أنقده ثمن ثلاث ثمرات صبار في غير موسمها، وأضفت: إن الرحمة تجوز على كل الأموات مهما كان معتقدهم، وذهبت. الترحم على الأموات ليس بالضرورة من منطلق ديني فقط، فتذكر الميت وأخلاقه الحسنة مثلاً هو إحياء لذكراه، وحتى لو لم يكن الميت طيب الأخلاق فليس من المفيد التشفي فيه، كون ذلك سيؤثر سلباً على نفسية المتشفي، وبالتالي الترحم والتسامح أفضل في كل الحالات ولكل الأموات.

عموماً، وبهذا الصدد، فمن المفيد تذكر ان نسبة الملحدين في العالم لا يستهان بها بالرغم من ضآلتها في البلاد الإسلامية والعربية. فهناك أكثر من مليار نسمة يقرون بإلحادهم، بمعنى انهم غير متدينين او معترفين بالديانات. معظم هؤلاء مواطنون لدول متقدمة مسالمة، مثل لوكسمبرج حيث 64% من سكانها ملحدون، وفنلندة 69%، وفرنسا 74%، وبلجيكا 68%، وسويسرا 57%، وألمانيا 59%، بينما في الدول العربية تتراوح النسبة من 4 إلى 8% حتى قبل عامين، لكن أحدث استطلاع أجري على عشرة دول عربية 2019 أثبت أن النسبة ارتفعت إلى 13% في

الإجمال، ولكنها مرتفعة اكثر لدى الأعمار تحت الثلاثين، إذ وصلت نسبة غير المتدينين بينهم إلى 18%، ولم يرتفع تعداد المتدينين إلا في اليمن. كلما تراجعت قوة المعتقدات الدينية بين قوم ما تقدمت لديهم نسبة الحريات والفكر ومستوى العلوم، وتلاشت الأساطير والخزعبلات التي سادت وصمدت منذ آلاف السنوات، وبدأت تتراجع بشكل متسارع في نصف القرن الماضي، ولكنها محصورة في الجزء الغني من العالم.

بدون تعمق وتفلسف في الأمر فمن الواضح أن الغنى والتقدم والحرية هي رديف لتراجع الأديان والأساطير، بينما الفقر والتخلف والظلم ظواهر ترتبط بانتشار المعتقدات الدينية والأساطير. لنتذكر أن سويسرا الآن رمز التقدم والحريات والنعيم والتي أكثر من نصف سكانها يقرون بالإلحاد، أحرقت في مقاطعة واحدة فقط سته آلاف ساحرة حتى عام 1731. والساحرة هي التي تتعامل بالأعشاب والأدوية، وتتهم لذلك بالكفر والتعاون مع الشيطان، وتعترف عن ذاتها بما تريد الكنيسة تحت التعذيب، ولو ساد ذلك الفكر الديني واستمر للآن لتوجب نقص الحطب من كثرة الحرائق في أوروبا، التي أحرقت ستين ألف شخص بتهم السحر طوال ثلاثة قرون، حتى وقعت الثورات ضد الكنيسة لأسباب عديدة، وبدأت القارة تتخلص من الحكم الديني والإقطاعي والثيوقراطي. أما الدول التي لا زال يسودها الفكر الديني الجماعي لليوم فهي تحرق وتمنع الكتب وتقيم الحد على من يخالف في تفسير الدين، وذلك حسب تفسير ديني جامد، بل تقرر الدولة شكل ملابس المواطنين، والغريب أن الهيمنة الدينية على المجتمعات المتخلفة تسمح للمشعوذين، ومن كانوا سحرة في العرف الأوروبي، تسمح لهم بحرية العمل وتعزيز الجهل.

من السهل والمريح للشخص شبه الواعي أن يتجاهل معرفته للأمور الصحيحة القويمة، وينحاز إلى القطيع في رؤاهم ومعتقدهم المتوارث منذ القدم، ويكتفي بالتميز الذاتي بينهم ببعض الشهادات أو الثراء أو الحنكة أو تلبس ثوب المشيخة، لكن هذا التصرف الفردي المتكرر من آخرين سعياً للراحة، ودفعاً للنقد والشماتة، سيحافظ على جمود الوضع، وسيؤدي أيضاً إلى انفصام في شخصية وتصرفات الفرد والمجتمع. القناعة بين المتدينين ثابته بوجود حياة أخرى بعد الموت، والعلم عجز حتى الآن عن إثبات عكس ما هو غير ثابت أو مؤكد، إلا أن العلم يثبت حقيقة الموت بأنها نهاية وذوبان، ولا يوجد دليل واحد على عالم الأرواح الذي يروج له المتدينون، ويعتبرونه حلقة وسيطة بين الموت والحياة الأخرى. لو ثبت بالمؤكد وجود عالم الأرواح لأصبح من السهل العودة البشرية الجماعية لتصديق الأديان، ولعاد الملحدون إلى دور العبادة والطاعة، لكن محضري الأرواح وحلقات الزار وقراء الطالع هم مجموعة من النصابين المشعوذين، المنتشرين رسمياً وبكثافة في العالم

العربي والإسلامي، والذين يملكون قنوات فضائية، وأمثالهم كانوا يتهمون بالسحر ويحرقون في أوروبا حتى 250 سنة مضت، ومثل هؤلاء كالسمك يعيش في الماء، فبدون من يصدقهم ويتعامل معهم لن يكون لهم اي وجود، لكنهم في توسع وهذا يغني عن الشرح والاستنتاج. أما من يرون العفاريت والاشباح وما شابه فهم بحاجة إلى زيارة الأطباء النفسيين، ومعظم رؤاهم نتيجة لعوامل تربية تعتمد أصلاً على الخرافات واللامنطقي.

الإنسان ابن بيئته. الوليد الجديد يكون دون أفكار مسبقة، ثم يعتمد تدريجياً على حواسه الخمس لحماية ذاته. إذا تواجد في عائلة غبية فسينمو غبياً مثلهم، وإذا تربى في عائلة ذكية فسيماثلهم. يمكن تربية الطفل على الأفكار الغيبية والإيمان بالخرافات والخوف من الكائنات الخيالية، فيصبح مؤمناً بها، سائراً مع القطيع ضمن ذلك النهج، أو بالطبع تربيته في أجواء منطقية علمية تقدم تفسيرات لكل شيء، فيصبح الطفل ملائماً لذلك المجتمع. تغذية المخ بالأفكار تؤدي إلى إنتاج آراء وتجديد، أما تكرار الزج في المخ بالخرافات ذاتها فلن يؤدي إلى أية نتائج مغايرة. ومن غير المنطقي أبداً القول بفطرة العقل منذ الميلاد، فهذا يعني أن الانسان يُخلق مبرمجاً، وبالتالي هو خالي المسؤولية عن أفعاله الحيادية أو السلبية أو الإيجابية. للجينات بالطبع دور في تحديد الصفات الخارجية للإنسان، لكن وضع مولود حديث في أجواء مغايرة لعائلته سيصبغه بالوضع الجديد من ناحية التفكير واللغة والذكاء، مع أنه سيحتفظ بمظهره الخارجي الموروث من والديه عبر الجينات، وقد يرث بعض الأمراض من عائلته الأصلية، لكن أفكاره وتصرفاته ستكون تابعة للوضع الذي تربى فيه. أيضاً الشاب الذي يغادر محيطه الاجتماعي يافعاً إلى بيئة مختلفة تماماً، فإنه بالطبع يتأقلم ويقترب تفكيره من محيطه الجديد. هذا ينطبق بالطبع على المجتمعات المتجددة عبر تقبل الأفكار وتطورها، إذ تصبح مجتمعات أرقى وأكثر انفتاحاً ورخاء وحرية، ورافضة للأفكار الماورائية والمعتقدات المتصلبة. "فعندما تدخل المعرفة إلى العقل تخرج المعتقدات الخرافية هاربة. والعلم هو أفضل دواء ضدّ الخرافة والجهل. فهو قائم على الحقائق والوقائع، وليس على الإيمان والتسليم. إنّه على النقيض من الدين الذي لا يحتاج لأيّة حقائق، بل يكفيه الإيمان الأعمى والتسليم. على الإنسان العلمي أن يكون مثقفاً ويعرف الكثير من الأمور".

يتوفر بعض العلم النظري في الدول العربية والإسلامية، ولكن بدرجات هي التي تحدد مستوى التطور في كل بلد، مترادفة مع كمية ونوع العلوم والثقافة الملقنة. نستعمل في الدول المتخلفة أدوات ومنتجات العلم في كل لحظة من حياتنا، لكن لأننا مستهلكون ولا نتعلم من آداب الإنتاج، ومن ينتج الشيء اليسير عندنا هم عمال غرباء في الأصل، ومهمشون في المجتمع، فإننا نعيش بقشرة متطورة شكلاً وأفكار متخلفة

في العمق، وضمن شرائع وقوانين عفى عليها الزمن، ويتمسك بها الحاكم ولفيفه لضمان الاستمرار في الحكم. قد يصل مواطن الدولة المتخلفة إلى منزله بالقطار الحديث السريع، أو سائقاً لأحدث سيارة ألمانية، وهو يستخدم الهاتف النقال للصوت والصورة والحركة ويحدد موقعك بالمتر في أي مكان عبر الأرض والفضاء، ويستمع هذا المواطن إلى الراديو ويشاهد التلفزيون ينقل له صوراً من غزو الدول المتقدمة للفضاء، وقد يتناول هذا المواطن إفطاره في منزله وعشاءه على بعد آلاف الكيلومترات في ذات اليوم. بوسع هذا المواطن في البلد المتخلف إطفاء الأشياء وإعادة تشغيلها بكبسة زر، أو من بعيد. كل ما يفعله هذا المواطن المتخلف أو يراه ويتعامل معه بشكل طبيعي يوازي، أو حتى يتجاوز، أعظم "المعجزات" التي وصفتها الكتب المقدسة، والقصص الخارقة التي رويت عن الأساطير، وبالرغم من ذلك يتجاهل هذا المواطن العلم والعلوم عقلياً، ويتعامل بمخ متخلف غيبي يرفض النقاش والتجديد الفكري، وحين يصيبه مرض في مخه فلا بأس عنده من إجراء عملية معقدة بيد طبيب كافر، وبعد أن يتشافى سيقول إنها العناية الإلهية التي أنقذته، ولن يغير من أفكاره الماورائية الراسخة في مخه نتيجة للتربية والتلقين منذ الصغر. قد يشك هذا المواطن في قرارة ذاته بوجود حياة أخرى بعد الموت، وقد يكون متيقناً من وجودها، ولكنه في كل الأحوال غير متعجل على الذهاب إلى هناك، ولو خير لاختار البقاء في هذه الدنيا إلى ما لا نهاية، لأنه في قرار نفسه غير متيقن.

مساء يوم الجمعة، التاسع عشر من يوليو 2019، ذكرت محطات التلفزة سكان العالم بمرور نصف قرن على هبوط الإنسان فوق سطح القمر. فعل سبقته وتبعته أفعال كالمعجزات حققها الإنسان المتحضر بالعلم، بينما ارتفع صخب المتخلفين لتكذيب الحدث وادعاء أنه فبركة، وحتى يومنا هذا هناك من يدعي أن الأرض مسطحة، ويستشهد بالكتب السماوية، ويشغل بعض هؤلاء موقع مفتٍ لبلاده. ما ثبت من الفحص العلمي للعشرين كيلوجرام صخور حملتها ابلو من القمر، أنها مطابقة تماماً لمكونات الأرض، وهذا ما عزز احتمال أن يكون القمر قد انفصل عن الأرض بفعل ارتطام جسم كبير قبل أربعة ونصف مليار سنة. جاء اهتمام الرئيس الأمريكي الكاثوليكي بالهبوط على القمر على أثر نجاح الاتحاد السوفيتي الشيوعي الملحد في غزو الفضاء، الذي تجلى في 12 أبريل من عام 1961 في دوران الرائد جاجارين حول الأرض بمركبة فضائية، وبعد ثمان سنوات لحق الأمريكان بالركب بإصرار من الرئيس كينيدي. المهم هنا أن البلد العلماني والآخر الملحد اعتمدا العلوم والعلم نهجاً لهما.

يحتفل الفرنسيون بعيد النصر في الرابع عشر من يوليو كل عام، وذلك منذ 1880 بمناسبة انتهاء الحكم الملكي الديني إثر اقتحام الثوار لسجن الباستيل. أقيم الباستيل

كحصن للدفاع ثم تحول بعد قرون إلى سجن للمعارضين السياسيين، وتم اقتحامه عام 1789 كشرارة أولى للثورة الفرنسية الشهيرة، التي أرست قواعد العدل والحرية والإخاء ومبادئ الدولة العلمانية. في هذا العام (2019) شاهدنا على شاشات التلفزة الرئيس الفرنسي وزعماء أوروبيين ينظرون بانبهار إلى إنسان طائر، يقف في الهواء أو يميل في أي اتجاه، ثم يصعد ويهبط أو ينطلق مثل صاروخ بسرعة عالية، وذلك بدعم منصة صغيرة تحت قدميه وأسطوانة على ظهره.

في العصور الوسطى وقف قس يراقب فناناً يرسم ملاكاً على جدارية في كنيسة. سأل القس الفنان محتجاً: هل شاهد أحد ملاكاً يلبس صندلاً كما ترسم؟ فقال الفنان: وهل شاهد أحد ملاكاً دون صندل كما تريد؟ الآن نشاهد تماماً إنساناً يطير حتى دون أجنحة، أليست هذه معجزة جديدة يخلقها العلم؟ وماذا عن طائرة ضخمة تحمل 600 شخص، بمن يخدمهم وما يُخدمون به من طعام وشراب ورعاية؟ تحملهم وتطير بهم بسرعات عالية. كل ما يفعله المتخلف حين يركب الأجواء هو الدعاء والشكر والحمد والتعجب كيف تقف السماء بدون أعمدة.

إن آجلاً أو عاجلاً ستصل الدول والمجتمعات المتخلفة بالتدريج إلى ما وصلت إليه الدول متدرجة التقدم. قد تمر المجتمعات بحالة متقدمة من انفصام الشخصية إذا توازت القوى المتخلفة مع الأخرى في التأثير، بمعنى إذا لم تقم ثورات ويجبر الفكر الديني على التراجع عن السياسة والإدارة والاحكام فقد تحصل الانفصامات في الشخصية، اذ لا يمكن الربط بين الايمان الاعمى والعلم، الأمر الذي سيعقد التطور. لقد تجاوزت الدول المتقدمة هذه الأزمة عبر ثوراتها وفصل الدين عن الدولة، اي تحرير الدولة من فرض وتلقين الفكر الديني، وبالتالي تحرير التعليم والثقافة ليختار الناس طرقهم. البيئة المادية والظروف الاقتصادية المتغيّرة عبر العالم، والتي أخرجت أشكالاً دينية جديدة للطبقات الساعية للتسلط والحكم في الدول التي أصبحت متقدمة، لم تأت بأي نموذج ديني جديد للطبقة الحالية، وذلك رغم كثرة الجماعات التي تدعي تجدد الأيديولوجيات الدينية، مثل المولودون المسيحيون الجدد. مكتسباتهم العددية تأتي من المتشككين في المسيحية التقليدية، فينضمون إلى التوجه الجديد سعياً للفائدة، لكن أعداد المبتعدين عن الأديان هي الأعظم في التنامي.

أي دين قديم او جديد مستحدث او عقيدة جامدة كالشيوعية لا يمكنها التعايش مع الحرية والعلوم وانتاج الرخاء الاقتصادي. الوعد الديني بسعادة أبدية بعد الموت كتعويض عن الفقر والمعاناة في الوقت الحالي يقابلها أعداد متزايدة من الناس بآراء جديدة وليس بدين جديد، حركة سياسية تتطلع للمساواة والعدالة والحرية بمنظورها الأرضي، وبهدف حالي، الآن وهنا، وليس في حياة أخرى هناك. لقد انجزت

الشيوعية المساواة وشبه العدالة ولكنها اعتدت على الحرية فخسرت اقتصاديا وانهارت فكرياً مثل اي دولة دينية صعدت بالقوة ثم تلاشى تاثيرها وتخلفت.

لاسباب متعلقة بما سبق وغيرها نجد الناس المتدينين على استعداد تام للاخلال بقيم دينهم. قد يتظاهرون بالعبادات أمام الاخرين لكنهم جاهزون للسرقة والاختلاس والغش واكل أموال المجتمع وحتى أموال الايتام جهاراً نهاراً، يخونون العشرة والصداقة والشراكة حيث يمكنهم تحصيل ارباح ذاتية وافلات من القانون، ويظهرون طمعا ولصوصية حين تحين فرصة للكسب الحرام وذلك بشكل مفاجئ وغير متوقع منهم حسب تصرفاتهم قبل أن تأتي الفرصة وحسب ما يقولون من كلام، وخير الامثلة على كل ذلك تظهر في قصص الميراث .. أخوة وأخوات واعمام وأخوال تخول لهم انفسهم اشياء افتراضية عن حب المتوفى لهم ويعتبرون ذلك تخويلاً لهضم حقوق الايتام سواء كانوا قصراً أو بالغين، ومع ذلك لا يقطعون صلاة في جامع او كنيسة او معبد. انه قانون التخويل الذاتي اذا اتيحت الفرصة وأمكن التملص من القانون وكانت الغنيمة دسمة. أصدقاء لا يقطعون صلاة ولكنهم يساومون ورثة الصديق المتوفى على شراء حصصهم بأثمان بخسة بدل النخوة واحترام الذكرى ودعم الورثة .. في كل الاحوال هذا لا ينطبق دوماً على الجميع فهناك أقارب واصدقاء أوفياء عملياً بالرغم من ألتزامهم بالعبادات، ولكنهم الاقلية النادرة فيما جمعت وخبرت من الروايات.

أكثر الناس قدرة على أسعاد أنفسهم هم من يكتفون بالنظر الى ما يملكون وليس الى ما في أيدي غيرهم. هكذا كان صديقي زياد، وأعرف انه كان يهب الى نجدة أي واحد من أصدقائه وشركائة اذا أحتاج أموالا نقصت عليه .. كانت ثقته في الناس عالية جداً الى درجة التساهل الذي كان هو يعتبره تسامحاً، لم يسجل عليهم خطياً، ولم يطالب بضمانات. في الايام الاخيرة على سرير المستشفى وقد تعطلت عنده قدرة السمع كان يدعم من يزوره بالنصح ويرشدهم كيف يتصرفون في الشراء والبيع، يكتب لهم على لوح خشبي ويجيب على تساؤلاتهم، ويخطط الى عزومة غذاء لهم ولبقية الاصدقاء

على حافةِ الموتِ

لم يعد أحد من الموت حقاً ليخبرنا عن أشياء شاهدها هناك، وكل الفحوص العلمية والدراسات التي أجريت على الذين مروا بتجربة غيبوبة، أو عادوا بعد توقف القلب أو التنفس لفترة قصيرة، أثبتت أن ما قالوه هو نتيجة لانخفاض مستوى النشاط المخي، والتعرض لنشاط عشوائي للإلكترونات ونقص الأوكسجين وزيادة معدلات الإندورفينات والاستجابات الكيميائية العصبية الأخرى. تراوحت رؤى نسبة 13% ممن مروا بالتجربة بالشعور بالسكينة والهدوء، وهذا ما شعرت به شخصياً مع بداية الإغماء، ولم أشعر بغيره طوال خمس دقائق، لا خوف ولا رؤية ولا سمع ولا حركة.

البعض الآخر شاهدوا نفقاً مضيئاً، وهناك من تحدث مع أصدقاء أو أقارب موتى، وهذا ما حدث مع صديقي زياد، ولكن قبل وفاته بيومين، إذ قال إنه سيذهب مع والده. الفئة الأخيرة من تلك النسبة القليلة التي مرت بالتجربة هم الذين شعروا بانفصال عن الجسد. وكانت زوجتي قد أغمى عليها أيام صباها حين وقعت عن ظهر الحصان، وأخبرتني أنها شاهدت نفسها مع الناس تنظر لذاتها وهي ممددة على الأرض. اما أحدث القصص فقد سمعتها من صديق سياسي توقف قلبه اثناء عملية جراحية رئيسه، وأكد وجود حياة اخرى بعد الموت كونه مر بنفق وشاهد اشياء رفض وصفها اعادته الى الحياة الاولى ولمح انهم اوصوه بعدم البوح بالسر .. لكنه سياسي ومفهومة للاشياء غير بقية الناس، وكل ما قاله ورفض الافصاح عنه لا يتعدى التفسير العلمي اعلاه.

كل ذلك تجارب لحظية، وهناك بالطبع تجربة الاقتراب من الموت، والتي قد تؤدي لخوف شديد وشلل بينما يمر شريط حياتك في ومضات مركزة بين الحلم والحقيقة. قال باحثون دنماركيون يدرسون استجابة الجسم لخطر الموت الوشيك، الحقيقي أو الوهمي، إن تلك التجارب تنطلق من الآلية نفسها التي تسبب الحلم الواضح "اليقظ". كان الاختبار الأكثر شيوعاً من ضمن التجارب التي أفضى عنها المُستطلعون، الشعور بالزمن يتباطأ أو بأن من الصعب تعقبه، إذ أبلغ عن تلك المشاعر 87 في المئة من المشاركين، تلا ذلك الشعور بمرور الأفكار بسرعة خاطفة (65 في المئة)، وأحاسيس مسيطرة (63 في المئة). قال الدكتور دانييل كوندزيلا، الباحث الرئيس في الدراسة، وهو طبيب أعصاب في جامعة كوبنهاغن الدنماركية إن زملاءه وهو "أكدوا ارتباط تجارب الاقتراب من الموت بتسلل حركة النوم السريعة إلى العين". يعتقد الخبراء أن هذه الظاهرة مرتبطة بتداخل حالات النوم وحالات الاستيقاظ

بعضهما في بعض. أثناء دورات النوم، يدخل الدماغ حالة تُعرف بـ"حركة العين السريعة" حينما يكون الدماغ نشطاً أثناء اليقظة، ويبدو الحلم أكثر وضوحاً. يحدث أن تتطفل هذه الحالة على لحظات استيقاظ المرء، وتؤدي إلى أحلام لا تنسى، وحتى شعور بالشلل. يحدث هذا طبعاً في لحظات الخطر والظن أنك مقدم على الموت دون إرادتك أو قدرة على النجاة.

لقد مررت بهذه التجربة في سن المراهقة. كنت في صعيد مصر، وقد تسلقت جبلاً لسبب ما، أو بالأحرى دون سبب. فجأة وجدت نفسي معلقاً بزاوية تكاد تكون تسعين درجة قائمة، على ارتفاع عالٍ، ولا ممسك ليدي وتتفتت الحجارة تحت قدمي، وأعجز عن النظر إلى أسفل بحثاً عن موضع أنقل إليه قدمي. حينذاك مر شريط حياتي أمامي بسرعة البرق، وشلني الخوف، وحتى الآن لا أعرف كيف وجدت نفسي سالماً على الأرض. مثل هذه التجارب قد تحدث لأشخاص أثناء حادث تصادم، أو انفجار أو قصف أثناء حرب، أو سقوط ما، ولكن لا علاقة للأمر بالموت وتجربة ما بعده، هي فقط مرحلة الظن بالاقتراب منه وصور يولدها العقل الباطن. المعروف الآن أن عقل الإنسان الواعي يفكر بألفين فقط من الخلايا، أما عقله الباطن فيفكر بأربعة ملايين خلية.

من المؤكد أن الذين يمرون بتجربة العودة من الموت يرون صوراً ويمرون بتجارب تتناسب وبيئتهم وتربيتهم، فيظنون أنهم يرون أشياء من العالم الآخر. الهندوسي العائد من تجربة الموت قد يتحدث عن رؤيته كريشنا، لكن بالتأكيد ليس السيد المسيح أو النبي محمد، وهندي آخر قد يشاهد مجموعة أبقار في مراعٍ خضراء، والكاثوليكي قد يعود ويؤكد أنه شاهد السيدة مريم والدة المسيح، والمسلم سيرى حوريات ينتظرن في بيوت مبنية من ذهب وفضة، والملحد الحق لن يرى أي شيء، بينما الملحد المتشكك قد تلوح له الشياطين، لكن هذا كله من وحي خيال تراكم التربية، وما هو عالق في المخ أثناء الصدمة والرهبة من اقتراب النهاية. إن رهبة الموت هي السر المكشوف الذي يدفع الناس للتعلق بحبال الخيال في اللحظات الأخيرة، أو عندما يتحكم المرض في الجسد ويصبح الموت قريباً بتأكيد من العلم، فيدخل الشك حتى لدى المتحررين من الخرافات الذين لا يمارسون أية طقوس دينية، تجدهم في تلك الحالات يقولون: إن شيئاً ما قد خلق الكون، أو توجد قوة تدير الكون، أي يتنصل من قناعة المتدينين بوجود خالق، وكل معتقد يعطيه صفات وأشكالاً محددة غير السائدة. هذا بحد ذاته إيمان بالغيبيات أو مسك العصا من وسطها، والكثير من ملحدين العالم المتخلف لا زالوا في تلك المرحلة ويخشون من حسم أمرهم، خصوصاً عند الاقتراب من الموت.

مهما تبرم الإنسان من الحياة فهو يكره الموت، ويريد الاحتفاظ بالحياة حتى ولو كان فقيراً ومريضاً وعليلاً بل كسيحاً. اسأل أتعس التعساء إذا أراد الموت أو الحياة، فإنه سيختار الحياة التي يعرفها رغم ما هي عليه، ويفضلها على الجميل الموعود في الآخرة ولكنه مجهول، ولا يكفي الإيمان مهما عظم لتحبيب الإنسان في الآخرة واستبدالها بالحياة الأولى. ورغم أن الإيمان يصوغ للناس الآخرة إلا أنه أيضا يرهبهم منها، ومن القبر وعذابة وأهوال الحساب والعقاب وقباحة أشكال عزرائيل وأتباعه رغم أنهم ملائكة. أي أن الإيمان يرهب ويرغب، والإنسان يختار البقاء في الأولى على الذهاب المبكر للآخرة، لرؤية ربه وأنبيائه وتحقيق الوعود التي منى ذاته بها. أي أنه لم يكن أبداً متيقناً ومصدقاً لما يسمع ويقر به ويعتبر من أركان دينه، مثل الإيمان بالغيب واليوم الآخر. التشويش على مصير الآخرة يرهب الناس، ويدفعهم لبعض الوداعة خشية من العقاب الشديد. لو قدر لميت أن يعود ويروي لنا ما شاهده في الآخرة لكان شيئا مفيداً، ربما يُهون على الناس، ويغير من طبيعتهم في الحياة الدنيا، ويجعلهم أكثر وداعة وإخلاصاً ساعين إلى النعيم والخلود. أما والوضع غير ذلك فالمطلوب هو الإيمان التام بتفسيرات روحية قديمة مختلف عليها وغير علمية أو منطقية.

من يملك قوة العلم سيكون بين يديه قوة السلاح والمادة عموماً، وهو الذي يسيطر على الطبيعة ومحيطه وعلى من لا يملك العلم تحديداً، كون العلم هو الذي يمهد لتملك المادة، وللعلم أسس حتى يقوم عليها مثل توفر الحرية في النقاش والبحوث، والتمحيص في القيم والمسلمات المتوارثة والتي قد تكون من المعيقات لأجواء العلم، خصوصاً تلك المتوارثات المثبتات للكسل والاتكالية. الدول والمجتمعات التي بلغت أقصى درجات التطور هي دول علمانية تتيح حرية القناعة الشخصية، ولذلك بها دور عبادة ذات حقوق، ولكن لا تدخل للدين في تسيير الحياة الجماعية والسياسية والاقتصادية والقانونية. هو حرية ومعتقد شخصي وبالتالي غير ممنوع ولا سلطة لديه لمنع الآخرين. لن تجد في هذا الكون دولة دينية متقدمة أو دولة علمانية متخلفة.

قال الفيلسوف ابن حزم: لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داعٍ إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ومن أقلها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم، وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم، فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج، والنرد، والخمر، والأغاني، وركض الدواب في طلب الصيد، وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة، وأما فائدة، فلا فائدة.

قيل إن العقول العظيمة تناقش الأفكار، والعقول المتوسطة تناقش الأحداث، والعقول التافهة تناقش الأشخاص. وقيل: في المجتمعات المفتوحة يخرج أشخاص عن قيم وعادات مجتمعاتهم، وتتصارع الأفكار مع الآخرين في كل الاتجاهات فيتولد التجديد، وفي المجتمعات المنغلقة المعزولة، والتي يسيطر عليها ثقافة موحدة، يصعب على الإنسان التفكير والخلاف والتفاعل والخروج عما تعوده ويؤمن به الجميع. قيل أيضاً: الاختلاف سمة العلم ومن صفاته، والذين لا يختلفون حقاً هم الأميون علمياً وثقافياً، وكلما عم التعميم تميل النفس للأخذ بالرأي الواحد السائد.

ربما يمكن القول بشكل متواضع إن العلم وعلى الصعيد الشخصي يبعدك عن الجهال ويقربك من العلماء وأفكارهم ورؤاهم، وهذه فضيلة لا يعرفها ويقدرها إلا من صاحب الجهال أو سمع عن أفعالهم قبل أن يرتقي بالعلم عنهم، ومعرفته بكلامهم فيما يجهلون.

شبابُ الشيخوخة

في اليوم التالي على بداية هذه الأزمة الصحية الخاصة، حسبت عمري منذ يوم ميلادي فوجدت العمر قد أصبح 67 سنة و3 أشهر و18 يوماً، وأن عيد ميلادي القادم سيكون يوم الأربعاء 25 مارس 2020. أما عمري بالتقويم الهجري فكان 69 سنة و4 أشهر و11 يوماً، وأنني ولدت يوم ثلاثاء في فصل الشتاء، وأنني الآن في مرحلة الشيخوخة من العمر بعد 24580 يوماً أو 589929 ساعة.

في عيد ميلادي الستين سألتني أختي عندليب عن الشعور بدخول العقد السادس من العمر، لا أدري بماذا أجبتها ولكني لم أشعر بتقدم العمر، أو فلنقل بالشيخوخة آنذاك ولا في السنوات اللاحقة. لقد أصيبت زوجتي بسرطان الثدي قبل ست سنوات، وشعرت بمسؤولية أكبر لضبط الصحة حتى أساعدها، وربما لهذا السبب لم أفكر في أية متغيرات آنذاك، وفي الواقع كانت صحتي على ما يرام، وعقلي يأمرني للتصرف من واقع سن الأربعين أو حتى أقل من ذلك. كان اكتشاف سرطان الزوجة قد تم بالصدفة عبر شعورها بالورم. ذهبنا إلى مستشفى صغير نتعامل معه وأعرف صاحبه ومديره، وأجرينا الفحص فتبين وتأكد وجود الورم. في اليوم ذاته وقبل العودة إلى البيت والتفكير قررت الزوجة إزالة الورم، وأدخلها الجراح المختص في القلب إلى غرفة العمليات وأزال الورم وما حوله، وأعاد الوضع بخياطة فنية إلى ما كان عليه. في اليوم الثالث أعدتها إلى البيت، ولم نخبر أي واحد من الأهل إلا بعد شهر كامل، حيث أخبرت بناتي فقط وأخوة زوجتي. لم يكن التكتم لسبب محدد وإنما لعدم إزعاج الآخرين، الذين سيزعجونك في سؤال يومي عقيم عن الحال والأحوال، وزيارات أنت في غنى عنها، وتذكير دائم للمريض بمصابه.

لكن التكتم يتطلب في المقابل إرادة حديدية وتماسكاً روحياً وفنوناً نفسية للتعامل مع الزوجة وطمأنتها بالحب والعلم والمنطق، وتحتاج لقوة جسدية لجولات شبه يومية لشارع الأطباء لإجراء فحوص وصور وأشعة وحوارات حول الأدوية. لقد أصرت زوجتي على رفض العلاج الكيميائي أو الهرموني. اكتفت فقط بعلاج الأشعة للقضاء على أية بقايا للخلايا السرطانية، والتأكد أنها لم تخرج عبر الإبط إلى بقية الجسد. المهم هنا هو خلاصة الحوارات مع الطبيب المعالج الذي أفهمته الزوجة أن العلاجات المقترحة سوف تزيد الطين بله، وقد تطيل العمر ولكن ضمن تدهور وفقدان لنوعية الحياة، واستغرب وهو يستمع إليها تؤكد أننا وصلنا إلى مرحلة يمكن أن نودع فيها الحياة بكل رضا وسلاسة، ولا داعي لمباطحة المصير. القصة طويلة وقد استفدت من تلك التجربة في كيفية التعامل مع صديقي زياد عندما اكتشف

الإصابة بسرطان الرئة، واخبرته بالامر لأطمئنه بوجود فرصة للنجاه، وليطمئن الى بعض النصائح التي تجمعت عن تجربتنا.

منذ ذلك الحين نجري فحوصاً للزوجة كل ستة شهور، حتى اقتربنا من قناعة الانتهاء النهائي من تلك المشكلة، واصبحت أمازح زوجتي الآن بأن عليها الاعتناء بي، لكن الثابت الآن أن عقلي بدأ يتأقلم بسرعة مع واقع سني، وبدأت الحقائق تظهر أثناء محاولاتي استرداد العضلات عبر التمارين والرياضة، فلجأت إلى اليوغا لتهدئة النفس وضبط الجسد قدر الإمكان. يقال عن فوائد رياضة اليوغا انها تعود على الجسم بالكثير من النتائج: تزيد القوة الجنسيّة ونشاطها عند مُمارسها، تُساعد في شدّ الجسم والبشرة، وتمنعه من الترهلات، تُقلل آلام العضلات الذي ينجم عن الشد العضلي المُزمن. كما انها تُحسن الذاكرة بشكلٍ ملحوظ وهذا مهم في الشيخوخة وما أعول عليه. تُخفّف العدوانية عند الشباب وتقمعها .تُنظّم نبضات وعمل القلب، وتُقلّل ضغط الدم وتُحسّن عملية التنفس بشكلٍ جيد. نفسياً تساعد تمارين اليوغا في تقبل الذات بشكلٍ أكبر، وتُخفف حدة الأرق، وتساعد على النوم في الليل. تُؤخّر ظهور علامات الكبر وتقدّم السن وتُحسّن المزاج، وتمنع الشعور بالاكتئاب والتوتر كما تزيد الوعي العقليّ والتركيز وبالطبع ترفع نسبه ليونة المفاصل وأوتار الجسم .. وبعض من هذا ما يتمناه كل شاب وشيخ.

تقول معلومات وإحصائيات منظمة الصحة العالمية إن البشر أصبحوا يعيشون أطول من ذي قبل في جميع أنحاء العالم. واليوم، وللمرة الأولى في التاريخ، يمكن أن يتوقع معظم الناس أن تتجاوز أعمارهم الستين سنة وأكثر، كم أنا محظوظ اذاَ. ومن المتوقع أن يزيد مجموع عدد سكان العالم الذين تبلغ أعمارهم 60 سنة فأكثر من 900 مليون نسمة في عام 2015 إلى ملياري نسمة بحلول عام 2050، حين سيكون قد مر 98 عاماً على ميلادي. واليوم يبلغ عدد من وصلت أعمارهم إلى 80 سنة فأكثر 125 مليون نسمة. وبحلول عام 2050 سيوجد عدد كهذا تقريباً (125 مليون) في الصين وحدها، وعدد 434 مليون نسمة في هذه الفئة العمرية على نطاق العالم. وبحلول عام 2050 ستعيش نسبة80% من جميع المسنين في بلدان منخفضة ومتوسطة الدخل. أي بعد 30 سنة فقط ستشيخ حتى الدول الفقيرة والمتخلفة وذلك بفضل انتشار علوم الطب لمن يؤمن بالعلم ومن يؤمن بالغيبيات، وستكون هذه النتيجة كارثية على الدول الفقيرة المتخلفة نظراً لتكلفة الباهظة المطلوبة لدعم الشياب.

لقد بدأ بالفعل هذا التحول في توزيع سكان البلدان نحو التقدم في السن، والذي يُطلق عليه تعبير "شيخوخة السكان"، قد بدأ في البلدان المرتفعة الدخل (تبلغ مثلاً

نسبة السكان الذين تتجاوز أعمارهم 60 سنة بالفعل في اليابان 60%) كما أن دولاً متقدمة مثل ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا تقل فيها نسبة المواليد وترتفع نسبة الشيوخ وتفوق أعداد الموتى المواليد الجدد، أي انهم يشيخون وينقرضون. لكن البلدان التي ستشهد بسرعة أكبر التغيرات في هذا الصدد هي البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل. وبحلول منتصف القرن ستكون في كثير من البلدان، مثل شيلي والصين وجمهورية إيران الإسلامية والاتحاد الروسي، نسبة مماثلة لنسبة المسنين في اليابان.

إن عيش حياة أطول قد يجلب معه فرصاً لا تقتصر على المسنين وأسرهم بل تشمل أيضاً المجتمع ككل. فسنوات العمر الإضافية تتيح الفرصة لمتابعة أنشطة جديدة، مثل تعزيز التعليم وخلق فرص عمل جديدة أو مواصلة هواية طالما أهملوها. ويسهم المسنون أيضاً بطرق عديدة في حياة أسرهم ومجتمعاتهم المحلية. لكن الشرط الأساس لهذه الرؤية الإيجابية أن يتم الاعتناء بالصحة في سنوات مبكرة، بمعنى الطعام الصحي والامتناع عن التدخين وممارسة الرياضة. لكن النفس البشرية المتخلفة ميالة إلى السوء والإساءة إلى الصحة الذاتية، وكلما اعتلت صحة الأفراد والمجتمع سيتحول الأمر إلى كارثة في الانفاق الطبي واعتلال عام لكبار السن في الدول الفقيرة تحديداً. هذا القول تعززه المعلومات إذ لا توجد إلا بيانات قليلة تدل على أن المسنين يعيشون اليوم سنوات عمرهم المتقدمة في صحة أفضل، مقارنة بوالديهم في الدول متوسطة وفقيرة المستوى الاقتصادي والثقافي. إذا كان الناس يمكن أن يعيشوا سنوات العمر الإضافية تلك في صحة جيدة، وإذا كانوا يعيشون في بيئة داعمة فإن قدرتهم على أداء الأعمال التي يعطونها قيمة ستكون مختلفة قليلاً عن الأشخاص الأحدث سناً. وإذا غلب على سنوات العمر الإضافية تلك التراجع في القدرات البدنية والعقلية فإن الآثار التي ستلحق بالمسنين وبالمجتمع ستكون سلبية أكثر.

حسب منظمة الصحة العالمية: تحدث الشيخوخة نتيجة تأثير تراكم مجموعة متنوعة من الأضرار الجزيئية بمرور الوقت. ويؤدي ذلك إلى انخفاض تدريجي في القدرات البدنية والعقلية، وتزايد احتمالات المرض والوفاة في النهاية. ولكن تلك التغيرات ليست تغيرات خطية ولا ثابتة، وصلتها بعمر الفرد بالسنوات صلة غير قوية، فبينما يتمتع بعض من تبلغ أعمارهم 70 سنة بصحة جيدة وبأداء جيد إلى أبعد حد فإن آخرين في هذه السن يعتريهم الوهن ويحتاجون إلى مساعدة الغير. وبعيداً عن التغيرات البيولوجية توجد صلة بين الشيخوخة وبين التحولات الحياتية الأخرى، كالتقاعد عن العمل، والانتقال إلى مسكن أنسب، ووفاة الأصدقاء وشركاء الحياة. ولدى إعداد الاستجابة الصحية للشيخوخة من المهم ألا يتم فحسب اعتبار الطرق التي

تستهدف التعويض عما يفقده الفرد مع التقدم في السن، بل ينبغي أيضاً اعتبار الطرق التي تعزز التعافي والتأقلم والنمو النفسي الاجتماعي.

يتسم التقدم في السن أيضاً بظهور عدة حالات صحية معقدة تميل إلى الحدوث في مرحلة متقدمة من العمر، ولا تندرج ضمن فئات أمراض مميزة، ولكنها ليست حتمية الحدوث، ويشيع إطلاق مصطلح متلازمات المسنين عليها. وهي تنتج غالباً عن عدة عوامل كامنة، وتشمل الوهن وسلس البول وحوادث السقوط وفقدان التوازن والهذيان الذي هو الخرف ويعرف علمياً باسم الزهايمر، وغيرها من الأمراض التي قد تصيب البعض ولا تظهر على البعض الآخر. ويبدو أن متلازمات المسنين هذه تشكل عوامل للتنبؤ بالوفاة أكثر من دلالتها على وجود عدد من الأمراض المحددة. ولأنها لا تتعلق تحديداً بتخصص طبي واحد من التخصصات الطبية فإنها غالباُ ما يُغفل عنها في الخدمات الصحية ذات الهيكل التقليدي وفي مجال البحوث الوبائية. وربما يتم الكشف عن بعضها بالصدفة كما حدث في حالتي.

إلى جانب العوامل الجينية الوراثية فإن للبيئات أيضاً أثراً مهماً على النمو والحفاظ على السلوكيات الصحية للأشخاص. فالحفاظ على السلوكيات الصحية، وخصوصاً النظام الغذائي المتوازن والنشاط البدني المنتظم والامتناع عن تعاطي التبغ هي جميعاً أمور تساعد على الحد من مخاطر الإصابة بالأمراض غير السارية، وتحسين القدرات البدنية والعقلية.

التَرَوِي والحكمة

مع زيادة أحتمالات مواجهة الموت الفجائي قررت مواجهة ذاتي وضبط السلبيات على قدر المستطاع بضوء من الايجابيات لتحسين الحاضر واي مستقبل سيتاح. لن أحتمي بالقول: مثل كل الناس فهذا وذاك، لانني لا أعرف كيف يفكر كل الناس، ولكن هناك ملامح للتعرف على توجهات الكثير منهم. هذه الخاصية في التمييز افتقدها أحياناً وأعطي أحكاماً شمولية ضد مجتمعات او جماعات او ايديولوجيات، بل أحياناً ضد عائلات، وفي كل الحالات فهذه أحكام تعميم تثبت جهلي حين الجأ اليها. كما أنني معجب بعقلي، وشبه متأكد ان بوسعي تولي زمام كل أمر وأدارته بنجاح معتمداً على اسلوبي المنطقي، لكنني حين اتذكر الاخطاء التي وقعت فيها يصبح علي الاقرار بضلال ظني بمقدراتي الفكرية، وارى بالفعل ان التمادي في هذا التوجه أنما يدلل على قلة العقل وليس زيادته، فنحن لا نعيش منفصلين في جزر صغيرة منذ الاف السنوات وأنما العكس، وهذا يتطلب تنمية روح الجماعة والتعرف على متطلباتها حتى لو كانت سلبية، بمعنى الاقرار بعقلية القطيع، وبدل التصدي لها نُحسن توجيهها وتطويرها وتجنب ويلاتها.

لقد قدمت الكثير من المساعدات المتنوعة لاناس بعضهم يخصني والاخر لا يخصنى، وقدمت لأعمال في خدمة المجتمع والوطن والامة، وقلت مراراً انه لو فعل كل واحد من الاخرين عشرة بالمئة مثلي لكنا الان في عالم أخر، ولما كانت فلسطين مُحتلة ولما كان هذا وذاك. نعم قمت بمثل هذا وليس هنا مجال ذكره، ولكني في الحقيقة ارى الان انني كنت ولا زلت مُقصراً، فلا يعقل ان اقارن ذاتي بغيري واتوقع منهم القيام بما ليس في وسعهم القيام به سواء لاسباب مادية او فكرية، كما ان الظروف المماثلة لم تُتح لهم. أكتشف الان انه كان بوسعي عمل المزيد في أيام الشباب وتقاعست، ولا زال بوسعي العمل في مجالات عدة تناسب سني ووضعي وتفيد الاخرين المحتاجين للدعم والارشاد المعنوي او الادبي. لقد أخطأت في حق الجميع حين فكرت انني فعلت ما يكفي وغير ذلك لا يعنيني، فهذه من ضروب الانانية حتى لو كنت في محيط غير ملائم نظرياً مع رؤاي، فالواجب عدم الكف عن فعل الخير حتى بمقدار شعرة واحدة.

في محاولة مني لتلمس الاسباب وليس سياق الاعذار يمكنني التخمين ان كوني فلسطينياً له علاقة بما فعلت وجرى لي، فنحن نظن ان العالم خاننا وتخلى عنا بالرغم من احترامنا له، وان ذلك العالم مدان لنا لتخلصة من يهوده على حسابنا ولتخليه عن قيمه تمريراً وتثبيتاً لمصالحه .. هذه الامور تخلق واقعاً ذهنياً جماعياً يدفع للتماسك

الادبي والفني والانفصال السياسي .. تجدهم يحبون الدبكة والناي والمجوز ولكنهم على الدوام متخاصمين سياسياً ويعيشون اجتماعياً وذهنياً في مكان وزمان غير واقعهم، واقعنا، الفعلي.

علومي التي تعلمتها وتجاربي التي أكتسبتها، لا تقارن باصحاب التخصص في ذلك المجال، كما انها ليست في قمة العلوم، وتطبيقي لمعرفتي لم تضعني قرب أي قمة. لقد درست العلوم السياسية والاجتماعية والدينية، وعملت في الاعلام العربي والاجنبي، ثم انتهيت الى العمل في الادب وتحديداً الروايات التاريخية.. وأكرر انني لست الافضل ولم أكُن قريباً من القمم ولم أفز باي جوائز.. أحياناً اظن بصوت مرتفع ان سبب ذلك ابتعادي عن التملق والاجتماعيات عموماً، لكن في الحقيقة عندما أقرأ للبعض من المؤلفين اجد انهم أفضل مني بكثير، وللحقيقة أيضاً هناك من يوضعون على القمم بغير وجه حق سواء في الادب او السياسة، الذين يتبؤون مناصبهم بشكل مُستحق هم علماء العلوم حيث لا مجال هنا للمدارة والتملق.

الكثير من الاصدقاء والمعارف يغرونني بالقول ان لي من أسمي نصيب، وأخذوني في الظن معهم انني شجاع، وأحياناً أفسر تصرفاتي من باب الشجاعة سواء في مواجهات سياسية او حوارات وكتابات مجتمعية وايديولوجية او مناصرة الحق وبالطبع العصبية مع عابري السبيل في مركباتهم. علي ان أقر بوجود من هم أشجع مني الى درجة ان مقارنة ذاتي بهم تثبت انني جبان ضمن التفسيرات السائدة. أنا لا أتصور وقوفي في مواجهة خصم لنتصارع بالسيف، ولا حتى مواجهة بالرصاص أخرج منها قاتلاً أو مقتولاً دون أحتمال ثالث. علي الاقرار بأكتشافي مراراً ان زوجتي أشجع مني في مواقف خطرة. على سبيل المثال ذهبنا ذات يوم لاصطحاب ابنتنا من المدرسة، قرب البوابة شاهدنا والدين لطفلين يتقاتلان مثل هابيل وقابيل بقذف حجارة كبيرة على بعضهما بينما طفليهما يبكيان بالقرب من موقع المعركة. في لمح البصر ومن دون استشارة رايت زوجتي بينهما تنهرهما ليتوقفا عن ارهاب الاطفال.. بالفعل توقفا وهما في قمة الغضب وأخذ كل منهما يكيل الاتهامات للاخر ثم انسحبنا من الساحة، ولم أعرف هل اهنئ زوجتي ام اوبخها، لكنه كان قرارها ومسئوليتها في الوقت الذي جبنت فيه عن التدخل خوفاً من العواقب في مواجهة شبه ثورين هائجين.

بعد سن الخامسة والستين قررت تجنب الجدال المباشر مع الاهل والاقارب، واذا تطلب الامر الاعتذار لانهاء الخلاف فأعتذر بسرعة، لكنني أتخذ قراراً لاحقاً على ضوء تحليل الموقف.. هل يكون الاعتذار نهاية طريق او حلقة وسيطة؟ أذا رايت ذاتي محقاً يكون قراري الحسم المؤدب مهما كانت النتائج، لان العمر لم يعد يسمح

بمجاملات وسطحيات وتكرار للاخطاء وتحامل على المجاملة، وأذا رأيت الخطأ في جانبي وبعد ان أكون قد أعتذرت فأنني اصلح الحال وأستمر. لقد فكرت في غياهب عقلي فوجدت أنني أسيئ الظن بالاخرين لاعذار ذاتي وتبرير ما يدور في مخيلتي، وهذه خصلة سيئة. أحياناً تشاء الصدف فأكتشف خطأ سوء ظني اذ يتبين ان الامر كان مخالفاً جداً عما ظننت، وأحياناً أخرى يمر الزمن ولا أكتشف حقيقة الامر، وهذا يجب ان يُحسب لصالح حسن الظن حتى يثبت العكس .. في الواقع ان غالبية حالات سؤ الظن التي تحرضني ذاتياً يثبت خطؤها ولو بعد حين، وما كان يجب ان تشغلني اصلاً ولا ان ابني على أساسها مواقف، وهذا درس يتوجب علي تعلمه فيما تبقى من العمر، واذا كان السؤ صحيحاً فيجب تجاوزه وعدم هدر التفكير فيه. صحيح انه يجب علي الا أسعد غيري بما يضرني حتى لو كان فرض شريعة او فضيلة، ولكن على الاقل علي الا اسيئ الفعل او الظن بالاخرين من دون سبب ثابت مؤكد.

لقد أضعت الكثير من الوقت في التفكير باشياء لا طائل منها، واقر الان لو شغلت فكري في أمور عملية ونظرية أخرى لكان حالي أفضل مما هو عليه الان، ربما صحتي ستكون أفضل لو أنشغلت بالرياضة الجسدية والفكرية، وهمومي بالتأكيد ستكون أقل لان الهم ينبع من الفكر تماماً، ولو شغلت وقتي المهدور بمطالعة المزيد من الادب العالمي والتأمل فربما كان انتاجي أفضل وأغزر. بالرغم من ذلك فلست تعيساً وان كان بالامكان كسب المزيد من السعادة وإفادة من يحتاج للفائدة لو خصصت المزيد من الوقت المهدور لهذه الامور.

البلاوي حسب رؤية الفلاسفة مصدرها عوامل الخوف والهم والمرض والفقر ولحسن حظي ان نصيبي منها قليلٌ جداً للان، وان مرضي يتماشى مع سني والخوف لا يداهمني رغم حقيقة ان مرضي هذا الان قد يؤدي الى موت فجائي بجلطة كبيرة او موت بطئ اذا جاءت الجلطات صغيرة وتباعاً لتصيب أجزاء أكثر حساسية في المخ. هكذا فهمومي أيضاً بسيطة وفقري المالي معدوم. بالاجمال اتوقع حدوث الهم وبالتالي اذا جاء اكون مستعداً له، واذا جاء العكس يتعاظم سروري.

البلاوي تأتي وتذهب وكذلك الالم، لكن ذكرى بعض الالم تبقى وتعاود الانسان، على ما أظن، وبالنسبة لي فالالم الاشد كان فراق أحبة وأصدقاء تعاودني ذكراهم فيتألم قلبي، وهؤلاء فارقونا قبل أوانهم بمرض. الم دفنُ الأبناء لآبائهم شيئاً طبيعياً ويزول وتبقى الذكريات الطيبة، لكن دفن الكبار للصغار هو ما يؤلم. لقد قتل السرطان أختى عائشة التي تكبرني ولم تكن كبيرة أنذاك، وقتل أخي الذي يصغرني، عبد الكريم، وهو في مقتبل العمر. كما قتل السرطان الصديقة دومنيك قبل عقد من الزمن، ولم يخفف من الالم انني حضرت دفنها والقيت كلمة الوداع على الاهل

والاصدقاء في المقبرة. صديقة أخرى عزيزة، ام سامر، وزوجة صديق منذ اربعة عقود توفت بالسرطان بعيداً عنا وعرفت انها طلبت الحديث مع زوجتي وهي تنازع الحياة، وبالطبع صديقي زياد الذي خطفه السرطان قبل عام، وأخبروني انه طالبني بهذا الكتاب في ساعاته الاخيرة.. كل هؤلاء الذين عانوا من السرطان وذهبوا قبل أوانهم، واي واحد منهم تؤلمني ذكراه رغم التظاهر بالنسيان.

الخوف أشكال والوان، وقد تحدثت عن الرئيس منه وهو الخوف والتوجس من الموت. لكن الخوف اليومي والليلي والشيطاني معدوم عندي تماماً. اسير في الليل والظلام في مناطق غير مأهولة مطلقاً ولا يجرؤ أهل القرية المجاورة لسكني على التواجد فيها بعد مغيب الشمس. أنام مطمئناً في أي مكان بعد التحوط من الحشرات والعقارب، أتجادل مع من يخافون العفاريت والشياطين وانا على قناعة انها أمور معششة في الدماغ. أقر ان الكثير من المعارف والاقارب في قطر يؤمنون تماماً بالعفاريت وبعضهم يؤكد رؤيته لاشياء خارقة الى درجة انهم تركوا البيوت التي يسكنونها، وفي بعض الاحيان كان صديقي زياد يحسم الحوار في هذا الامر فور بدايته او دخوله اليه بالقول: اللي بيفكر في العفريت بطلعله. وهذه حكمة شعبية صحيحة تماماً، لان من يفكر في العفاريت فهي تملأ ذهنهُ وتخيلاته ويخافها فيراها كلما فكر فيها ثم تشغل جل ذهنه في ظروف واماكن محددة.

ليلة عيد الاضحى 2019 صحوت مع الاذان الاول على صوت تك خفيف، فتحت عيوني فرأيت ما ظننته زوجتى تتحرك في الغرفة وهذا غير مستغرب، لكني نظرت الى جانبي فاذا بها هناك نائمة، تحسستها فتأكدت من وجودها مثل تأكدي من رؤية شئ تحرك ولكن لم أسمع اصواتاً لاحقة. نهضت من الفراش بهدؤ وفتشت في الغرفة وفي بقية البيت وعدت الى النوم مؤكداً لذاتي وجود تفسير ما. في الصباح رايت في المكان ملابس معلقة على غير عادة فوق الشماعة وبالقرب من السرير تركت الزوجة كمبيوترها على الشاحن يعطي ضؤ أخضر متقطعاً وبين الحين والاخر يصدر صوت التك لانها لم تطفئة، وتذكرت ان المكيف كان شغالاً في الليل ويحرك الهواء. أتضحت الصورة ولم أكن قد تشككت في الامر.

لا أملك قطعاً تفسير كل الاشياء والظواهر الغريبة، لكن كل شئ له تفسير علمي أو منطقي ولا يعني عدم التوصل اليه وجود الخوارق والخزعبلات. في عام 1971 ومع بداية فترة دراستي في المانيا، وأثناء جلوسي نهاراً في مطبخ سكن الطلاب سمعت صوت باب المصعد، ثم نظرت الى القادم الذي أطل برأسه عبر الزاوية ونظر الي ونظرت اليه بتمعن.. أنسحب مسرعاً وذهلت لعدة ثوانٍ ثم طاردته.. كان المصعد فارغاً، وركضت هابطاً على الدرجات ولم أعثر علي أي أثار لي، فعدت

بخفي حنين ولم أخبر أي أنسان حتى الان أنني شاهدت نفسي.. من أطل علي كان أنا وكأنني أنظر في مرأة.. كانت خدعة ذهنية على الارجح ذات علاقة بحداثة تغربي في مجتمع جديد في الشكل والمضمون.

إنَها الحياة

الحقيقة بالنسبة لي الآن هي أنني لست شاباً في الأربعينات، ولست في شباب الشيخوخة وهي مرحلة الخمسينات، ولم أعد حتى في مطلع الستينات. وقد كنت بالفعل ايام العشرينات أتمنى لو عشت حتى الخمسين ظناً مني أنني سأحرر فلسطين، وأعيد العدل والحق قبل مرور ثلاثة عقود، أو سأموت في ذلك السبيل. ها أنا أكتب بعد تجاوز عمري للسابعة والستين ولا زلنا في قضية فلسطين مكانك سر، أو حتى للخلف در، شاخ ومات من خرجوا منها صبيان لاجئين عام 1948، وأيضاً من حُملوا أطفالاً آنذاك، وغالبية الذين ولدوا في الخيمة الأولى، والآن جاء الدور على من ولدوا في البيت الأول مثلي.

كانت الصدمة الأولى قد حدثت لي قبل بضعة شهور. ذهبت إلى مكتب البريد لأتفقد الرسائل في صندوقي. تركت السيارة وبها زوجتي على الجانب الآخر من مكتب البريد واجتزت الشارع المزدوج المفصول بجزيرة، اجتزته فوق جسر للمشاة. عندما أردت العودة تكاسلت، ووقفت أتحين فرصة لقطع الشارع والجزيرة والشارع الآخر حيث أوقفت سيارتي. جاء شاب وسألني إذا كنت أريد قطع الشارع. "نعم شكراً لسؤالك". قلت له متجاهلاً شاكاً في نواياه في الأصل. تركني وهلة لم ينقطع فيها سيل السيارات، ثم تقدم وتوسط الشارع وأوقف طابورين متوازيين من السيارات ولم يحتج أي سائق بزامور، وهذا ملفت للنظر، وقال لي: "تفضل يا عمي اقطع الشارع". وقد هم بمسك ذراعي لزيادة الطمأنة. قطعت الشارع إلى الجزيرة واستدرت إليه ملوحاً بالشكر ولم يكن الطرف الآخر شديد الازدحام. عندما دخلت إلى السيارة سألتني الزوجة ما الخبر؟ إذ ارتسمت على وجهي على ما يبدو علامات دهشة أو صدمة. "لقد تبرع شاب للتو وأوقف السير وقطعني الطريق". قلت لها وفغرت فمها ثم انخرطنا في الضحك الذي تلاه الصمت، حتى وصلنا إلى منزل صديق يكبرني في السن وفقد زوجته منذ مدة وتزوج أخرى تصغره بعشرين عاماً. أخبرناهم بما حدث، وضحكنا وأقنعنا أنفسنا بالنظر إلى الأمر (إن الدنيا لسه فيها الخير وشباب يتطوع لمساعدة الغير).

مضى على تلك الصدمة نصف عام، ثم بعد 35 يوماً من صدمة الإغماء وما عثرنا عليه في الفحوص، ضبط نفسي أتصرف بعقلية الشباب وأناطح آخرين في الطريق العام، لظني أنهم لا يحترمون قواعد المرور ويحتاجون لتأديب. ليس ذلك فحسب بل على الصعيد النفسي لا زلت أصحو من النوم أفكر في شئون كنت أفكر فيها أو في مثلها قبل نصف قرن، وهذا ليس فقط على صعيد الجنس حتى لا تسرح

أفكاركم، إنما أيضاً في شأن السياسة والدين والتخطيط للمستقبل القريب والبعيد، وبالطبع ضبط مواضيع استكمال هذه السيرة التي قررت ان انتهي منها في الذكرى الاولى لمغادرة زياد هذه الحياة، يوم 14 اغسطس 2019 فأكون قد اوفيت بالوعد.

لقد اكتسبت خبرات وتجارب بالطبع من هذه التجربة، لكنها لم توصلني إلى التصرف كشيخ أو مُسن، ولا أشعر بحاجة إلى ضخ النصائح للشباب، فهم أصلاً لن ينتصحون ولا بد أن يمر كل إنسان بتجاربه الخاصة في بيئته ليرتب على أساسها حياته. شهواتي وتطلعاتي وأحاسيسي وعلى الأغلب أخلاقي التي تحكمت في تصرفاتي لا زالت كما هي. أتنبه لهذا الحال غالباً وأسعى لتغيير بعضه ولكن من دون جدوى، وخصوصاً الأشياء التي تدور في العقل الباطن، أصبحت أنجح في إخفائها عن الآخرين وإقناع الذات بعدم ضرورتها، ولكنها لا زالت تداهمني. هذه قطعاً ليست من سمات مرحلة الشيخوخة كما نظن سماتها. أو بمنظور آخر يمكنني القول إن عدد السنوات لا يحدد الفواصل بين مراحل العمر بعد الثلاثينيات، لكن المرض والعجز الجسدي والعقلي يحددها، والعلم والتجربة وما تؤديان إليه من موقع اجتماعي تلعب دوراً في تحديدها.

طوال شهر مضى تجاهلت مصادر القلق التي لا سلطة لي عليها، فالمؤكد أن جلطات صامته كثيرة قد حصلت لي، وأن احتمال حدوث واحدة أكبر قائم في أية لحظة وبنسبة أعلى من الطبيعي، أو واحدة صغيرة تصيب مناطق حساسة في المخ، مثل المسؤولة عن الحركة أو النطق، لكن هذا لا يبقيني في دائرة الهواجس. عدت للكتابة وللتركيز على الاعتناء بالصحة بعدة طرق وفي مقدمتها الرياضة، وأضفت إليها تمارين اليوغا الأولية، والنتيجة أنني أشعر بتحسن واضح جسدياً، وبعودة متواضعة للكتلة العضلية، ومع احتفاظي بالرجيم الذي خفض وزني وحافظ على ثباته، إلا أن الوزن عاد للارتفاع بفعل العودة المنظمة للرياضة.

لا أريد الادعاء أنني الآن جسدياً أو فكرياً كما كنت قبل نصف قرن، بالتأكيد هناك تراجع متواصل في الأداء الجسدي، ولكنني أجزم بإمكانية التحسن بعد التدهور إذا كان الجسد قائم على أسس صحيحة منذ زمن، وإذا وجدت الروح الداعمة غير المستسلمة للسائد من آراء وأفكار ومعتقدات. حين يستجيب الإنسان للأوهام ويظن بضرورة الراحة في الفراش، فهو يحكم على ذاته بالفناء عبر المزيد من الأمراض، أو كما يقول مثل ألماني: من يرتح يصدأ. بالطبع يشعر الشاب بامتلاكه للزمن والمستقبل وأن بوسعه التأجيل والتأني، لكن الستيني والسبعيني يدرك اقتراب النهاية مهما كان جسده سليماً وعقله معافى، ولهذا يصبح البعض في حالة من الاستعجال

للإنجاز واستكمال ما يريد، كما في حالتي، بينما في حالات أخرى قد يجلس المتقدم في السن بانتظار الموت أو مشاغلة الأهل والأقارب بما يتخيله من أوجاع.

بمعنى آخر قد تشعر أنك أصبحت في مرحلة شيخوخة الشباب، أو دخلت إلى شباب الشيخوخة. لك أن ترى نفسك شاباً مقارنة بالسبعينيين والثمانينيين، أو شيخاً بالنسبة للثلاثينيين والأربعينيين. المسألة وجهة نظر، فمثلاً في بعض البرلمانات التي تضم أغلبية من كبار السن قد تشاهدهم يتضاربون ويتصارخون كطلاب المدارس المنفلتة، بينما في برلمانات أخرى أغلبيتها من الأعمار الشابة تجدهم يتصرفون بتروٍ واحترام وأدب معاملة وكأنهم شيوخ. إذن تعداد السنوات ليس العامل الفاصل في تحديد المراحل العمرية، فقد تصل السابعة والستين وأنت تشعر بعز شبابك ثم تمر بتجربة توضح لك أنك على أبواب، أو دخلت مرحلة عمرية جديدة مختلفة تماماً. قد يحدث هذا للبعض في الخمسينات من العمر أو نهاية السبعينات منه.

مع الإطلال على السبعينات تصبح رغباتك ملجومة بقدراتك، وكلما تمردت الرغبات تقرعها الطاقة وتعيدها إلى سواء السبيل. وبالطبع تصبح راغباً في وقادراً على الاستغناء عما هو غير ضروري، مهما كان نوعه لأن الحياة ذاتها أخذت تتسرب بسرعة متلاحقة، وتصبح معتمداً على خبرتك وذكرياتك أكثر من الاعتماد على القوة والصحة، كما تتضح قدراتك في الحكم على الأمور، فترى ان المال الزائد عن الضرورة لا يمكنه شراء الا غير الضروري. تقيم الأشياء بسرعة ودون تردد، فلا تحتاج لوقت طويل للحكم على نوعية الناس وصحة هذه الصداقة من انتهازيتها، والحكم على جودة أي كتاب أدبي من مطالعة جزء يسير منه.

مهما يكن من رؤية للختيارية فهناك فوارق بينهم وبين الشباب خصوصاً منذ الوصول إلى التقاعد المهني وتراجع الدخل المالي الذي يتطلب ضبط الأمور.. لا سعي وراء ديون وقروض تسدد من الراتب الشهري كما هي حال الشباب، ولا إنفاق متهور للمدخرات المتراجعة حتماً، ولا نهم في الطعام حسب تعليمات الطبيب وقدرات الجسم وحساب العواقب النهمية .. وإذا أكل الختيار بنهم فذلك إطراء على الطعام وعلى الطاهي، فالشاب يأكل أي شيء تقريباً وليس في إقباله على الطعام أي تشريف للطاهي. يسهر الختيار مع كتابه او افكاره الى اي وقت يشاء دون حساب لموعد العمل في الصباح، ولكنه لا يتمتع بالتلفزيون لان كل شئ فيه تقريباً يُذكر بالشيخوخة وتقدم العمر، فالاخبار مهما كانت جديدة تبدو مكررة وكأنها حدثت من قبل، والبرامج معادة، والافلام كلها شوهدت من قبل، ومثلها المسرحيات وطبعاً الموضة الجديدة للشباب قديمة للختيار وكأن كل شئ خلق للشباب فقط، او كأن دورة الحياة مداها من خمسةٍ وعشرين الى خمسةٍ وثلاثين عاماً ثم تتكرر .. الختيار الذكي والصحي هو فقط الذي بوسعه البحث عن مكونات السعادة وتخيل انه بالقليل منها يعيش في جنة.

بالطبع فأن الختيار وطالما معداته الجنسية شغالة، يتوق إلى الإنجاب كما هو الحال للثلاثيني مستقر الدخل، وعلى الأرجح أن هذا الشعور طبيعي سليقي غريزي ضمن تفكير المخ في حب البقاء لأطول فترة على الأرض حتى لو كان عبر الإنجاب. لكن ذلك المخ يحسبها تماماً من ناحية الإنجاب والمصاريف والتعليم والضجيج وصراع الزوجات، فتبقى هذه غريزة من النوع المتحكم فيه، وهذا ما يميز في النهاية الإنسان عن الحمار، أو عن الأسد، الذي لا يكف عن نكح إناث القطيع والهيمنة عليها حتى يُطرد طرداً من أسد شاب أقوى منه وأجمل. الوسامة بين الشاب والشايب مسألة نسبية بالطبع، فهناك شبان أشبه بالقرود، وشيبان تشع منهم الوسامة كونها تعكس جمال الروح وسماحة المحيا، والعكس صحيح بالطبع. تعكس التجاعيد للقلة من العواجيز قصة حياتهم، لكن في الغالب يبدو الشيبان أجمل من الشباب ربما نتيجة لعنصر السماحة واللامبالاة.. أو لأني أُقنع ذاتي بهذه الحقيقة.

هكذا هي الحياة منذ الأزل وستبقى كذلك للأبد، تتوالى فيها السعادة والتعاسة، الفرح والحزن، فبعد هذا لابد من ذاك، تذهب عنه أو يذهب عنك.. والعجيب أن كل شيء تحتاجه حقاً هو الهين، وكل ما تنشده وتبغاه هو التافه، وهذا ما ينطبق على الماء والذهب، فبدون تواصل تعاطي الأول لا حياة، ومهما امتلكت من الآخر فأنت في غنى عنه. والحياة هي الآن فقط، زمان الماضي والمستقبل لا يحتسبان، فالأول مضى ولن يعود، والثاني مجهول قد يأتي وقد يتخلف، بينما الخلود هي لحظة اليقظة التي يجب أن يعمها السعادة، ولا تُهدر في استدرار الذكريات والخوف من نسيانها في المستقبل. بوسعك أن تحيا الحاضر مفكراً في الموت الذي يزحف إليك بشكل حتمي، أو تقضيه مستمتعاً في البحث عما يُسعدك. لك أن تُقرر إذا كنت موجود من أجل أن تعيش أو من أجل أن تموت، ولك ان تختار ان كنت تريد الان الحياة في الجنة على الارض ام انك أخترت الجحيم.